

التَّصَوُّرُ وَالنَّصِيحَةُ

بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق

تأليف

الإمام الحافظ المجتهد ناصر السنة

شهاب الدين

أبي لفيض بن محمد بن محمد بن الصديق

أدام الله به النفع آمين

طبع على نفقة

مكتبة الخزانة النجفية ومطبعها

سنة ١٣٦٦ هـ

BOBST LIBRARY



3 1142 02821 4875



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY



1874



Ibn al-Siddiq, Ahmad ibn Muhammad

التَّصَوُّرُ وَالنَّصِيحَةُ

بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق

/al-Tasawwur wa-al-tasdiq/

تأليف

الإمام الحافظ المجتهد ناصر السنة

شهاب الدين

أبي لفيض بن محمد بن محمد بن الصديق

أدام الله به النفع آمين

طبع على نفقة

مكتبة الخياصجي ومطبعها

سنة ١٣٦٦ هـ

مطبعة الاستاذة بيوتنا في القاهرة

1947

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام

على سيدنا محمد وآله

الطاهرين

أشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً عبده ورسوله

والله أكبر

أشهد أنك خير مني

أشهد أنك خير مني

أشهد أنك خير مني

Near East

BP

80

.I₂₃

.I₃

c.1

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى .

أما بعد : فاني كنت جمعت كتاباً في ترجمة والدي . قلت في أوله :

الحمد لله الذي أنار القلوب بأنوار معارف أوليائه ، وأشرق فيها شمس الهداية بأسرار علوم أصفيائه ، وجعلهم نجوماً يهتدى بهم في ظلمات الجهل من أسعده الله بحبائه ، ورفع عنه حجاب المعاصرة فأشهدده خصوصية خاصة أحبائه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة نستوجب بها نيل رضائه ، ونستجلب بها كمال السرور عند لقائه .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه وخليته ، أعلم العلماء بصفات الله وأسمائه ، وأعرف العرفاء بجلال عظمة الله وكبريائه ، وأشرف مخلوقات الله في أرضه وسماؤه ، صلى الله عليه وعلى آله الفضائل برضى الله ، والقائمين بشكر نعمائه ، وصحابته السابقين إلى إجابة دعوته وتلبية نداءه .

أما بعد : فلما كان شكر المنعم من أوجب الواجبات وأشرف الخصال ، وبر الوالدين من أعظم القربات وأفضل الأعمال ، وكان تدوين مناقب الشخص وفضائله ، ونشر محاسن أخلاقه وشمائله من تمام البر به وشكر نعمته ، والقيام بخدمته ورعى حقوقه وحرمته .

جمعت كتابي هذا في مناقب سيدى وأستاذى ووالدى الشيخ الامام العلامة

البحر الهام ، غوث الأنام ، ومصباح الظلام ، مفيد الخاص والعام ، ومقتدى الأولياء العظام ، بحر العلوم والمعارف ، ومعدن الأسرار واللطائف ، مربى المريدين ، ومرشد السالكين ، خاتمة العلماء العاملين ، وغرة جبين الأولياء الكاملين ، صاحب الكرامات الظاهرة ، والخوارق المعجزات الباهرة ، والأخلاق الزكية الزاهرة ، والشيم المرضية الظاهرة . الغوث الصمدى والفرد الحمدي . الختم الجامع ، والضيء اللامع ، برزخ الحقائق والشرائع ، المجتهد المطلق المخصوص بعناية الله على التحقيق . والمنعم عليه بكال الهداية والتوفيق ، مولانا « محمد بن الصديق » رضى الله عنه وعنا به ، ونفعنا ببركاته قياماً ببعض ماله على من الحقوق العظيمة وأداء لبعض ماوجب من شكر نعمه الجسيمة ، فانه أنعم على ديننا ودنيا ، وأحسن إلى روحاً وجسماً ، جزاء الله عنى أحسن الجزاء ، وجمع بينى وبينه فى دار الكرامة والبقاء آمين .

وقصدت مع ذلك نفع الراغبين فى العمل الصالح ، والاهتداء بهدى حزب الله الفالح ، واتهاج مناهج أهل الله ذوى المتجر الرابع .
وسميته « سبحة العقيق » بذكر مناقب الشيخ سيدى محمد بن الصديق » ورتبته على ثلاثة عشر باباً :

الباب الأول : فى نسبه ومقر أسلافه ، وسبب انتقالهم من أحواز تلمسان إلى غمارة .

الباب الثانى : فى ترجمة أجداده من قبل الأب والام ، وذكر ما لهم من المناقب والكرامات .

الباب الثالث : فى ولادته ونشأته وطلبه للعلم ، وسلوكه طريق القوم ، ومجمل تاريخ حياته .

الباب الرابع : فى وصف حالته العلمية ومواهبه الفتحية .

الباب الخامس : فى سرد جملة من أخلاقه السنية السنية وأحواله الزكية المرضية .

الباب السادس : فيما أكرمه الله به من الفضائل والمزايا وما أجراه على لسان خواص عبادته من مدحه والثناء عليه نثراً ونظماً .

الباب السابع : في بعض ما جرى على يديه من الكرامات وأخبر به من الغيوب والمكاشفات .

الباب الثامن : في الأوراد والأذكار التي كان يلقيها ويأمر بها أصحابه .

الباب التاسع : في ترجمة بعض أولاده ، وزوجته الأولى التي توفيت في حياته .

الباب العاشر : في ترجمة من عرف من مشايخه ومجيزيه في العلم الظاهر .

الباب الحادي عشر : في ترجمة شيخه في التصوف وسلوك طريق القوم .

الباب الثاني عشر : في سلسلة طريقه وتحقيق اتصالها بأبي الحسن الشاذلي

رضي الله عنه .

الباب الثالث عشر : في ذكر مرضه وانتقاله وما قيل في رثائه .

واعلم أنه قد سبقني إلى تدوين مناقب الشيخ جماعة من الفضلاء . منهم الفقيه المفتي المؤرخ أبو عبد الله محمد بن العياشي سكيرج القامسي ، وسمى كتابه نبذة التحقيق ، والعالم العامل الصوفي الخطيب أبو حامد العربي بن العربي بو عياد الطنجي ، وسمى كتابه « نسمات وادي العقيق » ، والأديب الصوفي أبو عبد الله محمد بن الأزرق الفاسي ثم الزياتي ، واسم كتابه حادي الرفيق والفقيه المدرس أبو حامد العربي بن المبارك العبادي السلاوي ، وكان شرع في كتابته أيام حياة الشيخ رضي الله عنه ، لكن صوارف الزمان صرفته عن إكمالها ، وشواغل الدنيا شغلتها عن الفوز بسعادة إتمامه ، وكل هذه المؤلفات حاضرة لدى ، وشاهدة بأني حمت حول القيام بما وجب على فانها بالنسبة لكتابي كقطرة من نهر أو غرفة من بحر ، إذ رب البيت أدري بما فيه ، وصاحب القصيد أعلم بقوافيه اه .

إلا أنه لما كان واسع القول ، كبير الحجم ، تقصر الأيدي غالباً عن استنساخه وكتابه ، وتكفل الهمم دون استيعابه وقراءته اختصرته بحذف ثلاثة أبواب بكاملها ، وهى الباب الثامن والتاسع والعاشر ، ولخصت مقاصد الأبواب العشرة الباقية فى هذا المختصر .

وسميته : التصور والتصديق بمناقب الشيخ سيدى «محمد بن الصديق» ، فقلت وبالله التوفيق .

الباب الاول

فى نسبه ومقر أسلافه وسبب انتقالهم من أحواز تلهسان إلى غماره

أما نسبه : فهو أبو عبد الله سيدى محمد بن الصديق بن أحمد بن محمد ابن قاسم بن محمد بن محمد مرتين بن عبد المؤمن بن محمد بن عبد المؤمن بن على ابن الحسن بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن سعيد بن مسعود بن الفضيل بن على بن عمر بن العربى بن علال بن موسى بن أحمد ابن داود بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على وفاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا هو النسب المعروف الشائع بين عائلتنا والموجود بأيديهم فى بعض التقايد القديمة .

وذكر العلامة أبو العلاء إدريس بن محمد الفضيلى الشريف العلوى فى الدرر البهية والجواهر النبوية فى الفروع الحسينية والحسينية فى الفصل الثالث فى ذكر أبناء القرع الثالث من فروع مولانا عبد الله الكامل ، وهو السيد سليمان مانصه وفرقة بغماره ، وهم أولاد عبد المؤمن ، ورجع بعضهم لتلهسان وجميعهم أولاد السيد عمر الشريف بن محمد العابد بن إدريس بن محمد بن سليمان ابن عبد الله الكامل اه ، فالله أعلم من أين دخل الوهم .

أما النسب : فهو ثابت محقق بطريق الشهادة والاستفاضة والتواتر بين

الناس في الشهادت ورسوم الأناكحة والبيوعات والهبات على ضرائح
 الأسلاف وغير ذلك من التقاييد والتعاريف من أواخر القرن العاشر إلى
 هذا العصر ، وكذلك في ظواهر الملوك الآمرة بتعظيم الأسلاف واحترامهم ،
 ورفع التكاليف اللازمة لغيرهم عنهم من دولة الشرفاء السعديين ، ودولة
 الشرفاء العلويين الحاضرين ، إلى دولة السلطان عبد العزيز المؤرخ ظهيره
 بذلك سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف ، ومن بينها ظهير السلطان مولاي
 اسماعيل الذي بحث في دولته عن الاشراف وحقق أنسابهم بالطريق الشرعي ،
 فكان لا يصدر ظهيراً باقرار النسب إلا بعد ثبوت ذلك عنده ، كما هو
 معروف في ترجمته ، ونص عليه حفيده السلطان سيدي محمد بن عبد الله في
 ظهير له .

فقال : ويعلم ويتحقق أن العلماء العاملين أجمعوا على أن النسب المقطوع
 به في غربنا من غير شك ولا ريب ، هو ما أدخل في دفتر مولانا الجد رحمه الله
 بعد ما تحقق أمره ، لأن ملكه اتبع القرى والمداشر والخواضر ، وشهدت
 لهم الكافة والجمهور وحقق من دفتر أبي العباس المنصور ، وبحث فيه أولاً
 وثانياً فاذا هو مشهور اه .

وأما نسبه من جهة الام ، فان والدته هي السيدة الجليلة الشريفة الصالحة
 فاطمة بنت الشيخ العلامة الولي الصالح أبي العباس أحمد بن الشيخ الامام
 العلامة العارف أبي العباس أحمد بن عجيبة ، القائل في فهرسته .

أنا عبدالله أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسين بن محمد بن عجيبة الحجوجي
 ابن عبد الله بن عجيبة ، ثم إلى سيدي سحنون بن مولاي ابراهيم بن محمد
 ابن موسى بن عبد الله ، ثم إلى مولاي أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس
 الأكبر رضى الله عنهم أجمعين .

ثم أطال في تحقيق ذلك ، ونقل إثبات نسبه عن جماعة من العلماء والأولياء

اهل الكشف ، كشيخه العارف البوزيدي ، وشيخ شيخه مولاى العربى
الدرقاوى مع الشهرة والاستفاضة التى يثبت بمثلها النسب .

فصل

كان قدوم أحد أجداد سيدى عبد المؤمن الكبير من الأندلس فى
أواخر القرن الخامس ، ونزل بأحواز تلمسان ونشأ بها عقبه إلى أن اشتهر منهم
الولى الشهير سيدى عبد المؤمن المذكور المعروف بأبى قبرين ، وذلك فى
القرن التاسع أو آخره ثم انتقل حفيده سيدى عبد المؤمن الصغير إلى غمارة أو اسط
القرن العاشر خرج لطلب شيخ التربية فاتصل بالشيخ العارف أبى الحسن على
الشلى ، نزيل جبل سريف ، المتوفى به سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ، وهو
من تلامذة العارف سيدى يوسف التليدى ، أحد تلامذة القطب الغزوانى ،
فأخذ عنه وتخرج على يديه ، ثم انتقل يطلب محلا يختلج فيه للعبادة ، فنزل
بالموضع المسمى نجكان ، من قبيلة بنى منصور الغمارية ، وأقبل على العبادة ،
وظهرت على يديه كرامات كانت السبب فى اشتهاره بتلك البلاد واستقراره
بها إلى أن مات وترك عقبه بها إلى اليوم .

الباب الثانى

فى ترجمة أجداد الشيخ رضى الله عنه من قبل الأب والام

أما جده الأعلى سيدى عبد المؤمن بن على ، الذى تنسب اليه عائلة الشيخ
رضى الله عنه ، فكان من كبار الأولياء ، ذا مناقب عديدة وكرامات كثيرة
شهرة ، وكان له أتباع يحبونه ويعظمونه غاية التعظيم ، كسائر أهل القبيلة
اليزناسية . وكان مقصودا بينهم للتبرك والانتفاع به فى الدين لما رأوا
من فضله ، وشاهدوا من كراماته ، وكان يقيم بموضعين من القبيلة المذكورة
وله فى كل منهما تلامذة وأصحاب أحدهما يسمى بيدر ، والآخر ورطاس ،
وبهذا الأخير كانت وفاته ، وبه دفن أولا . ثم جاء أهل بيدر ونقلوه إليها .

فلما علم أهل ورطاس بذلك قصدوهم لرده إلى مدفنه الأول ، فامتنع من ذلك أهل يسدر ووقع بينهم نزاع كاد يفضى إلى المحاربة والقتال ، فبيناهم كذلك إذ وقف الشيخ على واحد منهم في رؤيا منامية ، فقال له : لم هذا النزاع وأنا موجود بالقبرين معاً ، فرهم يحفرون على القبرين فانهم يجدوني في كل منهما ، فلما أخبرهم بما رأى فعلوا ذلك ، فوجدوا الشيخ في كل من القبرين ، فرضى الفريقان . وبني كل واحد على القبر الذي عنده قبة ، هما موجودتان إلى الآن ، وكتاتهما مزاراة مقصودة .

وبسبب هذه الكرامة اشتهر في قبيلة بني يزناسن بسيدى عبدالمؤمن ، أبو قبرين . ولا يزال أهل تلك النواحي يشاهدون له كرامات ويؤثرون عنه مناقب وحكايات ، إلا أنه لقلة اجتنائهم بالتاريخ لم يدون أحد منهم للشيخ ترجمة ولا كتب تاريخ وفاته على التعيين .

فصل

وأما حفيده سيدى عبد المؤمن دفين تجمكان فانه لما قدم إليها بعد أخذه عن العارف أبى الحسن الشلى نزل على أحد سكان القرية فأكرمه باعتباره ضيفاً غريباً ، ثم كلفه برعى غنمه ، فكان يخرج بها صباحاً ثم يذهب إلى محل بعيد فيه حفرة واسعة فيجمعها هناك ثم يقبل على العبادة إلى آخر النهار ثم يعود بها ، وأحياناً يذهب لناحية أخرى فيتركها وحدها ونصرف . فمر ذات يوم بعض الناس على تلك الغنم ، ورأى ذئباً يحوم حولها ، فذهب إلى ربها وأخبره ، فذهب للتحقق مما قال فوجد الغنم ترعى والذئب يحرسها ، فتعجب مما رأى ورجع إلى موضعه ، فلما جاء المترجم آخر النهار سأله عن الحقيقة وألح عليه في ذلك ، فأخبره أنه يذهب إلى مكة المسكرمة للصلاة بها ، ويترك الذئب حارساً للغنم ، فترك الرجل بعد ذلك تكليفه برعى الغنم ، وقال له : اشتغل بعلمك وعبادتك ، ولا تفكر في القوت والمؤنة ، وبالغ في تعظيمه

واحترامه ، واستمر على خدمته إلى أن مات . ودعاه الشيخ بدعوات لا يزال أثرها سارياً في عقبه إلى اليوم . ثم اشتهر أمره بتلك النواحي ، وكثر ظهور الكرامات وخوارق العادات على يديه كما هو مشهور بين أهل تلك النواحي إلى اليوم ، وذكرنا منها جملة في المؤذن وفي الأصل .

توفي بتجكان ، وقبره مزاراة بها ، وعليه قبة عظيمة ، إلا أننا لم نعثر على تعيين سنة وفاته .

فصل

وأما جد الشيخ الأذني والد والده العارف الكبير . القبط الشهير سيدي أحمد بن عبد المؤمن ، فكان أعجوبة عصره ، ونادرة زمانه ومفرد وقته في العلم والمعرفة وهداية الخلق مع كثرة الاتباع وبعد الصيت وانتشار الذكر . وقد أفردت ترجمته بتأليف ، سميته : المؤذن لمناقب سيدي أحمد بن عبد المؤمن .

ولد رضى الله عنه على رأس المسائتين بعد الألف ، وحفظ القرآن بالسبع وأتقن علم القراءات وتضلع منه غاية ، ثم طلب العلم ببلده على رجل غريب من الأولياء وبسبب غريب ، وهو أنه قصد ضريح ولى الله سيدي أحمد الفلالى ، فكان يختم فيه كل ليلة ختمة كاملة من القرآن العظيم في الصلاة ، ويسأل الله تعالى أن ييسر له من يأخذ عنه العلم ، لأنه تحير في ذلك ، ولم ينشرح صدره لطلبه بفاس ، فاستمر على ذلك أربعين ليلة ختم فيها أربعين ختمة ، وصبيحة اليوم الحادى والأربعين نزل من ضريح الشيخ المذكور ، فوجد بالطريق رجلاً منكشاً في مرقعته من شدة البرد ، وعن يمينه وشماله أكوام من الثلج وحال الغربة بادية عليه فسلم ، وسأله عن حاله ، فأجابته بأنه غريب مسكين ، فطلب منه الشيخ أن ينزل معه ، فامتنع واعتذر بأن رجله

حافيتان ولا يقدر على المشى فى الثلج بدون حذاء فخلع الشيخ حذاءه وأعطاه إياه ، فلبسه ونزل معه فأطعمه وأكرمه ، وبقي معه ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع قال له : أتعرف من أنا . قال لا . قال أنا من بلاد بعيدة جئت مخصوصاً من أجلك أرسلنى سيدى على بن أحمد من جبل صرصر لأعلمك العلم ، ففرح غاية بهذه الكرامة التى أجاب الله بها دعوته على يد الولى الشير سيدى على بن أحمد ، وذلك من طريق الغيب والتصرف بعد الموت لأن سيدى على بن أحمد المذكور مات سنة سبع وعشرين وألف ، فلزمه ستة أشهر ظهرت عليه فيها بركته مع ما كان عليه الشيخ من التقوى والصلاح والاجتهاد فى العبادة ، ولاحث عليه لوائح الفتح فى سائر العلوم المعقول منها والمنقول ، بحيث صار إمام وقته فى تلك البلاد وما والاها فى علوم الظاهر ، ولم يجلس بين يدى عالم سوى ذلك الشيخ . إلا فى علم المنطق فانه أخذه بعد ذلك عن تلميذه فى الطريق العلامة سيدى أحمد بن عجيبه الصغير . وإلا علم الفلك فانه أخذه عن تلميذه فى الطريق أيضا الفقيه مفرج . ثم بعد هذا تعلقت همته بساوك الطريق ، فأخذ أولا الطريقة الناصرية على الشيخ محمد خمريش ، وأسس زاوية ببلده لذكر وظائفها ، ثم لما تحقق أنها طريق ذكر وتبرك ، لا طريق فتح وساوك جرد سيف العزم لطلب الشيخ المرئى فقصده الحجاز لأداء فريضة الحج والبحث عن القطب ، ومر فى طريقه على القاهرة ، فاجتمع بالعارف الصاوى ، وأخذ عنه الطريقة الخلوئية ، بقصد التبرك . ثم لما وصل إلى عرفة ، بينما هو واقف بها إذ حاذاه رجل ، وقال له . أتدرى من قبل الله حجته فى هذا الموقف . قال لا . قال قبل حجتي وحجتك وبسببنا قبل حجة الجميع . ثم قال له . والقطب الذى تطلبه تركته فى بلدك ، وهو العربى بن أحمد الدرقاوى ، قال فحصل لى من الفرح ما لا يعلمه إلا الله ، ولولا خوفى من قول الناس حجج ما زار لرجعت من مكة .

ثم لما رجع إلى وطنه لم يمكث مع أهله إلا ثلاثة أيام ، ثم توجه لمقابلة الشيخ المذكور ، ولما كان بالطريق مر على عين ماء ، وكان برفقته أخوه ، ورجل آخر ، فتوضؤوا وصلى بهم الظهر ، ثم قام إلى تلك العين وجعل يغتسل ، فقال ذلك الرفيق في نفسه لعل الشيخ كان جنباً وتذكر ذلك بعد الصلاة فلما فرغ سأله عن سبب اغتساله . قال إني اغتسلت من علمي ومن عملي . إلا ما يأتيني على يد هذا الرجل . ثم توجه إلى الشيخ مولاي العربي الدرقاوي رضى الله عنه ، ففرح به كثيراً واقننه الامم المفرد بالكيفية التي أخذها عن شيخه القطب الجمل رضى الله عنه ، وهي تشخيص حروفه مجردة في غير لوح ولا جدار . ثم لم تمض عليه إلا أيام يسيرة حتى لاح له الفتح وطوبت له الطريق في العلم الباطن كما طوبت له في العلم الظاهر وصار يترقى في المعارف إلى أن حل مقام القطبية ، وورث مقام شيخه كما أخبر شيخه بذلك قبل وفاته وبعد موته لبعض أصحابه ، وأذن له شيخه في التربية والتسليك ، فتصدر لذلك في حياة شيخه ، واشتهروا بعد صيته ، وأقبل الخلق عليه وقصدوه للانتفاع في علم الظاهر والباطن فانه كان مفتياً في النوازل موثقاً من الطبقة العليا ، كما وقفت على كثير من الوثائق من إملائه وبخطه المتقن الذي كتب به عدة من الكتب ، وكان فصيح اللسان ، طويل الباع في العلوم والمعارف ، شديد الاستحضار ، آية من آيات الله . إذا تكلم بهر العقول حتى كان يعبر عنه بعض العارفين بأعجوبة الزمان .

وقال بعض بنى سودة لولده سيدى الصديق . لقد ظنفت بالمشرق والمغرب للبحث عن الشيخ ، ورأيت عدداً كبيراً من المشايخ ، فما رأيت أفضل من والدك ولا أعتقد أن يوجد من هو أكمل منه وأفضل إلا النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال له العلامة الصالح سيدى الحسن كنبور . لما اجتمع به ان العادة جارية

بأن من صرف عنايته لعمارة الباطن لا يتهيأ له ضبط الظاهر ، وأنت جمعت بين الظاهر والباطن .

ولما اجتمع بشيخ القراء في عصره العلامة سيدى إدريس البكراوى ، وبات يذاكره ليلة إلى الصباح في علم القراءات . قال له . ما كنت أظن أنه بقى من يذاكرنى في هذا الفن ، وإذا مت أنا وأنت انقطع من يتقنه فقال له الشيخ لا تقل هذا . فإن فضل الله لا ينقطع .

ولما قصده الشريف العلامة السيد محمد التهامى العلوى لأخذ الطريق عنه بإشارة من الشيخ مولاى العربى رضى الله عنه وجده في بعض المداشر ببني زروال يقرأ الحزب من القرآن مع الفقراء عقب صلاة الصبح ، فساكن أول ما وقع سمعه عليه قول الله تعالى والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، قال فلما انتهى من قراءة الحزب شرع يتكلم على هذه الآية فأثنى بما بهر العقول واستمر يتكلم عليها إلى وقت صلاة الضحى .

وكان ذا جد واجتهاد في العبادة وعمارة الوقت حضراً وسفراً .

وكان ورده من القرآن ختمه كل ليلة وكان له ورد من صحيح البخارى يقرأه كل يوم بعد صلاة الصبح .

وله كتاب نفيس في آداب المريدين ورسائل عديدة مجموعة في مجلدة لطيفة هى غاية في الارشاد والدلالة على الله تعالى وله تقايد كثيرة منها تقييد على الآيات المنسوبة للجنيد التى أولها توضحاً بماء الغيب إن كنت ذا سر وصدرت على يديه كرامات كثيرة جداً .

منها أنه أتى مرة إلى تطوان ، وكان قائدها أشعاش سجن رجلاً فجاءت والدته إلى الشيخ وطلبت منه أن يستشفع لولدها عند القائد فأجاب طلبها وتوجه إليه ، فلما رآه القائد من بعيد عرف أنه يقصده في أمر ، فقال لحاجبه اصرفه عنى بما تراه ، فخرج إلى الشيخ ولقيه من بعيد قبل أن يصل إلى

باب المحكمة سائلا إياه عن مراده ، فقال له جئت مستشفعا في ولد هذه المرأة ثم غرز عكازه بالأرض ، وقال الله مادا بها صوته فصار القائد يشير إلى الحاجب نحو السجن أى اذهب وأخرجه فذهب وأخرجه وانصرف الشيخ فتكلم القائد ، وقال لأصحابه لو لأنكم بادرتم باخراج الرجل من السجن لخرجت روحى ، فانه لما غرز عكازه فى الأرض أحسست بها كأنها مغروزة فى صدرى حتى كدت أموت ولم يبق لى لسان أنطق به .

ومنها أن تلميذه سيدى على حلحول كان معه بتجكان مدة طويلة ، قال فبينما أنا ذات يوم جالس إذا بالشيخ أتانى بكتاب مختوم ، وقال : اذهب على بركة الله فأخذت الكتاب وانصرفت ، ولم أدر لمن الكتاب ، ولا إلى أين أذهب فقصدت دارى ، فلما كنت بنصف الطريق قابلتنى امرأة من مدشرنا فقالت عظم الله أجرك ، فقلت لها فيمن ، قالت قد وقعت دارك على المرأة والأولاد ومات الجميع وقد دفنوا ، قال فعند ذلك فكرت فى كتاب الشيخ وعلمت أنه لى ففتحته فاذا فيه ، وبعد فما دمت تركز إلى أهل وولد ووطن واخلاء ومسكن ، فلست بقائل لا إله إلا الله على الاطلاق والسلام ، قال فرجعت إليه ، فلما رآنى قال قبل أن أكلمه عظم الله أجرك وفى سبيل الله ما نزل .

ومنها أن جماعة من تلامذته بفاس دعوه فى بعض قدماته إليها لتناول طعام الغداء واتفقت دعوتهم فى يوم واحد ، فأجاب الكل وحضر عند الجميع فى وقت واحد .

ومنها أنه دخل يوماً إلى المسجد لصلاة الجمعة وقد بقى لخروج الخطيب نحو ربع ساعة ، فافتتح يصلى ركعتين فختم فيهما القرآن بتامه ورجل إلى جنبه يستمع ، ثم خرج الخطيب .

وله كرامات غريبة ذكرتها فى الأصل وفى ترجمته المفردة مات ضحوة يوم

الأربعاء سابع عشر جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين ومائتين وألف ودفن بتجكان ، وقبره مزاراة عظيمة وعليه قبة حافلة ، ويقام له مولد كل سنة .

فصل

وأما والد الشيخ رضى الله عنه ، وهو ولد المترجم قبله فهو العارف بالله الهائم فى محبته العائم فى بحر مشاهدته صاحب الأذواق والأحوال والكرامات أحد الأبدال سيدى الصديق رضى الله عنه ولد سنة ست وأربعين ومائتين وألف ، وحفظ القرآن فى حياة والده ثم قبل التوجه لطلب العلم توفى والده ولم يترك ولدًا غيره ، فعزم أصحاب أبيه على توجيهه إلى فاس لطلب العلم فامتعت والدته إذ لم يكن لها ولد غيره ، وليس عندها من يقوم بالزاوية العامرة بالفقراء والمقصودة للزوار والضيوف فزوجته وبقي معها يعمر الزاوية ، ثم أخذ الطريق عن تلميذ والده العارف بالله سيدى الهاشمى بوزيد الذى كان يسمع ذكره للاسم المفرد من قبره بعد موته إلى أن أتى إليه بعض إخوانه من تلامذة الشيخ ، وقال له تأدب مع الحضرة فانك انتقلت إلى عالم البرزخ فسكت وسلكت على يديه إلى أن فتح له فى أقرب وقت فساد واشتهر وأقبل عليه الخاص والعام ، وكان ذا جاه عظيم بين القبائل الجبلية الغمارية يدخل فى الشفاعات فى الأمور العظام ويتوسط فى الخصومات والجرائم الجسام لا ترد له كلمة ولا تسقط له شفاعاة سواء بين العائلات والأفراد وبين عموم القبائل ، وكان مغرمًا بشراء العبيد والأماء والبغال فاقتنى من ذلك الكثير ، وكان لا يبقى فى يديه من الدنيا شيئًا ولودخات الآلاف المؤنفة وأضاع كل ما تركه والده من كتب وغيرها ولم يلتفت إلى شىء من ذلك .

وكان عظيم الشوكة فى الباطن لا يسوء أحد الأدب معه إلا عوقب فى

الحال وكان والده رضى الله عنه أخبر عنه بذلك فكان يقول لأصحابه إذا شاب رأسه وطار نعاسه فكونوا منه على بال فكان لا ينام الليل إلا قليلا وكانت عادته أن يقوم ويتوضأ ويؤذن ويصلى مدة ثم يرقد قليلا ثم يقوم ويتوضأ ويؤذن ويصلى ماشاء الله ، ثم يرقد ، وهكذا مرارا إلى أن يطلع الفجر .

وكان رقيق القلب إذا سمع موعظة بكى ، كما أنه كان إذا سمع آلة الطرب يكثر من البكاء ويحصل له شوق عظيم إلى الحضرة العلية

وكان محبوباً للخاصة والعامه منور الشيبة بهى الطلعة متواضعا فيه دعاية لائمه جليسه يمازح العامة ويباسطهم إذا جلسوا اليه ، ويكون واحداً منهم لا يميز عنهم وربما حادتهم في أمور النكاح والنساء ، وكان يحب التزوج فتزوج كثيراً ولم يمض حتى رأى نحو مائة من الأولاد والأحفاد والأسباط وكان بين بكره أول أولاده وآخرهم ما يزيد على ستين سنة .

ذكر مولانا الشيخ الوالد قدس سره أن بعض أهل الله قال له : إن والدك تحت نظر سبعة من أكابر الأولياء فوالله لو توجه إلى جبل خرقة بنظرتك لسلامة صدره وحسن نيته ، وكان هو يقول في حقه أنه من الأبدال وجرت على يديه كرامات عديدة منها أن صاحبه أحمد عريط وكان يمازحه كثيراً سأله يوماً فقال له متى أموت ياسيدى فقال له في اليوم الذى تذهب إلى السوق وترجع بالكيل على رأسك لا تكيل به لأحد وكانت حرفته كيل الحب بالسوق فبعد وفاة المترجم بمدة ذهب يوم الثلاثاء إلى السوق واستمر طول اليوم فلم يدخل السوق حب فرجع ولم يكتل شيئاً فلما وصل إلى بيته . قال لأهله إني غداً أموت فلا بد أن أعمل الجنائز في حياتي فصار أهله يردونه عن ذلك وهو يقول لا يمكن أن يتخلف خبر سيدى الحاج الصديق فذبح جدياً وأولم للطلبة الذين يقرأون القرآن في

الجنائز وقرأوا القرآن على العادة فلما نام بالليل وأصبح تأخر في النوم ففركه أهله فاذا هو ميت .

ومنها أنه كان جالساً مع أعيان القبيلة المنصورية فقال لهم على سبيل المباشطة كما كانت عادة معهم ليس من المليح لقلان لواحد منهم إلا أن يموت يوم الاثنين وهو حاضر صعيح ، فلما كان يوم الاثنين أصبح الرجل المذكور ميتاً ، فلما وصله الخبر قال نحن إنما كنا نمزح معه وهو ظن أن الأمر جد .

ومنها أن أولاد الصديق الطويل من بني سلمان كانوا يخدمونه وكانوا هم أعيان قبيلتهم وسرايتها فصدر منهم ما أوجب عداوة أهل القبيلة بأسرها لهم وهم أزيد من ألفي نفس وعزموا على القدوم إلى دارهم لحرقها وتخريبها عقوبة لهم على ما اقترفوه فجاءوا إلى المترجم وأخبروه بعزم أهل القبيلة وقالوا لا طاقة لنا بأهل القبيلة فقال لهم لا تخافوا أتم البارود ونحن الرصاص فلما رجعوا إلى بيتهم جاءت إليهم القبيلة فنشبوا معهم الحرب وصمدوا لهم نحو ساعة ثم شتتوا شملهم شذر مذر وهم سبعة والقبيلة نحو الفين ولم يمض من الآخرة أحد فكانت وقعة عجيبة لم يسمع بمثلها إلى غير ذلك مما يطول مات يوم الجمعة ثالث وعشري ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة الف .

فصل

وأما والدة الشيخ فهي الشريفة الجليلة الولية الصالحة الذاكرة القائدة فاطمة بنت الشيخ العارف العلامة أبي العباس أحمد ابن عجيبة الصغير كانت عديمة النظير في الصلاح والتقوى والنسك والعبادة أخذت الطريق عن عمها العارف الشهير سيدي عبد القادر ابن عجيبة تلميذ الجد سيدي أحمد ابن عبد المؤمن السابق وصعبته وتأديت بأدب أهل الطريق وتخلقت بأخلاق أهل الصدق والتصديق لسانها لا يفتر عن الاستغفار فان كلمها أحد أجابته

ثم رجعت إلى الاستغفار وكانت تهىء لزوجها أمر الزواج وتصلح من شأنه وتدخله على العرايس التي آتى بهن ضرراتها ثم تقبل على العبادة ولا يأخذها ما يأخذ النساء عند ذلك من الغيرة ، وكانت لشهرتها بالصلاح والتقوى عظيمة الجاه مقبولة الشفاعة يقصدها الناس لذلك وكانت عند كبرها تكثر السفر لزيارة شيخها وأحياناً تصحب معها نجلها مولانا الشيخ الوالد ليتبرك بالصالحين وأزارته ضريح القطب مولانا عبد السلام بن مشيش ، وكانت حريصة على تربيته على الاعتقاد والمحبة وتعظيم أهل الله والمحافظة على أداء الفرائض والتأدب بأداب الشريعة ، وكانت تقوم بالليل ، فإذا صلت الصبح جاست لذكر الهيلة جهراً مع جماعة النسوة إلى أن تطلع الشمس وتصلي الضحى .

ماتت سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف

فصل

وأما والدها فهو الشيخ العلامة الفقيه الصوفي العارف أبو العباس أحمد بن أحمد ابن عجيبة الحسنى .

ولد رابع جمادى الثانية من سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف بقرية الزميح من القبيلة الأنجزية ، ومات والده وله من العمر سنتان ، فنشأ في حجر بعض تلامذة أبيه ، ولما حفظ القرآن توجه إلى فاس لطلب العلم ، فأخذ بها عن جهاذة شيوخها ، كبدر الدين الحمومى ، وعلى بن عبد السلام التسولى شارح التحفة والقاضى عبد الهادى بن عبد الله العلوى وأضرابهم وأقام مدة اجتهد فيها وحصل ثم رجع إلى بلده سنة سبع وأربعين ، واجتمع بمجدنا سيدى أحمد بن عبد المؤمن فأخذ عنه وسلك على يديه وكان علامة محققاً فصيحاً بليغاً حافظاً له باع في العلوم لاسيما المعقولات ، فكان لانظيره فيها بتلك النواحي

واتفق أن قدم إلى طنجة بعض علماء شنقيط ، فاستطالوا على أهلها

بمخفظهم ومعرفتهم وصاروا يناظرون طلبتها ويجهلونهم في المحافل .

فلما اشتهر أمر المترجم طلبه أهل طنجة في القدوم إليها لمناظرة الشناقطة فأجاب طلبهم وقدم إلى طنجة وناظر المذكورين وقهرهم وأظهر قصورهم فرحلوا عنها وأحببه لذلك أهلها وطلبوا منه الإقامة بها للفادة والتدريس ، وزوجه بعض سراتها بابنته وصار ينفق عليه وأكرمه غاية فأقام بها إلى أن مات ، وكانت دروسه ممتعة للغاية ، يلقيها بفصاحة واستحضار وحفظ يتعجب منه الحاضرون .

وكان يعتريه جذب في بعض الاحيان . توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فلما ركب الباور ووصل وقت الصلاة قام لأدائها فاما مر بين يديه بعض الخدمة بالباور أو منعه من الصلاة في مكان معين منه .

فقال لا يمكن السفر تحت سيطرة الكفار المؤدى لضياع الفرائض . فلما رست الباخرة بمرمى جبل طارق نزل ورجع الى طنجة ألف مؤانسات إلا أن يد الالهال والضياع سطت عليها فأتلقتها وأخفت معالمها ، فلم نرمها إلا أوراقاً من فهرسته . وبلغني أن له رسالة في الخواص وكتاباً في العبادات ورسائل في التصوف .

وكان يتمنى حضور الجهاد لما بدت بوادر الخلاف بين المسلمين والاسبان ولكن عاجلته المنية قبل بلوغ الامنية ، فمات قبل ذلك بسنة ، فان الحرب وقعت سنة ست وسبعين ومائتين وألف ، ومات هو سنة خمس وسبعين لم يبلغ الستين ، ودفن ببيته الذي كان يسكنه وفتح له باب إلى الطريق وجعل ضريحاً له .

فصل

وأما والده فهو الشيخ الامام الصوفي المفسر العارف الكبير أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة .

ولد سنة ستين أو إحدى وستين ومائة وألف وحفظ القرآن وبعض المتون كالآجرومية والخلاصة والمرشد المعين والقرطبية ومورد الظمان وحرز الآماني وغيرها . ونشأ في صغره نشأة عجيبة في المروءة والتقوى ومجانبة اللعب والصبيان مع حب العبادة والانقطاع لها وقيام الليل وهو دون البلوغ . ولما بلغ من العمر تسع عشرة سنة توجه إلى القصر الكبير لطلب العلم به فأخذ عن الفقيه محمد السملالي السوسى ، ولازمه سنتين بانقطاع واجتهاد ، فكان يحضر عليه سبعة دروس في اليوم واللييلة مع استدامة التهجد بالثلث الأخير من الليل ، ثم رحل إلى تطوان فأخذ بها عن أحمد الرشتي وعبد الكريم بن قريش ولازمهما في النحو والصرف والمنطق والكلام والفقهاء والحديث والتفسير والعروض والاصول والبلاغة والسير ، وسمع من الأخير صحيح البخاري أزيد من سبع مرات وصحيح مسلم مرة واحدة وعن محمد الوردزي في الاصول والبلاغة والفقهاء ، وأجاز له اجازة عامة . وعن محمد العباس النحوى في النحو ، وعن عبد السلام بن قريش في التفسير والحديث وعن الفقيه الشهير أبي عبد الله الجنوى في الفقه والبلاغة والاصول والتصوف والتفسير ، وسمع عليه صحيح البخاري مرتين ، وجزءاً من صحيح مسلم ، ثم رحل إلى فاس فسمع بها الصحيح على العلامة محمد التاودي بن سودة ، وأجاز له اجازة عامة ، وأخذ عن الفقيه محمد بنيس علم الفرائض وجزءاً من التسهيل لابن مالك وأجاز له اجازة عامة . وعن أحمد الزعري بعضاً من التفسير . وعن العلامة الطيب بن كيران في البلاغة ، وحصل وبرع في العلوم ، ثم رجع إلى تطوان فأقام مدة يشتغل بالعلم ثم تركه وانقطع للعبادة بسبب قراءته لشرح ابن عباد على الحكم فان نفسه عزفت عن الدنيا وأبغضها وأهلها وصار

يفر من الناس ويخرج إلى الاماكن الخالية فيصلى خمسة عشر حزباً من القرآن
وفي الليل كذلك ولا يفتر عن ذكر الله ليلاً ونهاراً ، ثم رجع إلى العلم بسبب
رؤيا رآها أمره فيها بعض الصالحين بذلك ، لسكنه رجع إليه بظاهره لابقابه
إذ تمكن منه حب العبادة ، ثم صار يشتغل بالصلاة على النبي صلى الله
عليه وسلم حتى حفظ دلائل الخيرات ، ثم رأى أن الصلاة عليه
صلى الله عليه وسلم في السبحة أقرب للحضور وأجمع للقلب فأقبل عليها
واستغرق وقته فيها فكانت تشرق عليه أنوار وتظهر له زخارف وقصور
وخوارق فيعرض عنها . ثم حجب اليه القرآن العظيم فأقبل على تلاوته فكان
يختمه في الصلاة أربع عشرة مرة في الشهر فدام على هذه الحالة من التدريس
مع العبادة نحو ست عشرة سنة ، نفع الله خلقاً كثيراً تخرجوا على يديه في
العلم والصلاح والتقوى . ثم سافر إلى فاس لزيارة شيوخه . ولما كان راجعاً
مر على قبيلة بني زروال لزيارة الشيخ الأكبر مولاي العربي الدرقاوي ،
فوجد عنده تلميذه العارف الكبير سيدي محمد البوزيدي رضى الله عنهما
فلقيه أولاً قبل الشيخ ، فكان أول ما خاطبه به جعلك الله كالجنيدي يتبعك
أربع عشرة مائة مرقعة ثم دخل به على الشيخ مولاي العربي ، فقال له جعلك
الله كالجيلاني ، فقال له البوزيدي أنا قلت له كالجنيدي فقال يجمع بينهما إن
شاء الله فبقي معهما ثلاثة أيام حصلت له فيها جذبة إلهية ثم رجع إلى
تطوان وهو على غير حاله الأولى ثم صار البوزيدي يكتبه ويراسله ، فكتب
إليه مرة . إن أردت العلوم ومخازن الفهوم فعليك بالقدوم . وكان يقول لفقراء
تطوان . والله إن حاجة سيدي أحمد بن عجيبة لعندي فليقدم علي ثم بعد
مدة قدم هو إلى تطوان ، فأخذ المترجم عنه وتلقن منه . ثم قال له : أنا بين
يديك مرني بما شئت وافعل بي ما شئت ، فقال تبارك الله عليك ثم التفت
إلى بعض أصحابه ، وقال لهم ان سيدي أحمد متصف بالزهد والورع والتوكل
والصبر والحلم والرضا والتسليم والشفقة والرحمة والسخاء والكرم حتى

عد نحو اثني عشر مقاما ، فقال له المترجم يا سيدي أهذا هو التصوف ، فقال له هذا تصوف الظاهر وبقي تصوف الباطن ستعرفه إن شاء الله ، ثم صحبه وصار يتردد اليه في غمارة ، ويخدمه بنفسه وماله ، وأقبل على المجاهدة في النفس والهوى بنحرق العوائد وارتكاب ما يثقل على النفس فلبس جلابة من الصوف قصيرة غليظة ، وخرج يمشي في الأسواق مع الفقراء وهم يذكرون وفي عنقه سبحة غليظة ، فرغب إليه أهله أن يترك ذلك ويرجع لحالته ، فأبى . فبكوا عليه ، وعزى بعضهم بعضا فيه كما يعزى في الميت ، وصارت الوفود من الناس تأتي لتعزية أهله . فلما رأى ذلك استأذن شيخه في لبس المرقعة فلبسها ففرغ عنه الناس . ثم أمره شيخه باخراج كل ما يفضل عن قوته آخر كل يوم ، ولا يدخر لغده شيئا . ثم أمره بخدمة الفقراء وغسل ثيابهم بنفسه ، والسؤال في الأسواق والدكاكين . وعلى أبواب المساجد عند خروج الناس من الصلاة ، فثقل ذلك عليه غاية . حتى كان يتمنى الموت ويستحليه .

ثم لما رأى من نفسه امتناعا حلف يمينا مغلظة ليفعل ذلك ، فذهب الى باب مسجد ، وجلس مع العجايز والعميان ومد يده للسؤال . فكان الناس يغطون وجوههم حياء منه . ففعل ذلك مرارا عند جميع أبواب مساجد تطوان العامرة ، ثم أمره بعد ذلك بكنس الأسواق وحمل ما فيها من الزبالة على عنقه . ورمى ذلك خارج البلد . ففعل ذلك مرارا وأمره بحمل الجراب على ظهره ، فصار يحمله وهو امام ببعض المساجد . فكان اذا دخل المحراب وضعه ، فاذا أتم الصلاة أعاده ، وخرج يسأل الناس في الأسواق الى غير ذلك من أمثال هذا وأشباهه إلى أن فتح الله تعالى عليه الفتح الكامل وصار من أهل الشهود والعيان وبلغ رتبة الكمال والتكميل ، فأذن له بالتصدر للارشاد والتذكير والتربية . فخرج سائحا في القبائل والمدن ، فأقبل عليه الخلق وانتفعوا به انتفاعاً ظاهرا . وتاب على يديه الجم الغفير ، ودخلوا في طريق أهل الله أفواجا . وحصل له في ذلك نوادر وأخبار يطول ذكرها .

وأدخلوه السجن بسبب لبس المرقعة والاعراض عن التدريس فبقى به مدة الى أن أشهدوا عليه بالتوبة والرجوع فشهد بذلك عملاً بقوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ، وقصته في ذلك ضويلة مشهورة .
وألف مؤلفات نفيسة أكثرها في التصوف .

منها تفسيره البحر المديد الذي جمع فيه بين عبارة أهل الظاهر وإشارة أهل الباطن ، وهو في أربعة مجلدات وابقاظ الهمم في شرح الحكم وشرح المباحث الأصلية ، وهما مطبوعان معا ، وثلاثة تفاسير على الفاتحة ، وشرح الهمزية ، وشرح البردة ، وشرح الوظيفة الزروقية ، وشرح الحزب الكبير للشاذلي ، وشرح أسماء الله الحسنى ، وشرح المنفرجة لابن النجوى ، وشرح تائبة الجمعيدى ، وتأليف في التية وأحكامها . وآخر في ذم الغيبة . وآخر في الأذكار النبوية . وتأليف في القراءات العشر في مجلد وأزهار البستان في طبقات الأعيان ، وشرح صلاة ابن مشيش . وشرح خمرة ابن الفارض . وشرح قصيدة الرفاعي التي أولها : يا من تعظم حتى رق معناه ، وشرح بعض مقطعات الششتري . وشرح النونية له . وشرح رائية شيخه البوزيدى في السلوك . وشرح تائيته أيضا . وسلك الدرر في القضاء والقدر . وشرح أبيات : توضحاً بماء الغيب والتشوف في حقائق التصوف . وكتاب الخرة الأزلية . وكتاب الطلاسم التي حجبت عن التوحيد الخاص . وشرح صلاة ابن العربي الحاتمي . وحاشية على الجامع الصغير للسيوطي . وشرح الآجرومية بالنحو والتصوف ، وهو الذي جرد بعضهم منه قسم التصوف المطبوع . وله مؤلفات أخرى لم تتم . وجرى على يديه كرامات يطول ذكرها .

مات بقبيلة بنى سلمان القهارية عند شيخه البوزيدى في حياته ، ثم بعد مدة نقله أصحابه ليلا من غير علم أهل القبيلة المذكورة ، فكانوا يسرون

به ليلاً ويكمنون نهاراً إلى أن أوصلوه إلى الزميج من القبيلة الأنجزرية حيث
ضريحه الآن .
وكانت وفاته سنة أربع وعشرين ومائتين وألف .

الباب الثالث

في ولادته ونشأته وطلبه للعلم وسلوكه الطريق ومجمل تاريخ حياته
ولد رضى الله عنه ليلة الجمعة ، خامس رجب سنة خمس وتسعين
ومائتين وألف بتجكان ، من قبيلة بنى منصور الغمارية .
وحفظ القرآن وهو صغير برواية ورش ؛ ثم شرع في حفظه بالروايات
السمع ، فقرأ ختمة برواية المكى على شقيقه سيدى احمد ، ثم شرع في
طلب العلم ببلده على اخيه العلامة البارع ، صاحب الأخلاق الحسنة سيدى
محمد القاضى وعلى ابن عمه العلامة المحقق زين العابدين بن محمد المؤذن ،
فأخذ عنهما بعض المبادئ ، ثم رحل به والده إلى فاس سنة اثنتى عشرة
وثلاثمائة وألف .

وانزله بمدرسة الشراطين ، ولم يذهب به إلى زاوية اصحاب ابيه لينقطع للعلم
ولا يشغله الفقراء عن طلبه ، فابتدأ يقرأ الآجرومية بشرح السودانى على أبى
عبد الله محمد بن التهامى كنون وبعض الكتب الصغيرة على غيره فصعب عليه
الأمر وصار لا يدري مايقوله الأساتذة فقابله يوماً رجل لا يعرفه فقال له اعطنى
سبعة ريال ولم تكن عنده فذهب في الحال ورهن شرح عبد الباقي الزرقانى
على مختصر خليل وأتاه بها وانصرف ثم بعد ذلك رأى في ليلة كأن رجلاً أتاه
وقال له هات الكتاب الفلانى لكتاب سماه فأتاه به فصار يقرأه معه إلى أن
أكمله أو قارب فلما انتبه وذهب للدرس وجد نفسه كأنه كان يقرأ منذ سنين وصار
لا يقرر الأستاذ معنى إلا أدركه في الحال وكذلك إذا طالع هو وحده يفهم
بسرعة من غير معين ولا مذاكر ، ثم حصل له مرض أزمه القراش ، فبينما هو

ذات يوم في بيته من المدرسة إذ دخل عليه الشيخ الامام العارف القدوة بقية السلف الصالح القطب الرباني سيدي محمد بن ابراهيم رضى الله عنه فقال له أنا بفاس وأنت وحدك بالمدرسة هذا لا يمكن قم معي ، فأخذه الى الزاوية وبر به وأكرمه غاية ، وأتاه بكل ما يحتاجه من كتب وملابس ، وصار يخدمه بنفسه ، وكلف الفقراء أصحابه بخدمته أيضاً ومراعاته ، ثم صار يكتب له المتون في لوح ويقول له إن حفظته أعطيتك ربع ريال فكان كلما حفظ لوحاً أعطاه إياه تحريضاً له على حفظ المتون فكتب له الخلاصة ومختصر خليل . وكان يقرأ معه ذلك في الزاوية ويفهمه معنى المتن بطريق الاختصار ثم لقنه الورد وجرده لسلوك الطريق مع طلب العلم ، فكان يرتضخ لبان الشديين في آن واحد وقرأ معه أيضاً الحسك لابن عطاء الله والعهود الحمديّة والمنن الكبرى للشعراني ورسائل جده سيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن والتنوير لابن عطاء الله وكان إذا مر بشيء صعب شديد سلوكه يقول له مر على هذا فقد انقضى زمانه يريد بذلك التيسير عليه والاشارة الى أن فتحه سيكون من باب الفضل والمنة لا من باب السلوك والمجاهدة وكان يرفق به غاية فلا يكلفه بما يكلف به غيره من الفقراء فكان يوقف جميعهم قبل الفجر بنحو ساعتين ويتركه نائماً قبيل الفجر بقليل حتى كان بعض الفقراء يغار منه . فكان الشيخ يقول لهم ابن الصديق من المحبوبين عند الله ، وأمره بالحضور على علماء القرويين وعين له من يقرأ عليهم لصلاحهم وبركة علمهم ثم لما كانت الزاوية بعيدة عن القرويين صار يصوم أيام القراءة حتى لا يرجع وسط النهار إلى الزاوية لتناول الطعام وأمره الشيخ أن يذكر الله جهراً في شوارع فاس إذا نزل للمدرّوس بعد أن وضع السبحة في عنقه فثقل عليه ذلك الأمر غاية حتى كان يتمنى الموت وكان يخيل إليه أن حيطان فاس تنظر إليه وتسخر منه ومن صوته ولم يأمره شيخه بشيء أثقل على نفسه ولا أشد عليها من الذكر جهراً بالطريق ، لا سيما مع صغر سنه وطلبه للعلم فاستمر على ذلك نحو ثلاث سنين جمع الله له فيها بين الحصول على علم الظاهر والفتوح

في العلم الباطن ، ولم يحتج بعدها الى شيء ، وصار أعلم أهل عصره ومصره .
 أما تفصيل قراءته فحضر على الشيخ الامام العلامة المحدث الصوفي أبي
 عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتاني في مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق
 بشرحى الخرشى والزرقاتى معا وسمع عليه موطأ مالك وبعض صحيح مسلم
 وقرأ عليه أيضاً جل الخلاصة بشرح المكودى ، ومقدمة جمع الجوامع لابن
 السبكي وكان لا يفهم ما يقرره الشيخ فيها كما ينبغي ، فسأله يوماً شيخه سيدى
 محمد بن ابراهيم رضى الله عنه هل تفهم الأصول فأجابه بالواقع فرأى تلك
 الليلة أو بعدها كأن امارف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه أتى
 اليه ولقنه ورد الطريق وأتى معه بشرح جمع الجوامع للمجلى ، وشرع يقرأه
 معه من أوله حتى ختمه

فلما استيقظ وجد نفسه يفهم الكتاب ولم يقرأ بعد ذلك الأصول وصار
 إماماً فيه يتقن أصوله وفروعه ويدرى جليله وخفيه وينظر فيه كما أنه صار
 إماماً في الفقه منقطع النظر فيه لا سيما الفقه المالكي فكان يحفظه كما
 يحفظ غيره متناً من متونه ويدريه كما يدري غيره مسألة واحدة
 منه وذلك بسبب رؤيا رآها أيام طلبه وهي أنه رأى الامام مالكا
 رضى الله عنه في قبة كبيرة عامرة بالكتب فلما دخل عليه ، قال له :
 اثنتى بكتاب من ركن القبة أقرأه معك فأتاه بكتاب ، فلما فتحه إذا
 هو العتبية فقرأه معه فحصلت له بركة تلك القراءة وكانت اشارة إلى أنه
 سيصل رتبة الامامة فيه حيث تلقاه عن إمام المذهب .

وحضر أيضاً على شيخ الجماعة الامام الصوفي أبي العباس سيدى أحمد
 ابن الخياط في الخلاصة بشرح المكودى وصحيح البخارى بشرح القسطلاني
 والشامل بشرح جسوس والهمزية والمرشد المعين .

وعلى العلامة الصالح سيدى الفاطمي الشراذى في المختصر والخلاصة
 بتوضيح ابن هشام والمكودى معاً وفي مختصر السعد على التلخيص وتحفة

- الحكام لابن عاصم إلا أنه لم يحضر من هذه إلا القليل .
وعلى العلامة محمد بناني إمام جامع الديوان في المختصر والخلاصة .
وعلى العلامة محمد جنيون بالتصغير في المختصر بشرح الدردير وفي المطول
بجواشيه وفي صحيح البخاري وشفاء القاضي عياض .
وعلى ولي الله تعالى صاحب الأحوال أبي العلاء إدريس عمور أوائل
الخلاصة والسلم في المنطق .
وعلى الشريف أحمد العلمي الاربعين النووية وأوائل رسالة العضد ورجز
ابن كيران في الاستعارة .
وعلى العلامة النحوي خليل الحشمي المعروف بسبويه الخلاصة لابن
مالك قراءة بحث وتحقيق .
وعلى العلامة الجليل الصوفي الوجيه السيد الكامل الامراني مختصر
خليل مجرداً عن الشروح ، بل كان يقرر المتن ويحمله مع بعض
أبحاث رائقة .
وعلى العلامة محمد بن التهامي كنون شرح الاجرومية للسوداني وكتاب
الجل للمجراد وقطعة كبيرة من الخلاصة وأائل الشمائل بشرحه هو أعنى
كنون وقطعة من الهمزية وجملة كبيرة من المختصر بشرح الخرشى .
وعلى الولي الصالح سيدي عبد الملك العلوي الضرير مختصر خليل بالخرشي
من أوله إلى الوقت المختار وقطعة من شرح السنوسية ومبحث التصاحح
والبلاغة من شرح التاخيص .
وعلى فقيه المغرب ومفتيه سيدي المهدي الوزاني أبواباً من الخلاصة .
وعلى الفقيه أحمد بن الجيلاني لامية الافعال ، وقليلاً من
التصريح الازهرى .
وعلى العالم الجليل أحمد بن الطيب الفيلاي لامية الافعال أيضاً .

وعلى العلامة الشريف سيدي المأمون العراقي الخلاصة .

ثم رجع إلى وطنه في ربيع الثاني من سنة خمس عشرة ثم عاد إلى فاس فلزم شيخه بالزاوية إلى سنة ثمان عشرة ثم نزل بسلام وعزم والده على تزويجه ببلده ، فاختار هو أن يأخذ بنت خاله الشريف البركة الصالح الذي ذكر الناسك سيدي عبد الحفيظ ابن عجيبة بإشارة من شيخه ، وكان خاله يسكن مدينة طنجة فقصده لذلك الغرض فأجابه وشرط عليه السكنى بطنجة فكان ذلك هو السبب في سكنها فتزوج بها واستوطنها ، وشرع في تدريس العلم بها فقراً الشائل الترمذية ، ثم الأجرومية ، ثم ألفية ابن مالك بشرح المكودي ، ثم بعد ختمها افتتحها مرة أخرى بشرح ابن هشام والمكودي معا . وقرأ لامية الافعال والسلم للاخضري بشرح بناني وهمزية البوصيري والمرشد العين ومختصر خليل بشرح الخرشى .

قال العبادي : كان القاري يسرد الخرشى بعد ما كان الشيخ يأتي بكلامه وتقرير جميع ما عند الاجاهرة وبناني والرهوني تقريراً لو كان أصحاب تلك الكتب أحياء لاستفادوا من كلامهم ما لم يقصدوه من الفوائد زيادة على ما قصدوه وقرأ فرائض المختصر على حدة وصحيح البخاري ، وشرع في التفسير فقرأ نصف الفاتحة في شهر رمضان ، ثم لم يتيسر له العود اليه بسبب انقطاعه في البيت وقرأ التفسير بعد ذلك على طريق إشارة الصوفية مع الفقراء بتفسير جده للام سيدي أحمد بن عجيبة .

قال في نبذة التحقيق : وكان إذا أنعم بدرس أو تهيأ لموعظة أو خطبة ازدحم الناس على محلات القرب منه وغصت المحافل بهم وأول خطبة ذاع فيها صيته خطبة خطبها بعيد شوال صدر العشرة الثالثة استنابه فيها على حين غفلة قاضى الوقت لغرض عرض فأملأها من حقه في نحو ساعتين وهي من خطب العلامة الرهوني ، إلا أنه أضاف إليها ما يناسب الوقت والحال وأطال في

المجال مع أدعية بالغة ، وغير ذلك . فأنبهر الحاضرون من سعة حفظه وعذوبة لفظه وتأثير وعظه .

ثم اشتهر أمره وصار الطلبة يلجأون إليه ويلجئون عليه فساعدهم وفتح مرة صحيح البخارى فشهدنا كغيرنا من أماليه ما بهر العامة والخاصة إلى آخر ما قال .

وانتفع بقراءته الناس وتخرج عليه جماعة من أهل الحواضر والبوادي وكان في تدريسه البركة الظاهرة يحضره الطالب زماناً يسيراً فيحصل له الفتح وينال الحظ الأ كبر والنصيب الأوفر من ذلك العلم بل ومن غيره .

وكان الطالب إذا حضر عليه مرة لا يستطيع أن ينتفع بغيره ولا تقبل نفسه الجلوس على أحد بعده لكونه لا يرى في قراءتهم مآراً في قراءة الشيخ من الفصاحة والحفظ وكثرة الاطلاع وشدة الاستحضار حتى أن بعضهم شد الرحلة إلى فاس ثم رجع وقال ان قراءة الشيخ أفدتنا ولم تترك أحداً غيره يكبر في عيننا وكذا قال غيره لما شاهد قراءة العلماء بالحرمين الشريفين .

أضف إلى هذا رونقا يكسو مجلسه وأبهة تعلو منظره ودرسه لا توجد في مجالس غيره ثم في أوائل اشتهاره بالتدريس بطنجة تعرف إليه جمع من الأفاضل فكانوا يجالسونه كثيراً ويسمعون من فوائده ومذكراته في العلم والطريق وأخبار الأولياء والشيخوخ ، فاشتقت نفوسهم للأخذ عنه فلقنهم ورد الطريقة الشاذلية . ثم صاروا يجتمعون عليه وهم نفر قليل . وكان أكثر اجتماعهم بدكان الرجل الصالح سيدى محمد الجزيرى رحمه الله وكان يصنع فيه الاحذية . ثم لما كثروا صار يقعد معهم مجالس الذكر صباحاً ومساءً بزواية العارف بالله سيدى محمد الحراق من طنجة ، وذلك أواخر سنة اثنتين وعشرين .

قال في النسمات وعند دخول سنة ثلاث وعشرين فاضت أسراره وظهرت

أنواره وأشرقت على الجواضر والبوادي شموسه وأقماره وكسيت البلد بظهوره
 حلة الأنس والفرح كما لبست عند موته ثوب البؤس والحزن والترح فتوارد
 الناس لأخذ الطريق عنه رجالاً ونساءً وانجذبت القلوب إلى الله بهيمته وارتفعت
 همم من سبقت لهم العناية عن حضيض الكون وخسته صار جل من في البلدي يلهمج
 بذكر الله وانقلب حاله من الغفلة إلى اليقظة وتعلق قلبه بالله، ذلك كله غيباً بنفوذ
 همته وقوة حاله من غير أن يدعو أحداً لأخذ الطريق عنه والانتساب إليه وفي هذه
 السنة أضاف إلى مجاس الذكر المذاكرة مع الفقراء في مقامات الطريق وآداب
 السلوك . وكانت على غاية ما يكون من الأبهة والآداب والسكينة والوقار
 والخشوع وفيضان الأنوار حتى كأن الفقراء الحاضرين على رؤوسهم الطير من
 قوة حاله ، وعظيم هيئته ، وطيب أنفاسه .

وكانت أنواره تسبق كلامه ، وترتاح الأرواح لسماعه من غير ملل ولا
 سآمة ، وأخذ مجامع القلوب . وكان كله في الحض على اتباع الشريعة والعمل
 بالسنة ، والتعلق بالأخلاق النبوية ، والتحقق بها حالاً ومقالاً وعملًا .
 وكان شديد الغيرة ، والتستر على الحقائق والامرار فلا يفشيها ولا يذكر
 منها إلا القدر المباح كما كان عليه أستاذه .

وكان يقول : لا ينبغي للمريد في بدايته أن يشتغل بمطالعة كتب الحقائق
 والأسرار ، ككتب الخاتمي والجيلي وأمثالها من كتب الوحدة ، فإن ذلك
 مما يوقف المرید ويمنعه الوصول إلى المقصود ، لأن الحقائق والأسرار
 لا يتوصل إليها من الكتب ومطالعة الدفاتر ، وإنما تدرك بالعمل والمجاهدة
 وصحبة الأشياخ .

فمن عمر أوقاته بالطاعات والاذكار مع امتثال أوامر الشيخ وإرشاده في
 ذلك نبتت منه الحقائق ، وتفجرت من قلبه عيون الأسرار من غير مطالعة
 كتاب .

وقرأ مع الفقراء رسائل جده القطب سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن
ثم رسائل شيخه القطب الاكبر مولاي العرنى الدراوى مرتين بمذكراته
النافعة ، وإشاراته الجامعة ، ثم العهود للعارف الشعرائى ، ثم المباحث الاصلية
لابن البنا بشرح ابن عجيبة ، ثم الحكم العطائية بشرحه أيضاً . وأعادها
بشرح ابن عباد ، ثم جملة من تفسير ابن عجيبة ، ثم بعد إقامته بالزاوية
الخرافية نحو أربعة أعوام بنى زاويته الكبيرة التى دفن بها وانتقل إليها .
وكان السبب فى ذلك بكرامة من كراماته .

وكان فى أول قدمه إلى طنجة وشروعه فى التدريس ، ابتداءً يخطب
بالزاوية الناصرية . فوقع الاقبال على خطبه كما وقع على دروسه .

قال فى النسمات . وكانت خطبه بليغة كثيرة النفع ، شديدة التأثير ،
يخص فيها على اتباع الكتاب والسنة ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر
لا تأخذه فى الله لومة لأئم ، ولا يرهب بطش جبار ولا سطوة حاكم . بل
كان يقول الحق وان كان مرا ، ويدور معه دوران من هو متمد على الله سرّاً
وجهرّاً فوقعت له بسبب ذلك وقائع هائلة وقضايا هامة .

منها : أن الفرنسيين قبل احتلالهم المغرب كانوا أرسلوا بعض
الشياطين من أذنانهم إلى طنجة ، ففتحوا بها مدرسة لتعليم الاولاد اللغة
الفرنسية توصلاً بذلك إلى ما بعده . فسارع بعض المغرورين الراغبين فى الدنيا
إلى إدخال اولادهم فيها ، فلما علم الشيخ بذلك خطب خطبة بليغة حذر
فيها المسالمين من إدخال اولادهم مدارس النصارى ، وبين ضرر ذلك فى
الدين ، وما يترتب عليه من المفاسد فى الاعتقاد والاخلاق ومصالح البلاد
وبالغ فى ذلك ، وأطنب وأطال ، فأثرت خطبته فى الناس . وسارع جل من
أدخل اولادهم المدرسة إلى إخراجهم منها ، فاغتاز لذلك سفير فرنسا ،
واحتد غضباً ، لأنها أول بذرة بذروها فى المغرب لحصد الشر والفساد منه ،

فأفسدها عليهم الشيخ بخطبته ، فأرسل إلى الباشا وهو حاكم المدينة بأمره بعزل
الشيخ من الخطبة ، ويتوعدده بما لا تحمد عقباه ان لم يفعل ، فدخله رعب
شديد ، وكانت فرنسا اذ ذاك متحفزة للوثوب على المغرب ، فأرسل الباشا
بعض أعوانه الى الشيخ يطلب منه القدوم ليكلمه في ذلك ، فلم يصل الى
الشيخ حتى شاع الخبر في الناس بأسرع من لمح البصر . فاجتمعوا وتوجهوا
الى الباشا والشيخ معهم . فلما وصلوا الى المحكمة شرعوا في قراءة
سورة الفتح بلسان واحد . رافعين بها أصواتهم . فارتجت المحكمة ودهش
الباشا ، وبقي في انتظارهم الى أن ختموا السورة ، فقال ما مرادكم . فقالوا
ان يبقى الشيخ على حاله ولا يعزل من الخطبة وطلب فرنسا لذلك تدخل ما
فيها ليس هو من شأنها ، بل من شأن ديننا ونحن أحرار فيه فأجابهم بالموافقة
ثم أقبل على الشيخ وأخبره بما أزمه به السفير المذكور وما توعدده به مع
ما عنده من أوامر السلطان بمراعاة سفراء الدول ، وبالغ في الاعتذار فقبل
الشيخ عذره ، وانصرف مكرماً معززاً مستمراً على خطبته الى ان تركها بعد
ذلك باختياره . فكانت هذه القضية أول حجر في أساس الخلاف بين الشيخ
وفرنسا .

ثم بعد ذلك حصلت قضية أشد من هذه في شأن أمة للشيخ ، تعلق
بعلم فرنسا للتوصل الى بعض اغراضها الفاسدة . وارسل سفير فرنسا الى
نائب السلطان يأمره باجبار الشيخ على عتقها لتعلقها بعلم فرنسا فامتنع من
ذلك في قصة طويلة كانت من اعظم الاسباب في ازدياد حسد فرنسا على
الشيخ رضي الله عنه ، وكانت قضية الامة عجيبة لا تخلو من حكمة مقصودة
للشيخ رضي الله عنه فانه كان لا يلتفت الى مثل هذه الاشياء ، ولا يشدد في
ملك جارية ولا غيرها . بل لو كانت الدنيا كلها ما وقف لأجلها ذلك الموقف
ولا أمر بالقبض عليها إلا انه اراد تبكيك فرنسا وتعريفها انه لا يعتبرها ولا
ما كان من جهتها .

ثم بعد هذه القصة المشروحة في الأصل تتابعت قضايا الخلاف بين الشيخ وفرنسا إلى أن بلغ الأمر منتهاه بعد احتلالها المغرب .

واشتهر الشيخ بين جميع رجالها بالمغرب وحكامها فيه انه العدو اللدود لفرنسا . فسلكوا معه كل المسالك وأطعموه بالأموال والمرتبات وتنفيذ الكلمة . والمساعدة على نشر طريقه في سائر أنحاء المغرب ، وغير ذلك ، كما فعلوا بغيره . فلم يزد ذلك إلا عداوة لهم وتباعدا منهم إلى أن لقي الله تعالى وهو على ذلك .

ثم لما أيسوا من ميله شرعوا يحاربونه في أصحابه وأتباعه بالمغرب ، ويعاكسونه في كل ما ربه ، ويقفون في وجه مقاصده لآخوانه وأصحابه ، لا لنفسه ، فانه لم يكن له مقصد من الدنيا أصلا كل ذلك والحق سبحانه وتعالى يناقض مقصودهم ، ويهيبه للشيخ كل ما يريد ، ويقضى حوائج كل من يتعلق به على يدهم أيضا في حال عداوتهم الشديدة إياه ، والله غالب على أمره .

فصل

وفي سنة تسع وعشرين توجه الشيخ بأهله وجماعة من أصحابه ، وهم تسعة وعشرون نفسا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ومر بطريقه على الجزائر فزار بها ضريح ولي الله تعالى سيدي عبد الرحمن الثعالبي . ثم لما وصل إلى بور سعيد امتنع المصريون من انزاله إلى قطرهم كما هي عادتهم مع الحجاج ، فاضطر إلى الذهاب في الببور الذي كان فيه إلى اليمن ، فنزل بمرسى عدن ، وأقام بها تسعة أيام ، ثم توجه منها إلى مصوع من بلاد الحبشة ، فأقام بها ثمانية عشر يوما أكرمه فيها أعيان البلد ووجهائها غاية الإكرام . وكانوا يترددون إليه للزيارة والتبرك والانتفاع بالمجالسة والمذاكرة ، وقضى بها عيد

الغظر ثم بعده بأيام توجه الى جدة . ومنها الى مكة المكرمة ، وكان وصوله اليها بعد منتصف شوال بقليل . فأقام بها نحو شهرين كانت كلها مواسم وأعيادا عامرة بأنواع الطاعات والمسرات . يجتمع اليه فضلاء الحرم وعلماؤه وشيوخه فتمضى مجالسه معهم كأنها رياض مواتقة يقتطف منها أزهار العلوم والمعارف وأنوار الفوائد واللطائف .

وكان في تلك الأيام يتظاهر بمزيد العبودية ، والتواضع ، والقناعة والتقشف ، والاقتصاد في المأكل والملبس ، ويحث الفقراء على ذلك ويحذرهم من التوسع ، وتناول الشهوات ، ويقول لهم : هذه الأماكن الشريفة لا يليق فيها الا الذل والتواضع لله تعالى . ومن تمام ذلك التقليل من الشهوات والزهد في المملذوذات ان كان المرء يريد قبول الحج والحصول على ثمرته والا فهو مجرد فسحة وسياحة ونزهة . بل ينبغي لطالب الآخرة والراغب في رضى الله تعالى أن ينفق ما معه على فقراء الحرمين وأشرفهما وعلماهما عوضا عما سينفقه في شهواته وأغراضه . وكذلك كان هو رضى الله عنه لا هم له الا التصديق والمواساة وصلة العلماء والاشراف وأهل الخير والصلاح .

وكان لا يتظاهر بعلم ولا مشيخة ولا مافية راحة تقدم وظهور . ولما طلب منه اهل مكة أن يلتقى دروسا في المسجد الحرام وأهل المدينة أن يلتقى دروسا في الحرم النبوى امتنع من ذلك ، وقال : كل ما ينسب الينامن العلم والصلاح تركناه في بلدنا ، وخرجنا منها متبرئين من علمنا وعملنا ، مفتقرين الى الله ، راجين فضله وعطفة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وقفة عرفة تلك السنة يوم الجمعة التي ورد فضل الوقوف بها على سائر الأيام . ولما كان بعرفة وقف في موضع مخصوص وأخبر الفقراء من باب الكشف : انه الموضع الذى وقف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا الموضع الذى يقف به الامام ويظن الناس أنه موضع وقوف رسول الله

صلى الله عليه وسلم . وفي يوم الأضحى اجتمع الشيخ وأصحابه بشيخه ،
 وشيخنا الامام العلامة الصوفي سيدى محمد بن جعفر الكتانى إذ قدم من
 المدينة المنورة للوقوف بعرفة . وكان الجمع حافلا ، مشتملا على جماعة من
 العلماء والفضلاء والفقراء الصوفية والمنشدين . فشرعوا فى الانشاد ، فطاب
 الوقت وورقت القلوب . وقام الشيخ سيدى محمد بن جعفر الكتانى متواجدا
 وقام الشيخ رضى الله عنه ، فقام الحاضرون كلهم وتواجدوا بذكر الله تعالى
 والفرح به ، فكانت ساعة من أبرك الساعات .

ثم فى أواخر الحجّة توجه إلى المدينة المنورة ، فهل عليه هلال المحرم ،
 فاتح سنة ثلاثين قبل وصوله إلى المدينة بمرحلتين . ولما بلغ المكان الذى تظهر
 منه قبة النبي صلى الله عليه وسلم لم يملك حاله . فرفع صوته بالصلاة عليه
 صلى الله عليه وسلم ، وصار يستشفع به الى الله تعالى أن يمنحه كمال الأدب معه
 صلى الله عليه وسلم ومع جوارده وسكان مدينته المنورة . وكان ذلك منه
 رضى الله عنه بحال قوى ، فسرى فى الحاضرين كلهم . فرقت قلوبهم وذرفت
 عيونهم .

ثم لما دخل إلى المدينة بادر إلى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم
 خرج إلى البقيع . فلما وصل إليه خلع نعله . فخلع الناس نعالهم . فزار من
 به من آل البيت الأطهار والصحابة والفضلاء الأخيار . ثم رجع وأقام بالمدينة
 المنورة ثلاثة أشهر كانت من أبرك الأوقات وأطيبها عامرة بأنواع الطاعات والاجتماع
 بأفاضل الوقت وعلماؤه فى المذاكرة بأنواع العلوم . وكان أكثر ذلك بحضور
 شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى ، وغالبها بمنزله . وأقبل عليه علماء
 المدينة ، ومن كان بها من علماء الأقطار وفرحوا به ، وأجلوه وأعظموا
 منزلته السامية . فى العلم ، والحفظ ، والاطلاع ، والتبحر فى سائر الفنون .
 فكانوا يجتمعون به فى أغاب الأوقات ، وبكل المناسبات ، وعمولاه ولائم

وعزومات . ثم فى أواخر ربيع الأول غادر المدينة ، متوجهاً إلى الشام . وفى اليوم الثانى لقدمه . شاع خبره بين العلماء والأفاضل . فسارعوا إلى زيارته والاجتماع به ، وأكثروا من استدعائه إلى منازلهم مع أصحابه وأتباعه . وانتفعوا بمذاكراته وأحبوه ومالوا إليه . وكان كثير منهم لا يفارقونه .

ثم بعد مدة توجه إلى بيروت ، وفى اليوم الثانى من دخوله شاع خبره بين أهلها أيضاً ، فجاءوا لزيارته وفى مقدمتهم العلامة الشهير . صاحب المؤلفات الكثيرة فى جناب الرسول صلى الله عليه وسلم الشيخ يوسف النبهانى . فزاره وتبرك به ثم توجه منها إلى القاهرة وأقام بها نحو أربعين يوماً اشتري بها كثيراً من الكتب ، وزار ضواريح آل البيت والأولياء المشاهير وشد الرحلة إلى طنطا لزيارة القطب سيدى أحمد البدوى . وتعرف إليه شيوخ الأزهر وعلماءه ، وفى مقدمتهم عالم الديار المصرية الشيخ محمد بخيت رحمه الله فأحبه كثيراً وأجله . واعتقد فضله ، وصار بعد ذلك يحبه ويذكره فى المجالس والمحافل .

ووقع للشيخ مع بعضهم مناظرات فى مسائل علمية وأحوال خالفوا فيها السنة والشريعة كحلق اللحية وشرب الدخان والملابس الأفرنجية .

وكان يقول فى حق أهل مصر : ان هؤلاء القوم كادوا يرجعون إلى قبيلتهم الأولى ولم يبق لهم من الإسلام إلا الأسماء واللغة العربية . ثم توجه راجعاً إلى المغرب من طريق بورسعيد ، فلم يتهياً له الركوب ، فأقام به نحو شهر فى انتظار ورود البابور ولد له فيه مولود ، سماه محمد الزمزمى ، وذلك يوم الأربعاء ، خامس عشر جمادى الأولى سنة ثلاثين . وفى الشهر الذى بعده وصل إلى طنجة .

فصل

ووافق عند رجوعه من الحجاز أن تمت المعاهدة بين السلطان عبد الحفيظ ودولة فرنسا على احتلال المغرب بعد أن سبق احتلال بعض مدنه قبل ذلك ، فلما أمضى معهم الاتفاق على ذلك تنازل عن الملك لأخيه يوسف ، ثم توجه إلى الحجاز . فلما وصل إلى المدينة المنورة أظهر التوبة والانابة ، وأكثر من الصدقات والبر بأهل المدينة . وكان يتظاهر قبل ذلك بمحبة شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى وتعظيمه ، فأتى إليه وأظهر له من الأدب والتواضع ما غره به ، لسلامة نيته وحسن طويته . فأقبل عليه وأكرمه ، وجعله من خاصة أصحابه .

ثم لما عزم عبد الحفيظ على الرجوع إلى المغرب طلب من الشيخ المذكور أن يرشده إلى عالم يقتدى به ويهتدى بهديه ، ويعول في أمور دينه عليه ، فأرشده إلى الشيخ رضى الله عنه ، وقال له ليس بالمغرب اليوم مثله . لا سيما وهو بطنجة التي اختار عبد الحفيظ الإقامة بها . ثم كتب سيدى محمد بن جعفر رضى الله عنه إلى الشيخ كتاباً قال فيه .

أما بعد : فوجهه تجديد العهد بكم والسؤال عن أحوالكم أدامها المولى سبحانه على وفق مرادكم واعلامكم بأن سلطان مغربنا الشريف العلامة . مولاي عبد الحفيظ بعد مازار جده المصطفى صلى الله عليه وسلم واستسلم إليه وانقاد بين يديه متضرعاً خاضعاً وجمعنا الله سبحانه وتعالى به جرى ذكركم بما نعلمه منكم فاشتاق إليكم ، وأحب أن يكون له اجتماع بكم واخوة مع جنابكم ، وارشاد منكم إلى ما فيه الصلاح لدينه والنجاح في أخراه ، وعليه فنحب منكم ، بارك الله فيكم أن تعملوا على ذلك ، وتقبلوا اخوته ، وتعاملوه معاملة أخص إخوانكم إليكم محبة وارشاداً ونصحاء ، ولا تنصرفوا على ذلك ، والله

تجازيكم ، وقد أعلن في هذه الحجة بما أعلن به الأوابون . ثبتنا الله وإياه على ذلك وقوانا على العمل به وعلى محبتكم الخ . وهو مؤرخ بيوم الأربعاء التاسع عشر المحرم سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف .

فلما وصل الكتاب الى الشيخ قدس سره . قال غره عبد الحفيظ بظاهر حاله . ثم كتب جوابا له وعرفه بشرح حاله وحقيقة أمره . وأن ما تظاهر به من التوبة والانابة . هو مجرد صورة لا حقيقة لها . ثم لما قدم الى طنجة أرسل الى الشيخ مع الشريف الصالح سيدي المأمون البلغيثي . وكان مجاورا بالمدينة المنورة . فأنزله عبد الحفيظ معه الى المغرب . ولكنه رجع بعد ذلك اليها . فلما أتى الى الشيخ وأخبره بأن السلطان يريد الاجتماع به امتنع من ذلك كل الامتناع . فلما رجع اليه وأخبره بامتناع الشيخ أراد أن يغيره بالمال . فأرسل اليه أربعة آلاف ريال مع الشريف المذكور ، فردها اليه . وصمم على عدم الاجتماع . فرجع اليه بالمال فردة ثالثا ، ووعد بالزيادة وأمره أن يسلك معه كل مسلك ويتوسل اليه بكل وسيلة . فصار الشريف يتردد الى الشيخ في شأن هذه المقابلة كل يوم ، ويتوسل اليه بشرفه وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستعطفه بكل ما في وسعه والشيخ مصر على الامتناع . ثم سأل عبد الحفيظ بعض الواردين عليه من أهل البلد ممن يحترمه الشيخ ويستحي منه . فأرشدته الى بعض الفقهاء . وكان الشيخ يحبه ويحله . فأرسل اليه وأعطاه أربعة آلاف ريال وطلب منه أن يتوسط له عند الشيخ في الاجتماع به . فجاء اليه . ومكث معه من الضحى الى الظهر . وهو يحاول من الشيخ المساعدة فلم يحبه اليها ، وقال له لا أجمع بمن سلم المغرب الى فرنسا ، وقتل سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني ظلما ولو فعل ما فعل ثم تعلق بغيرها أيضا فلم يفلح . فلما أيس من الوسائط أرسل اليه يوما مع الشريف البلغيثي يقول : إني سأقدم غدا الى منزلك ، فاذا وصلت الى باب دارك ، وظهر لك أن تطردني فافعل . فأرسل الشيخ في الحال الى بعض

تلامذته ممن كان متصدرا عنده للاستشارة وأخبره الخبر ، وأمره أن يصرفه عنه وعرفه بأنه لا يقابله أصلا ، فأمر أربعة من أصحاب الشيخ أن يلزموا باب الدار بعصيتهم ليردوه اذا جاء بالقوة . ثم ذهب إلى بعض من كان متصلا بعبد الحفيظ ، وقال له اذهب اليه ، وقل له : ان الفقراء مجتمعون بباب دار الشيخ ليمنعوه من الوصول اليه . وعليه فالواجب أن يتأخر عن التوجه اليه خوفا من وقوع مالا يحمد . فلما بلغه الرسول ذلك أيس مرة واحدة وأرسل الى الشيخ يقول له : انك لست أفضل من عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأنا لست شرا من الحجاج بن يوسف الثقفي . وقد كان عبد الله بن عمر يجتمع به . فقال الشيخ للرسول ان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان عنده من الفضل وقوة الحال برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته ما يحمي دينه من التأثير بالاجتماع بالحجاج وأنا ضعيف الحال ، أخاف على ديني أن يتأثر ويضعف بسبب الاجتماع به وهكذا صرفه الله عنه ، فلم يجتمع به . ثم بعد هذا بنحو سنة وقعت الحرب العظمى وحصل لعبد الحفيظ ما أوجب سفره الى أسبانيا . فلما وصل اليها اتصل به سفير دولة ألمانيا التي كانت في حاجة الى من ينير الحرب على فرنسا في المغرب وطلب منه بصفته كان ملك المغرب وقد انتزع الملك من يده أن يحارب فرنسا ليعود الى ملكه ، وأن دولته مستعدة للمساعدة على ذلك بالمال والسلاح ، فأظهر رغبته في ذلك ، ولم يكن قصده في الواقع الا أن يبتز منهم الأموال ليصرفها في شهواته ويبذرها في ملذاته ، لكنه رأى أن ذلك لا يتم الا بالشروع في العمل ، ولم ير من يصلح لذلك ويقوم به الا الشيخ رضى الله عنه . فأرسل الى وكيله بطنجة ، وهو عبد الهادي السلوى وأمره أن يذهب الى الشيخ ويصحب معه الجزء الأخير من صحيح البخارى . ويتوسل اليه بالنبي صلى الله عليه وسلم وبرجال ذلك الجزء في أن يرضى عنه ، ويقبل معاملته في شأن القيام على فرنسا ومحاربتها ، وعرفه بأن دولة ألمانيا هي التي ستتولى المساعدة بالمال والسلاح

على ذلك ، فأجابه الشيخ لما علم أن الأمر متعلق بالدين ، وأنها دعوة واجب تلبيتها والخوض فيها إلا أنه لعدم تحققه من الأمر والنتيجة كلف بذلك ابن أخيه الشريف سيدى العالى بن أحمد بن الصديق . وكان الألمان قد اتصلوا أيضا بعبد الملك بن الأمير عبد القادر محي الدين وطلبوا منه القيام أيضا ، وأمدوه بالمال وواعدوه بالسلاح . فاتصل بالشيخ رضى الله عنه وطلب منه المعونة والمساعدة . فأجابه الى ذلك ، وأمر ابن أخيه أن يذهب اليه ويتفقا معا على الأمر . فاستمررا على ذلك مدة الى أن هينا شتون الخروج ، وخرجا معا . ووقعت لهما قضايا غريبة وأتى القبض عليهما بقبيلة أنجرة . وصارت فرنسا ترسل إلى بعض زعماء القبائل الجبلية وتعمده بأموال تطيرها الباب أمثاله ان هو سلم اليها المذكورين ، وكتب له الشيخ يأمره باطلاق سراحهما . وأرسل الى بعض أهل القبائل الغمارية فنزلوا وتدخلوا فى القضية ، وسلم الله أمر الرجلين بعد أن كانا بين مخالف الموت .

ووصلا إلى بعض قبائل الحدود الفرنسية المغربية . وقاما بالدعوة إلى الجهاد وشرعا فيه مدة الحرب بتامها الى أن وقعت الهدنة . واستشهد ابن أخى الشيخ المذكور .

ولما شرعا فى القتال عزم الشيخ على السفر من طنجة الى غمارة . وكان والده قد توفى قبل ذلك بنحو سنتين أو ثلاث . وبقي أمر الميراث بين العائلة الكبيرة موقوفا على حضوره . فأراد إنهاء مسألته مع النظر فى بعض مصالح تلك القبائل وامكان اتصالها بمساعدة المحاربين .

فاما علم الفرنسيون بذلك أرسلوا يطلبون منه التأخر عن السفر لمناسبة الحال الحاضرة خوفا ان يلتحق بالمحاربين ويقع الاجتماع العظيم لاقبال الخلق عليه . فامتنع من التأخر ، وأصر على السفر . فالتجأوا الى القوة وفرقوا البوليس فى ضواحي المدينة وأحدثوا لهم مواضع خاصة لم تكن من قبل

جعلوها على جميع الطرق المؤدية الى جهة تطوان لكونها طريق غمارة وعرفوا الشيخ بأنهم سيستعملون القوة ان خرج بغير إذنه ، فأصر على المخالفة لأمرهم وتنفيذ ما أراد . فصار الفقراء يشترون السلاح ويعدون العدة ليوم خروج الشيخ حتى يقابلوا البوليس بالقوة ان تعرضوا للشيخ .

فلما رأى الفرنسيون تفاحش الأمر أرسلوا من الرباط الوزير عبد القادر ابن غبريط . وكان له معرفة بالشيخ أيام إقامته بطنجة ليكلمه في التأخر عن السفر ويستميله الى فرنسا والرضوخ لها ويعده ويمنيه بكل ما يريده ، فلم ينجح فيه شيء من ذلك ، والحالة كل يوم تزداد خطورة ، وصارت تحصل قضايا وحوادث يصطدم فيها الفقراء مع البوليس والشرط وأعوان الحكومة بما يطول شرحه .

ثم لما لم يجدوا بدا من مساعدته أرسلوا اليه يقولون : ان أمرك قد رفع إلى السلطان . ولم يبق لحكام طنجة فيه تدخل سوى تنفيذ أمر السلطان ، وأثناء ذلك ورد عليه مكتوب من الوزير محمد الحباص . قال فيه :

وبعد : فقد بلغ جناب المخزن أعزه الله أنكم تريدون السفر من هنا كم لقضاء بعض أغراضكم الشخصية بهاتيك القبائل الجبلية . وهذا أمر لا بأس به . لو كان في غير هذه الظروف الوقتية حيث إن الانسان لا يخلو من أعداء كما أنه لا يخلو من أصدقاء . فكما أن أصدقاءه يلاحظون حركاته بعين الصفاء والاحترام فكذلك أعداؤه يراقبون أعماله وينسبون اليه ما لم يكن له به إلمام ، على أن المخزن والحمد لله يعتقد فيكم الخير والصلاح ويبرى جانبكم من الخوض في هذه الأعراض الدنيوية الحائدة عن مهيع الفلاح لما يبلغه عنكم دائماً من إرشاد الخليفة والأعراض عما سوى الاشتغال بوحدة الحقيقة ، ولذلك لم يراض المخزن الشريف تحرككم في هذه الظروف الحاضرة ، ويختار سكونكم بمحلكم لما فيه من مصالحكم الظاهرة والباطنة ريثما تنقشع هذه

السحابة الصيفية التي لا تمكث طويلا ، ولا تستلزم من الصبر الا قليلا .
 وحينئذ يتمكنون من السفر معززين بالأوامر المخزنية ، معتمدين على الله
 سبحانه وعليها في قضاء أغراضكم حاضرة وبادية .

وأما الآن فلا يخفاكم ما يترتب على ذلك من القيل والقال ، وما يمكن
 أن ينسب لكم مما يعلم جانب المخزن انكم رآه منه . بل لا يحظر لكم بيال
 كما لا يخفاكم ما هو وارد شرعاً في الحث على السكينة ، والحفاظة على تعميم
 الراحة بكل ما أمكن . نعم : إن كانت لكم أسباب أوجبت عليكم السفر من
 ذلك الثغر المحوط فينبوها لجناب المخزن بمزيد ثقة وجميل استقاد ، إما رأساً .
 وإما بواسطة النائب المخزني لينظر فيها وتجاوبن عنها بما يرضيكم ويسرركم
 بحول الله .

هذا وقد أبلغنا لجنابكم المحترم أوامر مولانا الشريفة . راجين ورود
 جوابكم بما يحقق لمولانا أيده الله ما أديناه في جنابكم من الشهادة بما
 نعلمه من صلاح أحوالكم وصفاء طويتكم وحسن مساعيكم الخيرية ،
 محتسبين على الله ثوابها الجسيم في دار النعيم ، وعلى ما تعهدونه من المحبة
 الأكيدة ، والسلام . في عشرين رجب الحرام عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة
 وألف . فأجابه الشيخ وذكر له أسباب سفره التي أشرنا إليها . فورد عليه كتاب
 الاذن بالسفر ، وهم إنما فعلوا ذلك سترا للجمالة ، لئلا يخرج الشيخ قهراً عنهم
 وتسقط منزلتهم بين الناس . ونص الكتاب : محبنا الأعز الأَرْضِي الشريف
 الأجل الفقيه المرشد البركة « سيدى محمد بن الصديق » رعاكم الله ،
 وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . عن خير مولانا نصره الله .

وبعد : وصلنا جوابكم عما كتبناه لكم عن الأمر الشريف ، أمناه
 الله في شأن تأخركم عن السفر من طنجة . مراعاة لهذه الظروف الحاضرة .
 وعلمنا ما أبدىتموه من الأسباب الموجبة لسفركم . وأنهبناها لمولانا أيده الله .
 واستعطفنا جنابه الشريف في إجابتكم لمطلبكم لما نعلمه فيكم من الصدق

في القول والعمل ، وكون مثلكم يتحاشى عن التلبس بما توهم في جنا بكم
وقد قبل مولانا أيده الله أعذارك وساعدك أعزه الله على السفر لقضاء
وطركم ، فتوجهوا على بركة الله مصحوبين بالسلامة والعافية . ولا تحتاج الى
تنبيه جنا بكم ، على استعمال ما يمكنكم في تسكين الروع بهاتيك الجهة
الجبلية ، وحض الناس على لزوم الطاعة والطمأنينة ، ووعظهم بما ورد في
السنة فيمن يوقظ نار الفتن تسمى الله أن يهديهم على يدكم المباركة لما فيه
من صلاحهم وصلاح بلادهم ، ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما
طاعت عليه الشمس وعلى المحبة والسلام في تاسع شعبان سنة ثلاث وثلاثين
وثلاثمائة وألف .

فسافر الشيخ إلى غمارة ، ومكث بها ثمانية أشهر ، عالج فيها القضية بعد
أن اجتمعت اليه تلك القبائل . وكان زعماءها يردون عليه كل يوم ، فعرف
أن الخرق قد اتسع على الراقع ، وأنه لا مرد لقضاء الله . فرجع ونزل معه
نحو الف وستائة رجل الى ناحية تطوان لينهى لهم القضية مع حكام الأسبان
فقابل المندوب السامى وكله و شأن مصالح تلك البلاد ، ثم خرج راجعا الى
طنجة عن طريق القبيلة الانجيرية .

ولما كان بها واجتمع اليه أهائها خاف من ذلك بعض من كان متصدرا
للزعامة ، طامعا في نيل المملكة ، فدس اليه من يقاتله ، وهما رجلان من أهل
القبيلة العروسية ، فافتضا وأتى الفقراء القبض على أحدهما . وهرب الآخر .
وأمر الشيخ بالعفو عن المقبوض فأطلق سراحه . ثم دخل الشيخ الى طنجة ،
وبعد الاستراحة شرع في قراءة صحيح البخارى ، وصار يتعرض للجهاد
والحث عليه ويذكر فرنسا فيسبها ويدعو عايتها بالهلاك والدمار ، والحكام
حاضرون في درسه ، وكل ما يقوله يصل الى الفرنسيين بواسطة جواسيسهم
فيحاولون منعه من ذلك ، فلا يجدون اليه سبيلا ، ثم كثرت الخلاف والنزاع

والمناوشات بين الفقراء أصحاب الشيخ وبين الحكومة وأعوانها ، وحصلت قضايا متعددة عارض فيها الفقراء إرادة فرنسا وحكامها . فانتصروا عليها . وكانوا دائماً يحصلون مقصودهم بفوات مقصود الحكومة وإرادتها وكان ينتصر لفرنسا ، ويبالغ في إرضائها حتى طنجة إذ ذاك عبد السلام بن عبد الصادق ، فلما طال الأمر وكثر الخلاف أراد أن يظهر النصيح التام ، ويقدم الخدمة الجليلة ليتوصل في نظره الى مرتبة أعلا مما هو فيه . وكان يطعم في ترقيته الى نائب السلطان ، فصادف أن وقعت قضية لبعض الاشراف الكتانيين المتتمين الى الشيخ رضى الله عنه مع قاضى طنجة وقتئذ الفقيه علال الهرايلى الفاسى . ولطمه في محكمته ، فألقى الحاكم المذكور القبض على الشريف الكتانى ، وتوهم أن الفقراء سيتعرضون له في شأنه فأوحى اليه ظلمه وبغضه للشيخ والفقراء أن يعاجلهم بمكيدة ظن أنها ستنتفعه في تشتيت ثملهم وتمكن فرنسا من نقيهم وتثريدهم . فأرسل الى جميع أعيان البلد ، ولم يغادر منهم أحداً . فلما اجتمعوا بمسجد القصبة القريب من المحكمة أخرج لهم عريضة ، يريد تقديمها للسلطان ، ضمنها شكاية أهل البلد بالشيخ والفقراء ، ونسبوا اليهم عدة مضرات واعتداءات وتشويشات للأمن والراحة ، وطلب من الجميع أن يوافقوا عليها بانزال خطوطهم في العريضة ، ووافق ذلك هوى في نفوسهم ، فكانوا أطوع له من بنانه .

ثم وجه الكتاب المذكور الى السلطان وبقي في انتظار ورود النتيجة فلم يظهر ما عسى جانب الشيخ والفقراء بكلمة واحدة ولكن ظهرت النتيجة في القائد وأهل طنجة . فعاجلهم الله بعقوبته وسلبهم ما كانوا فيه من العز والجاه ، وسلط عليهم الذل والمهانة والفقر والاضطرار والحاجة ، وسقطوا من عين الناس ومن عين فرنسا التي أرادوا إرضاءها بفعلتهم الشنيعة .
وأما القائد المذكور فأوقعه الله في نفس الحفرة التي حفرها لينفى الشيخ

والفقراء . فأخرج من بلده ووطنه عقب ذلك بقليل وصار متغرباً في نواحي الدار البيضاء ، وخربت أملاكه بطنجة ، وانقرض منها ذكره وشتت شمله . وجمع الله شمل الشيخ والفقراء ، ولم يصب أحد منهم بسوء ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ولما صدرت هذه الفعلة الشنيعة من أهل طنجة دخل الشيخ رضى الله عنه داره ولزم بيته ، وقطع التدريس والخروج الى الزاوية ، وقال كانت على ظهرنا أعمال وأثقال لأهل طنجة ، والآن قد أنزلناها واسترحنا من ثقلها .

وقال أيضاً : كنا نريد لأهل طنجة العز والرفعة بين الناس فأبوا الاالدل والمهانة فليفعلوا ماشاءوا . وبقي في بيته من سنة سبع وثلاثين إلى أن توفاه الله تعالى سنة أربع وخمسين لم يخرج فيها إلا مرات معدودة .

منها : سفره الى القاهرة سنة خمس وأربعين لحضور مؤتمر الخلافة إذ استدعاه المصريون ، وألحوا عليه في الحضور بمكاتب متعددة . فرأى أن إجابة دعوتهم واجبة لوجوب نصب الخليفة . وكان يرجو حصول فائدة للاسلام من ذلك الاجتماع .

فلما حضر المؤتمر وجد القوم يلعبون ويمزحون ووجد المؤتمر عبارة عن إلقاء الخطب ، والتمشيد بما يظهر لكل واحد مزيته في الخطابة ، والتفصح مع ضعف الرأى ، وعدم التمسك بالشريعة في الأقوال والأعمال ، فترك الحضور معهم قبل أن ينتهى المؤتمر ، وأقبل على شأنه من زيارة ضرائح أهل الله وشراء الكتب .

ثم توجه إلى الشام لزيارة بيت المقدس ، وإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . ثم منه إلى زيارة شيخه سيدى محمد بن جعفر الكتانى الذى كان وقتئذ مقياً ببيروت عقب خروجه من دمشق لوجود فتنة الدروز مع فرنسا فزاره .

ثم رجع من طريق البحر على الإسكندرية ، لزيارة ضريح أبي العباس
المرسى رضى الله عنه .

ثم رجع إلى القاهرة وشد منها الرحلة الى دسوق لزيارة سيدي إبراهيم
الدسوقي . وإلى طنطا لزيارة سيدي أحمد البدوي رضى الله عنهما .

ثم رجع إلى طنجة بعد أن غاب في هذه السفرة ثلاثة أشهر ، ولزم بيته
أيضا ، فكانت وفود الزوار تتوارد عليه من كل ناحية كما هي العادة ،
بل زاد الأمر وعظم بانقطاعه عن الخروج . فكان يعمر معهم أوقاته بالمشاكرة
بأنواع العلوم والمعارف مع القيام بحقوق المسامين وقضاء حوائجهم .

بالتوسط والشفاعات عندحكام الدولتين الفرنسية والاسبانية في المنطقتين
السلطانية والخليفية . وذلك بالمراسلة تارة مع بعض أصحابه وأحيانا بالمكاتبة
فتنقى المسأرب وتقبل الشفاعة مع شدة العداوة له من الجهتين ، والله تعالى
غالب على أمره .

الباب الرابع

في وصف حالته العلمية ومواهبه الفتحية وما يتعلق بذلك

كان الشيخ رضى الله عنه إماماً في سائر العلوم محققاً للمنطوق منها والمفهوم حافظاً متقناً . واسع الاطلاع . مديد الباع . قوى الحججة والمارضة فصيحاً فطنا ذكياً غاية في الاستحضار ، بل آية وأعجوبة من عجائب الدهر فيه ما رأيت من علماء عصره بالمغرب والحجاز ، ومصر والشام من يدانيه في ذلك ، إلا شيخنا الامام سيدي محمد بن جعفر الكتاني في التراجم في تراجم الأولياء ومناقبهم خاصة . وشيخنا الامام أبا عبد الله محمد بن حنيت في مسائل الفقه والمعقول خاصة .

وأما الشيخ رضى الله عنه فكان شأنه في الاستحضار عجباً يبهر العقول بحيث كانت مجالسه العادية على الدوام كأنها دروس كبار العلماء الحفاظ ، الذين يتعبون في جمع ما يلقون فيها في الساعات المتعددة . بل ما رأيت درساً جامعاً لغرائب العلوم ونوادير الأخبار ونفائس الفوائد كمجالسه الدائمة مع ضيوفه وزواره وأصحابه حضراً وسفراً في داره ودار غيره اذا دعى لها أخرج لبستان في فسحة ونزهة ، فان مجالسه مع طولها لم يكن يذكر فيها الدنيا وأخبارها ، ولا يتعرض لزيد ولا عمرو . بل كانت مذاكرة علمية والحاضرون كلهم سكوت كأنما على رؤوسهم الطير يستمعون إلا إذا سأل سائل عن مسألة أو استفهم عنها . وما كان يتعرض لذلك إلا القليل من جلase الذين لهم جرأة على الكلام معه . وكانت مجالسه تطول على هذه الحالة الساعات الطويلة وربما استمر مجالسه من بعد العصر إلى ما بعد العشاء بساعة وساعتين لا يقوم فيها إلا للصلاة ثم يعود للمذاكرة . وربما جلس من بعد انقطور إلى صلاة الظهر ، لا سيما مع الضيوف من أهل فاس وسلا وأضرابهم الراغبين في سماع

العلوم والمعارف . وكان المرء يسمع منه في المجلس الواحد من غرائب العلوم ونوادر الأخبار والتقول مالا يهتدى اليه بعد البحث الطويل . والاطلاع الشديد إلا في الأزمنة المتطاولة .

وقد وصف مجلسه بعض أهل العلم ، فقال :

ومن أكبر شيوخنا وأفضلهم . العارف الأكبر ، والكبريت الأحمر . مرشد السالكين ومرابي المريدين . الدال على الله بالأقوال والأفعال . الناهج بأحواله منهج الكمال . مأوى الضعفاء ومعينهم ، ومرشد الأقوياء ومقويهم منبع المعارف والأسرار ، وملجأ الذاكرين آناء الليل وأطراف النهار . من اذا تكلم كفى . واذا صاحب صفا . واذا عاهد وفى . واذا قدر عفا .

الشبيه في أخلاقه بحده المصطفى صلى الله عليه وسلم . بحر المعارف والعلوم ومبدي الضياء من الظلام في الفهوم . الجامع بين المعقول والمنقول . الفانى في محبة الرسول الشريف المنيف شيخنا حساً ومعنى وحبينا روحاً وجسماسيدى الحاج محمد بن العارف الكامل سيدى الحاج الصديق ابن القطب المربى سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن سمعنا عليه رضى الله عنه وقدس روحه علوماً حجة مذاكرة منه لنا في جميع الفنون العلمية وأكثرها في التصوف وحكاية الصالحين وعجائبهم في سلوكهم الى الله تعالى وافتراق أحوالهم في مواجيدهم وأذواقهم ، بحيث لو كنا نكتب ما نسمع منه في جميع العلوم من المسائل مع تحقيقها والقول الفصل فيها وما يتبع ذلك لجمعنا منه مجلدات ، ولكن حالنا حال الكسالى . وآفة العلم عدم التقييد ، فندمنا حيث لا ينفعنا الندم اه .

ووصف مجلسه صاحب نبذة التحقيق ولم يكن ممن يجالسه إلا قليلا على انفراد ، فقال :

وكانت مجالسه قدس سره لا تخلو من الفوائد . ولا بد لمجالسه أن ينال من فيضه أبدع الصلات وأنفع العوائد إلى أن قال .

وبالجملة فتبحره في العلوم ظاهراً وباطناً مما علمه الخاص والعام وفضله وكماله مما أقر به القاصي والداني . وقد كانت ترد عليه المسائل حتى من الخارج في مذاهب أخرى فيجيب عنها .

وكتب إلى الشريف الجليل العلامة الأديب الشاعر الأثرى سيدي محمد الناصر الكتاني يقول :

اتصلت بالشيوخ طيب الله ثراه وأنا فتى يافع . اشرفت على العشرين ،
ونزلت ضيفاً عليه نحواً من شهرين . كنت أجالسه في خلالها في الصباح
والمساء . وكان مجلسنا لا ينتهي حتى تمر عليه ثلاث ساعات كاملة ، وربما
تجاوزتها أسأله فيتدفق في الجواب بفصاحة بالغة وأسلوب عربي متين وعلم
ينم عن مادة كبيرة يستقى منها أجوبته كنت أسأله في الحديث والفقہ
والتصوف والتاريخ والأدب والفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة . فكان يهرني
منه استيعابه بالجواب عن المسألة التي أسأله عنها فلا يترك في نفسي مكاناً فارغاً
للتعقيب على السؤال هـ .

والعلوم التي كانت له فيها اليد الطولى هي :

الفقہ . والاصول . والكلام . والتصوف . والتفسير . والحديث .
والنحو . والصرف . والمنطق . والتاريخ . والتراجم . والطب . والانساب
والسياسة الشرعية . وسر الحرف . وخواص الأسماء مع المشاركة القسوية في
سائر العلوم .

أما الفقه : فكان يستحضر جميع فروع الخفية والجلية ، لا سيما الفقه
المالكى فإنه كان نصب عينه بهجره وبجره ، وقواعد القضاء ، والدعاوى ،
والقوانين التي قننها المالكية في هذا الباب ، واختص بها المغاربة من بينهم
وتوسع فيها المتأخرون ، وسموها فقهاً مع أن تلك المسائل لا يحفظها ويرع
فيها إلا البزل من الفقهاء . الراغبين في الدنيا ، المخالطين للقضاء والفتوى

والشهادة الممارسين لذلك في الأعوام الكثيرة والأزمان الطويلة . والشيخ
رضي الله عنه كان أبغض شيء إليه خطة القضاء والشهادة والفتوى والتعرض
لتبيل الدنيا بالعلم ، ومع هذا فكان من أبرع الناس وأحفظهم لهذه الفروع
حتى كانت القضاة والحكام والمفتون يفزعون إليه في الاستفادة منه عند
نزول القضايا العويصة والدعاوى المشتبكة . فكان يحرر لهم النازلة ويكتب
لهم الحكم والفتوى ويدفع ذلك لبعض تلامذته وأنجاله . فيكتبه بخطه
وينسبه الى نفسه فرارا من أن ينسب إليه هو رضي الله عنه شيء من ذلك .
وربما أخذ الوساطة في ذلك أموالا طائلة بغير علمه . وقل أن يوجد كتاب
في مكتبته في الفقه المالكي والقوانين العملية التي ألحقها بالفقه . إلا وقد
طالعها وصحح أغلاطها بخطه .

وأما الأصول : فكان يستحضر جميع مسأله . والخلاف بين أئمة ويرد
ويقبل ويرجح ويضيف منها بحسب نظره واجتهاده . حتى ان بعض من كان
يدعى أنه لا يوجد بالمغرب من يتقن علم الأصول كاتقانه لما قدم الى طنجة .
وزاره ذاكره في مسألة أصولية جر البحث ذكرها . فأراد الرجل أن يغرب
ويراوغ بذكر بعض الاقوال ويؤيدها . فرده الشيخ الى الصواب وأبطل
دلائله . ورجح الحق بما لم يسعه معه الى الرجوع والاعتراف فكان يقول بعد
مفارقة الشيخ لم أر من يفهم الاصول غيره .

وزاره مرة أشهر علماء فاس بعلم الاصول . وهو الفقيه الفضيلي . فذاكره
الشيخ في مسألة فظهر عجزه وقصوره أمام الشيخ واعترف هو بذلك .
فقال له : نحن فقهاء الدرس والكراس ، فما دمننا في الدرس حررنا المسألة
واذا قمنا منه تركناها ولم يبق معنا منها شيء .

وأما الكلام فكان الى المنتهى في تحقيق دلائله وبراهينه مع الاطلاع
التام على جميع المذاهب والنحل والاقوال ، بل كان في بدايته شغوقا بالمناظرة

فيه انتصارا لمذهب أهل السنة وإبانة للمعتقد الحق . ولما رحل الى الحج جرت له فيه مناظرات بالحجاز ومصر والشام مع علماءها . ولما رحلت إلى القاهرة رحلتى الأولى زارنى بعض من كان يتردد الى الشيخ أيام مروره بالقاهرة فى طريق رجوعه من الحج ، وقال لى إن والدك إمام ما رأينا مثله فأنى ناظرته لما كان هنا وتحققت فضله وبراعته فى علم الكلام واستفدت منه مع أن هذا الرجل من المشهورين بالجدال والمناظرات التعسفية فى علم الكلام .

وأما التفسير : فكان آية فيه ، لا يسأل عن آية أو يجرى ذكرها فى مذاكرة إلا ويبدى فيها ويعيد ، ويذكر من معانيها ما لا يستطيع ذكره إلا من كان محورا لها فى تلك الساعة من جميع التفاسير . ولما فتح قراءة التفسير أسمى فى الكلام على الفاتحة إلى قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» مجالس طول شهر رمضان من بعد العصر الى قبيل المغرب بقليل . وحدثنى الفقير الصوفى أحمد الحنات قال حضرت مع الشيخ مرة بتطوان فى بعض المجالس الحافلة بالزوار فتكلم على قوله تعالى والذى قدر فهدى فأنى فيها بما بهر عقول الحاضرين من علماء وعوام وأدخل فيها ما لم يخطر لأحد ببال وأما الحديث فكان حافظا لمنونه مديم النظر فيه والاشتغال بفنونه وكتبه لاسيما فتح البارى فإنه يستحضر جميع مسائله

وأما التصوف فهو علمه ومن صدره تتفجر منابعه وعيونه سواء تصوف الارشاد والعمل والسلوك وتصوف العلم بالله وأهل الفناء فى وحدة الوجود إلا أنه كان إلى القسم الأول أميل لأن عنايته كانت بالعمل والتخلق أكثر وكان لا يتكلم فى الثانى إلا نادرا مع أهله لاسيما فى بدايته وأوائل أمره فإنه كان غيورا على نشر الحقائق شديدة التكتم لها كما كان أستاذه سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه .

وأما النحو والصرف فكان يتقنهما اتقان من لم يعرف غيرها وكانت دروسه فى الخلاصة بشرحى المكودى وابن هشام من أعجب الدروس

وأتمتها في هذا الفن بل كان يحبه على الخصوص ويتعشقه ويبحث على قراءته والتضلع منه كثيراً ويقول إنه مفتاح فهم العلوم لاسيما البلاغة والأصول وأما المنطق فكان يتقنه غاية واقتنى كثيراً من كتبه ودرسه بتوسع واطلاع وتحقيق وبحث لم ير الطلبة مثله

وأما التاريخ والتراجم فشأنه فيها أعجب وأغرب من كل ما سبق فإنه لا يكاد يذكر دولة من ظهور الاسلام إلى عصره إلا ويحدثك عنها حديث من حضرها وكان واحداً من أعيانها ورجال دولتها لاسيما دول المغرب والأندلس وكذلك تراجم العلماء والشيوخ والأولياء ووقائعهم في سلوكهم وتربيتهم وأخبارهم مع تلامذتهم وما إلى ذلك مع ضم الأشباه والنظائر فإذا اقتضى الحال في موعظة أو مذاكرة الاستشهاد بواقعة وحكاية يضم إليها أمثالها مما وقع لشيوخ كثيرين من مشاركة ومغاربة في عصور متقدمة ومتأخرة كأنه كان يبحث عن ذلك ويجمعه منذ أزمان طويلة فيقول مثلاً وقع للجنييد أو الشبلي مع فلان كذا ومثله وقع للرفاعي أو الجيلاني مع فلان وكذلك للمتبولي مع الخواص وللبكري مع ابنه وسيدى يوسف الفاسي مع أخيه أو صاحبه فلان وهكذا يسرد الأشباه والنظائر من الحكايات والوقائع التاريخية في كل مناسبة حتى أن بعضهم يرد عليه يستشير في أمر فيشير عليه بما فيه رشده ويزوده في ذلك بحكايات ووقائع للمتقدمين في نفس المسألة

وأما السياسة الشرعية ومعرفة الطرق والوسائل التي تقوم بها مصالح الدولة وينبني عليها أساس العمران ونماؤه وترقية الأمة إلى مصاف الدول العظام وكيفية استثمار الأموال بالوجه الشرعي المباح الذي لا ظلم فيه ولا جور على أحد من الرعية وكيفية حفظ البلاد وحراستها ومعاملة الدول الأجنبية بما لا يخالف للشرع فيه ونحو هذا فكان إذا تكلم فيه تخال أنه لا يفكر دائماً إلا فيه ولا يشتغل بغيره كأنه أحد كبار الوزراء القائمين بعبء الدولة ومصالح المملكة مع مراعاة الحال الحاضرة وتغير الوقت وتبديل الأطوار حتى كان إذا اجتمع

به أهل السياسة ومكاتبو الجرائد يرون منه ما لم يخطر لهم على بال ويتعجبون منه غاية العجب لكونه من علماء الدين وشيوخ التصوف المقبلين على علوم الآخرة والمعرضين عن علوم الدنيا لاسيما وهو لا يقرأ الجرائد أصلاً بل ويحذر من قراءتها ويستهن إضاعة الوقت في الاشتغال بها ولما ظهر بعضهم بالزمامة بفاس وشاع خبره قدم إليه بعض المشتغلين بالسياسة ممن كان مقيماً بالبلاد التركية ليكون معيناً له وناصراً ومؤيداً فلما اجتمع به خاب أمره ورأى خلاف ما كان يؤمل ويسمع ثم توجه من فاس إلى طنجة فزار الشيخ وتذاكر معه في فنه فبهر عقله وقال هذا هو الزعيم على الحقيقة وهكذا يجب أن يكون الزعماء أما الفاسي الذي شدت الرحلة إليه خصوصاً فأنى لما جلست أتفاهم معه في القضية صار ينام ويتركني فعلمت أنه غير زعيم ولا مخلص في قضية وطنه

وأما الطب فما رأيت طالماً يشاركه فيه بل أعرضوا عنه اتكالا على أطباء الفرنج والمتخرجين على يدهم فيه أما الشيخ فكان شأنه فيه شأن مهرة أطباء العرب الأقدمين بحيث يداوى المريض على الوصف من بعيد بل من مدن أخرى ولا يخصى كم مريض حكم أطباء الافرنج بموته وعدم إمكان علاجه فشفاه الله على يده وبأدويته التي كان يصفها للناس وقد وقفت على بعض مكاتبه لأصحابه في العلاج أحببت إيراد بعضها ليعرف منها حقيقة الأمر مع الاستفادة.

فمن تلك قوله في كتاب : والرجل الذي أصابه في جنبه الأيسر ما أصابه أمره صعب في الجملة فإن الجنب الأيسر علاجه يصعب كثيراً ولكن مره أن يدهن جنبه المذكور بزيت الرند عند النوم ويدلكه ذلك جيداً وعلى رأس كل ثلاثة أيام يدخل الحمام فيمكث فيه نحو ساعة فإنه يعافى إن شاء الله تعالى ولا تخبره بصعوبة مرضه لثلاث تغيير طبيعته فيزداد مرضه اه .

ومنها أما دواء ابن عمك فليأخذ شيئاً من السمن وليجعله على النار مع مثله من الماء وليتركه حتى يذهب الماء ويبقى السمن ثم يأخذ مثله من

العسل ويزيل رغوته على نار لينة ثم يأخذ مثله من السكر الأحمر ويجعل الثلاثة على نار لينة وتحرك تحريكاً جيداً حتى تنعقد وتصير ذاتاً واحدة في قوام الحلواء ثم يجعلها في آنية فاذا أراد النوم أكل منها مقداراً جيداً فإن نومه يرجع كما كان ويزول يبسه وتكثر رطوبته وتقل عنه تلك الأفكار التي تضره إن شاء الله تعالى .

ومنها وصلنا كتابك الشريف وعرفنا ما أشرت إليه مما يعتريك من البرد والعرق الخ . اعلم سيدي أن ما يعتريك مما أشرت إليه سببه ضعف قلبك لضعف دمك كما قاله لك الطبيب فإنه لم يهتد لما أصابك كما هي حالة أطباء الوقت فإنهم قلما يحصلون على عين الداء اللهم إلا إذا كان داء بارزاً ظاهراً وكيفما كان الحال فدواؤك قريب إن شاء الله تعالى وذلك بأن تأخذ لبن الضأن وتغليه وتجعل فيه شيئاً من السكر وشيئاً من القرنفل بعد دقه وتترك سواه كائناً ما كان إلى أن يتقوى القلب ويرجع إلى حالته وذلك لا يخفى عليك والماء إذا اضطرت إليه لا بأس أن تطبخه لكن أقلل من شربه ولا تبلغ فيه أما اللبن فأكثر منه وعمما قريب يظهر الأثر إن شاء الله تعالى .

ومنها اما ما كنت تستعمله من البيض فاستعمله وأما الامهال فلا تهول منه فإنه جيد والقرنفل قلل منه وكثر من اللبن وإن أمكنك أن تستعمل معجون العسل بالحبة السوداء فهو جيد للغاية ولومرة في اليوم والنفخ الذي يبطنك سببه رطوبة الأمعاء مع ريح منجس فيها واعلى ما تزال به تلك الرطوبة معجون العسل الذي ذكرناه فاستعمله ولا بد وأضف إليه شيئاً من الأدوية المعنوية كالتصدق كل يوم ولو برغيف وقراءة حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبعا صباحاً ومثلها مساء فلا ترى بأساً إن شاء الله تعالى .

ومنها واعلم أن الدوخة التي تحصل لك سببها انعقاد البخار الذي يصعد من المعدة إلى الرأس ممزوجاً برطوبة وبرد وعجز الرأس عن تحمله لضعفه

وكثرة برده ويظهر أن زوال تلك الدوخة ربما يحصل بشرب ماء الليمون
ممزوجاً بشيء من السكر وقليل من الماء بعد شرب اللبن وليكن الشرب
قليلاً لئلا تنتشر الرطوبة الموجودة في المعدة انتشاراً لا تقدر ذاتك عليه
لرداءة كيموسها الذي هو عبارة عن الدم المستحيل عن الغذاء فإذا اعتادت
الذات الليمون المذكور فلا بأس أن تزيد منه شيئاً على القدر الأول فإذا
صعب عليك من أول مرة فادهن رأسك دهناً جيداً بالزيت بشرط أن يكون
من الزيتون وإن كان عتيقاً فهو أحسن لكن تحفظ وقت الدهن وبعده من
الريح جهدك والله هو الشافي أما الأكل فدم على الحليب وإن صعب عليك
القرنفل فاتركه أسبوعاً أو أسبوعين ثم عد إليه إلى أن تكمل راحتك فإن
اضطرت إلى الأكل فكل الحريرة أو مرق الفراريج الصغار بخبز السميد
وإن وجدت لحمًا من خروف صغير فلا بأس أن تتناول منه مغسلاً أو مغسولين
بشرط أن يكون منقى من الجلود والعروق متوسط السمن وبعد أن تستعمل
هذا عرفنا بما يحدث لنكون على بال ورمضان ربما لا يمكنك صومه لأن
الحليب للظافته ينهضم سريعاً والجوع يحدث لك منه ضرر كبير معوى
وأنت تعلم أن الصوم يحرم في هذه الحالة فإياك أن تصوم واللبن أكثر
من شربه ولا تمل منه ولا يخفك أن الصدقة من الأدوية التي يسرع نفعها
فبادر إليها ولو رغيفاً أو نصفه كل يوم لتجمع بين الدواءين الحسى والمعنوى
ومنها والذي أشرت إليه من النفخ يظهر لي أنه نوع من الاستسقاء
غير أنه خفيف فلتشرب الماء المطفي فيه الحديد بعد احمراره جيداً بالنار
وادهن بطنك من خارج بشيء من القطران فإن أمكن أن تشرب لبن الأبل
إن وجد هناك فبادر إليه فإن لم تجده فبوها فإنه من أنفع الأشياء لنفخ البطن
ويكفيك أنه دواء نبوى كما في صحيح البخارى وقد عملنا نحن بذلك في
حق أقوام من الاخوان فصحوا في الحال ومنهم من أخبره الأطباء بأنه

لا يمكن علاجه الا بعد تناول دواء صعب وصفه له طول سنة كاملة فوصفنا له هذا الدواء فصح بعد ثمانية أيام .

ومنها ومن الوقت الذى جاءنى كتابك وأنا أردد النظر فيه لاستخرج منه حقيقة حالك وقد ظهر لى ظهوراً بيناً أن حالك طيب غاية والحمد لله وما يصيبك إنما هو من كثرة الدم ورقته بميله إلى مائة يسيرة بسبب عدم أكلك الادام الخشن كاللحم والزيت وخبز البرو من رفته يصيبك ما يصيبك من البرد الشديد عند شرب المرق وأكل الخبز والحريرة لان ما به من الماء يريد ان ينتشر فى الشرايين العصبية وهذه الأمور تقاومه وترده لمحله فيحصل لك ذلك ودواؤه إن شاء الله تعالى يكون بدوام أكل اللوز والسحتر مع السكر وقليل من السمن الذى مر عليه العام أو أكثر إما وحده وإما بخبز يسير مع المداومة على شرب اللبن بالقرنفل الى أن ترجع الطبيعة لمركزها الأول القابل لجميع الماء كولات ونرجو الله أن يكون ذلك سريعاً بحول الله .

ومنها والذى أصابك من الوجع الشديد الذى أقعدك فى الفراش ومنعك من الحركة الخ خفيف للغاية وسببه برودة مخفية فى المعدة جاءت بها من صلابة الكلى ووصلت الى الاعصاب فوقف دمها عن سيره الطبيعى وبسبب ذلك قل العرق ودواء ذلك يحصل إن شاء الله تعالى باستعمال ماء الرند الحار والجلوس فيه فى الحمام المرة بعد الاخرى مع شرب ماء البيينوج حاراً عند النوم وإدخال شىء من بخاره إلى الحلق وبعد حصول الراحة خذ أوقية من المصطكى واجعل عليها مقدار خمس حفنات من الماء واجعلها على نار الفحم الخالصة من الدخان واركها حتى ينقضى نصف الماء ثم صفه واجعل عليه عسلاً منزوع الرغوة واجعله على النار واركه حتى يصير فى قوام الأشربة ثم أنزله واجعله فى زجاجة وخذ عند كل صباح قدر أوقية واجعل عليها قدر حفنة من الماء واشرب ذلك على الريق فانك تعافى من جميع أمراض المعدة بحول الله تعالى .

ومنها والمصابة بالحمل كلفها أن تخضب أطرافها اليدين والرجلين والرأس
بالحناء الممزوجة بشيء من الزعفران مع شرب شيء من الليمون الممزوج
بماء الورد وقليل من السكر ولتبتخر صباحاً ومساءً بشمع العسل حتى يصل
ريحه إلى جوفها فانها تعافى إن شاء الله تعالى فان بقيت بها فعرفنا ولا بد لنصف
لها دواء آخر حتى يحصل الشفاء بحول الله تعالى

قلت ومن عجيب شأنه في المداواة أنه كما ترى لا يصف في أدوية عشبا
غريباً نادر الوجود كما تجده في أدوية القانون وكامل الصناعة وشرح الأسباب
والعلامات والتذكرة وغيرها بل لا يصف إلا ما هو متيسر متناول يسهل
الحصول عليه المريض أينما كان وكان يرى سلوك هذه الطريق في المعالجة من
الواجب المتعين على أطباء الوقت ويستقبح الاتكال على الأدوية المركبة
المجربة من بلاد الفرنج لأنه بانقطاعها ينقطع العلاج والمداواة لعجز الطبيب
عن معرفة غيره ولذلك لما توجه إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة ذهب لمدرسة
الطب الكبرى الموجودة بالقصر العيني لظنه أنه يدرس بها الطب على الطريقة
الجامعة بين القديم والجديد وأنه يوجد بالمدرسة بستان فيه النباتات والأعشاب
وأن المدرس يعرف الطلبة بكل نبات وخاصيته ومنافعه حسبما فهم من كلام
الشريف العلي صاحب ضياء النبراس فلما دخل إليها لم يجد شيئاً من ذلك ووجد
يدرسون على الطريقة الفرنسية والمدرسون أغلبهم افرنج لا يدرسون باللغة
العربية فاستنكر ذلك لأنه لا يفيد في معرفة الطبائع والأدواء وأسباب الأمراض
ولا ما يخص كل طبيعة من العلاج وإنما هي أمور ظاهرة غير محققة ولا محررة
ولذلك يقل النفع والعلاج بمداواة غالب أطباء الفرنج أضف إلى ذلك أنهم
لا يعتمدون الأعلى المركبات والمواد الكيماوية المجربة من الخارج ولا يعتمدون
على نباتات البلاد ومعادنها ومنتوجاتها فلو فقدت تلك المجربات أو كان
الطبيب بأرض لا توجد فيها لعدم النفع به ولما كان هو كآحاد الناس إلا في
الشيء التفاه الذي لا يذكر

فصل

وأما الانساب فكان إليه المرجع فيها بتلك الأقطار حتى كان يخبر أناساً
 بنسبهم وكونهم من أهل البيت من غير أن يكون عندهم علم بذلك
 وكانت له المشاركة القوية في غير هذه العلوم بل كان لفرط ذكائه وقوة
 جنانه وسرعة إدراكه لا يكاد يتوجه إلى فن من الفنون الا ويطلع على حقيقته
 وقد طلب من الفقيه السيد احمد بن زيد الانجری وهو من تلامذته في الطريق
 أن يأخذ عنه علم الفلك فاعتذر الرجل وامتنع أدبا مع الشيخ فقال لا بد أن
 نسلك سنة الله المتبعة في التعليم وذكر له أن جده العارف الكبير سيدي احمد
 ابن عبد المؤمن أخذ هذا العلم على كبر عن تلميذه في الطريق الفقيه مفرج
 فلما لم يجد بداً من إجابة طلبه عين له الكتاب وضرب الميعاد للرجوع إلى
 قراءته فلما حضر وشرع في القراءة مع الشيخ وافتتح الكلام في الموضوع
 فاجأه الشيخ بمسائل وقواعد غريبة في الفن فطوى الفقيه الكتاب وقبل
 يد الشيخ وقال له والله ياسيدي إنك لأعلم مني بهذا الفن ودخلت إليه يوماً
 يطوأل الملوك وفيها أسماء بعض زعماء مصر وبجانبها أرقام فأول ما نظر فيها
 قال لي ان الشيخ محمود الفلكي يقول في حق سعد زغول إنه سيموت في هذا
 العام حتماً فلم تمض إلا شهران أو ثلاثة حتى ورد الخبر بوفاته ، وقضاياه في علم
 الجدول والتصرف بالأوقاف وسر الحرف كثيرة أضربنا عنها صفحاً وقد
 ذكرنا جملة منها في الأصل

وأما دروسه فكانت روضة من رياض الجنة آية في الابهة والرونق والجمال
 فما شئت من إملاء وحفظ وترتيل وفصاحة وسرعة إلقاء لا يسكت لحظة
 ولا يفكر فيما يقول كأنه يقرأ فاتحة الكتاب ولا ينطق إلا باللغة العربية
 الفصحى لا ينطق بكلمة واحدة عامية أصلاً سواء في ذلك درس الفقه والحديث
 والتفسير والنحو والمنطق إلا أن درس الحديث والتفسير يمتاز عن غيره

بتؤدة وأبهة وهيبة زائدة مع صيغة جميلة ونعمة مطربة يتمنى المرء لو دام
 درسه اليوم بأجمعه كان يورد الحديث من الصحيح باسناده ثم يتكلم على تراجم
 رجاله وأحوالهم ومقالاتهم إن كانوا من أهل الزهد والورع ومواليهم
 ووفياتهم ثم ينتقل إلى متن الحديث فيذكر طرقه ومخرجه وألفاظه ثم يعرب
 ألفاظه المشكل إعرابها ويتكلم على غريبه ومعناه والأحكام المأخوذة منه
 وفقه كل مذهب في المسألة ودليل كل قول وما يرد عليه من الاعتراضات
 والاجوبة ويطبق نص مختصر خليل على الحديث إن كان موافقاً له ثم يختم
 باستخراج الفوائد والمسائل وإذا كان في معنى الحديث أحاديث أخرى في
 الباب أملى جميعها مخرجة معزوة ولو كانت مائة حديث فإذا قرأ حديث
 سبعة يظلمهم الله في ظله أملى كل الأحاديث الواردة في الخصال الموجبة لظلم الله
 يوم لا ظل إلا ظله وإذا قرأ حديثاً فيه من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له
 ما تقدم من ذنبه أملى كل الأحاديث الواردة في غفران ما تقدم من الذنوب
 وإذا قرأ حديثاً فيمن يموت شهيداً أملى كل الأحاديث الواردة بذلك
 وهكذا لا يكاد يخلو درس من الاملاء مع فصاحة وطلاوة ونور وحلاوة
 أما في مجالس الفقه فكان يذكر النصوص الكثيرة بألفاظها فيقبل
 المقبول ويرد المردود ويضيف ويرجح مع إيضاح المعنى بدون تكرار
 ولا إعادة كلمة ولا توقف ولا سكوت لحظة واحدة وربما صاح
 في درس الفقه والنحو أثناء التقرير بقوله رد بالك إذا رأى من السارد يوماً
 أو غفلة وربما صفق بيديه أثناء التقرير أي وضع يده على الأخرى شبه المصفق
 فيسمع لها صوت خفيف لما كان يعتربه من شبه غيبة عن حسه لفرط نشوة
 وطرب بلذة العلم وتقريره ولم يكن يطالع إلا قدرأ قليلاً مع أنه كان أواخر
 تدريسه يجمع ثلاثة دروس في مجلس واحد يمكث فيه ثلاث ساعات تقريباً
 فكان يخرج للدرس قبل الظهر بساعة ونصف فيشرع في قراءة الخلاصة بشرح
 المكودي وابن هشام ثم بعد مدة يشرع في قراءة المختصر فإذا أذن الظهر

وفات قليلا قام وصعد الكرسي وشرع في قراءة الصحيح لأن درس الخلاصة والمختصر كان لا يحضره إلا الطلبة ونجباء العوام ممن له رغبة في الفقه وأما الصحيح فكان بعد الظهر تجتمع الخلائق من سائر الطبقات لسماعه فكان يصعد على الكرسي وقتئذ يسمع الناس وكان قبل ذلك يخرج صباحاً لتدريس لامية الأفعال والمنطق معا في درس واحد كل ذلك من حفظه وبالقائه السريع بحيث ما يلقيه في ساعة يلقيه غيره في عدة ساعات ويعمر به عدة مجالس .

قال في النسمات كانت دروسه رضى الله عنه عجيبة وقراءته قراءة بحث وتحقيق وتحريير وتدقيق وتلخيص للمسائل وتحريرها مع ما ينضم إلى ذلك من الإيرادات والأجوبة هذا مع ما كان عليه رضى الله عنه من عبودية المنطق وحلاوته وبلاغة اللسان وفصاحته وحسن التأدية والتبليغ ورونق الترتيب والافهام البليغ حتى إن البليد من الطلبة كان يحوز من الفهم والادراك حظه أما حفظه وإملاؤه فكان لا يجارى فيهما ولا يبارى ويكفى برهاناً على ذلك ما كان يجمعه من الدروس المختلفة متصلاً بعضها ببعض في مجلس واحد فكان يقرأ أولاً ألفية ابن مالك بشرح المكودي ولا يقتصر عليه بل يأتي بالكثير من المسائل النحوية ثم يتبعه بقراءة مختصر خليل متصلاً به وهو في مجلسه كان يقرأه بشرح الخرشى ولا يقتصر عليه بل يأتي بكلام الزرقاني وحواشيه للشيخ بناني والزهوني وينوه بحاشيته كثيراً وربما أنشد أحياناً عقب نقله وقوله .

إذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

ثم بمجرد الفراغ منه يتبعه بقراءة صحيح البخارى لكن كان يقوم من مجلسه الأول فيصعد على الكرسي تعظيماً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان يحضر درسه في الصحيح الجُم الغفير من العلماء والطلبة وأعيان البلد وغيرهم حتى إن أعلا صوته لا يبلغ منتهى مجلسه لكثرة الحاضرين وكانت قراءة مدهشة للعقول آخذة بمجامع القلوب لما كان عليه رضى الله

عنه من عجيب الحفظ وغريب الاملاء والتحقيق وحسن الترتيب وبديع التنسيق وكان يملئ في الزمن القليل من الأحاديث ما لا يملئ غيره في الزمن الكثير وكان عند قراءته للحديث يكسى حلة البهاء ويعلوه نور وبهجة وسناء حتى يفيض على قلوب الحاضرين ولا يمل أحد من مجلس قراءته ومذاكرته وإن طال ما طال وبالجمل فممن حضر مجلس قراءته لم يقنع بقراءة غيره وإن بلغ في العلوم والتحقيق ما عسى أن يبلغ لأن علمه كان علم فتح ووهب لا علم كسب وقراءته كانت قراءة مجتهد لا قراءة مقلد اه .

وقال صاحب النبذة وأما غيرته في الدين فهو لا شك الفرد الأول بين المسلمين ممن لا يبارى في ميدانه ولا يجارى قل فيه حقا هو ممن لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يلتفت فيه لدى سطوة لا سيما في مجلس وعظه ودروسه إلى أن قال وإذا أنعم بدرس ازدحم الناس على محلات القرب منه وغصت المحافل بهم وفتح مرة صحيح البخارى فشهدنا كغيرنا من أماليه ما يبهر العامة والخاصة وتجد الاعناق حال القراءة مشرئبة لسماع نغيات مثانيه ومثاليه بما لو قدرت على كتب ما يملئ لكان شرحا حافلا مع كون إلقائه من غير تعلم ولا نحنة مما تستلذه الاسماع وتصغى اليه القلوب ويغص المسجد بالحاضرين لا سيما من أهل الفضل والدين لما يسمعونه كل يوم من رقائق المواعظ وحقائق العلوم والعرفان ما يزيد الكمل تحقيقا بمكانة الرجل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اه

فصل

وكان الشيخ رضى الله عنه عاملا بالسنة وما صح لديه من الدليل من غير نظر إلى مخالفة المذهب ولا ماجرى عليه العمل امتثالاً لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم كما هو واجب على كل مسلم موحد لا سيما في النصف الأخير من عمره ، فانه كان يعاق بذلك ويدعو إليه ، وأمر بكثير من السنن

المهجورة في مذهب مالك كالتعوذ والبسملة والجهر بالتأمين ورفع اليدين في الانتقال ووضع اليدين منهن على الشمال والسلام من الصلاة مرتين مع زيادة ورحمة الله والأذان بين يدي الخطيب يوم الجمعة وغير ذلك وكان يعطر مجالسه الخاصة بذكر الاجتهاد والعمل بالسنة ، ويبدى تعجبه من المقلدة الجامدين الجبهة المعرضين عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وبنظر في ذلك ويسالغ في تقريره ، لاسيما مع كبار الفقهاء وشيوخ المقلدة وقد ناظر مرة بفاس فقيه المغرب سيدي المهدي الوزاني صاحب المعيار والحواشي المتداولة وأزمه الحججة ، لكنه عاند وأصر على الباطل وإنكار الاجتهاد ، وتحريم العمل بالكتاب والسنة ، ووقعت له مناظرة بالمدينة المنورة مع حمدان الونيسي الجزائري في محفل عظيم من العلماء فيهم شيخنا الامام سيدي محمد ابن جعفر السكتاني والشيخ توفيق الايوبى الشامي والشيخ أمين سويدى الدمشقي أيضا والشيخ عمر حمدان المحرمي والسيد أبو القاسم الدباغ وما يقرب من عشرين عالما كانوا مجتمعين بضريح سيدنا حمزة رضى الله عنه وبعضهم يسرد تفسير ابن عجيبة ، فمرت مسألة الحجر بالبحث فيها بينهم إلى مخالفة المذهب فتكلم الونيسى بكلام أراد به التنكيت على سيدي أبي القاسم الدباغ لأنه كان من المعلمين بنبذ التقليد والعمل بالسنة وظن الونيسى أنه منفرد بذلك من بين الحاضرين ، فانبرى له الشيخ رضى الله عنه وناظره مناظرة بهرت عقول الحاضرين ، ومكثوا يتحدثون بها طول عمرهم كلما جرى ذكر الشيخ رضى الله عنه حتى ذكره كل من السيد أبي القاسم الدباغ والشيخ عمر حمدان على الانفراد في أوقات مختلفة ، قالوا : ما كنا نمثل الونيسى أمام الشيخ إلا كهر صغير بين يدي أسد عظيم ، فلما أزمه الحججة ولم يجد من يد الشيخ مفرا . قال في حمية وغضب للتقليد والشيطان : ما قاله الله ورسوله أضعه تحت قدمي وما قاله خليل أجعله فوق رأسي ، فقال له الشيخ الآن سقط الكلام معك ولو أخبرتنا بهذا من أول وهلة ما ناظرناك لأننا كنا نظن أنك تناظر عن جهل

بالمسألة وخطأ في النظر والاعتقاد وحيث وصلت إلى حد الكفر والردة والعناد فلا كلام لنا مع من هذا حاله .

وحضر الشيخ مرة في وليمة ومعه بعض الفقراء وكانوا صائمين أطوعا فلما حضر الطعام أمرهم بالافطار عملا بقوله صلى الله عليه وسلم «الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر» فأقام جهلة المقلدة لذلك ضحيجا على عادتهم عند رؤية العمل بالسنة وأكثروا القيل والقال انتصارا للباطل الذي يسمونه المذهب فاجتمع بهم الشيخ وأزمهم الحجة وأبان جهلهم بمذهبهم ، وهكذا كانت طريقته رضى الله عنه يعمل بالسنة ويعتمد في مناظرته مع المقلدة على المذهب لوجود قول فيه أو قاعدة تقتضى ذلك لعلمه بأن أهل الباطل لا يرضخون إلا للباطلهم ولا يدينون إلا بشركائهم نعوذ بالله من الخذلان وكان يأمرنى إذا كتبت فى مسائل من السنة أن أنصرها بقول المقلدة حتى يمكن نشرها والعمل بها لا بالدليل من الكتاب والسنة اللذين لا يقيم لهما المقلدة وزنا ويعتقدون أن العمل بهما ضلال وبدعة نعوذ بالله من الضلال .

وسافر الشيخ مرة من طنجة إلى غمارة مسيرة ثلاثة أيام ، ولما قرب من بلده وكان يوم جمعة مر على قرية فدخلها ليحضر الجمعة ، فلما رآه الخطيب دهش وتأخر واختفى فقدم أهل القرية الشيخ للخطبة والصلاة فخطب ارتجالا وصلى بهم ثم توجه إلى بلده فشاع الخبر بين فقهاء غمارة فانقسموا قسمين قسم قال لانعترض على الشيخ لأنه أعلم منا بالمذهب وأعرف بالسنة وقسم حكم ببطلان الصلاة ، فلما باغى الخبر كتب يستقدمهم إليه ، فلما حضروا ناظرهم فى المسألة وعرفهم ما لم يكن عندهم به علم من مذهبهم ، فاعترفوا إلا جاهلا دأبه العناد والجidal ممن طرد من القضاء وسجن على الزور وأكل أموال الناس بالباطل فإنه أصر على العناد لفرط جهله إلى أن توجه إلى فاس ووقف على رسالة مؤلفة فى المسألة لشيخ الجماعة بالمغرب أبى العباس ابن الخياط ، فعند ذلك انقبع تحت جبهله .

ومع هذا فإن الشيخ رضى الله عنه كان يحب موافقة الفقهاء فيما يراه ويعمل به ولو خارج مذهب مالك كراهة منه للتفرد والاستقلال بالرأى لا للتوقف في الدليل أو شبهة في العمل به بل فرارا من دعوى الاجتهاد والظهور بما فيه نحر وتبجح وانانية ، فكان يستتر في جميع ما يختاره باتباع مذهب من المذاهب أو قول فقيه من الفقهاء حتى لا يجيب سائله أو يحتج على معارضه بأن هذا رأى ومذهبي بل يقول اعتمدنا في هذه المسألة على مذهب الشافعى أو ابن حنبل أو أبى حنيفة أو على قول في المذهب حكاه فلان عن فلان أو نص عليه فلان في كتاب كذا ليقطع السنة الجامدين في التقليد الجاحدين لفضل الله على خلقه ، ولذلك درج أكثر الناس بل كلهم حتى أقرب الناس إليه وأشدهم ملازمة له يعتقد فيه التقليد والتمذهب بمذهب مالك وصاروا يحتجون علينا إذا دعوناهم إلى العمل بالسنة ونبذ الأقوال المخالفة لها من مذهبهم بأن الشيخ الوالد لم يكن على ذلك وأنه كان طول عمره مقلدا ناصرا للمذهب وحاشاه من ذلك ومعاذ الله أن يكون كذلك ونحن والحمد لله ما اهتدينا إلى العمل بالسنة إلا بأمره وتعليمه ولا نبذنا التقليد وراءنا ظهريا إلا بإشارته وإرشاده ، ولا هदानا الله وانقذنا من بدعة التقليد إلا باتباعه والاقتراء به والاهتداء بهديه ، ولولاه لكننا من جملة المبتدعة المقلدين ، والحمد لله على فضل الله ومنته ، وإما أوقعهم في اعتقادهم ما ذكرناه مع كونه كان في بداية أمره وعنفوان شبابه وأيام قوته في تدريس المختصر ينتصر لمذهب مالك ، والراجح المشهور منه على غيره ، حتى أنه لما بلغ إلى موضع سدل اليدين في الصلاة نصره غاية وايده اتباعا لما عند الشروح لكنه لما اتسع في العلم وتبحر في السنة واطلع على الحقيقة رجع عن ذلك وأمر أصحابه بوضع اليمين على الشمال وأمرنا بالتأليف فيه والانتصار له وكان هو ينتصر له في مجالسه حتى صار بعض من كان يقرأ عليه من الطلبة قديما يعترض عليه بنفس كلامه السابق في درس المختصر وانتصاره للسدل وما درى الجاهل أن ذلك هو أكبر دليل

على فضل الشيخ رضى الله عنه وكماله وبلوغه رتبة الاجتهاد لأنه لا يتغير رأيه
وتختلف أقواله إلا المجتهد الباحث عن الحق العامل بالدليل كما يوجد عن أئمة
المذهب الأقوال المتعددة فى المسألة الواحدة ولا يوجد لمقلد فى مسألة قولان
أبدا ولو بلغ فى العلم أعلى ما بلغ ما لم يصل رتبة الاجتهاد لأن النظر فى الدليل
هو الذى يوجب التغير وتبدل الرأى كلما استبان له دليل أقوى مما عنده تبعه
بخلاف المقلد فإنه يعمل بقول إمامه ولا يعرف حق ذلك من باطله بل هو
لاعتقاده حقيقته يلتزم العمل به ولا يخرج عنه والشيخ رضى الله عنه لم يكن
كذلك فلذلك كانت أقواله تختلف وآراؤه تتبدل .

وكان محبا لسائر المذاهب معظمها مصوبا لجميع الأئمة رضى الله عنهم من
جهة اجتهادهم وجلالة منصبهم وعظيم مكاتهم فى العلم والدين فكان يمدح
مذهب الشافعى للعمل بالحديث ويمدح كتب أهله لا عتائهم بالدليل ويمدح
مذهب مالك لكونه مذهب عالم أهل المدينة إلا أنه يذم صنيع المتأخرين
من المالكية فى الاعراض عن الدليل وكثرة الاختصار المجحف وعدم بسط
القول والتعليل ، ويشهد للحنفية بالبراعة فى الفقه وكثرة الفروع ودقة النظر
فى استخراجها ويقول هم الفقهاء على الحقيقة إلا أنه يشهد عليهم بالتعصب
المفرط الذى اختصوا به من بين أهل المذاهب ويتعجب من إفراطهم فيه
غاية ويحكى عنهم نواذر فى ذلك ويمدح مذهب أحمد بن حنبل للوقوف على
الوارد غالبا ، ويحب مذهب الزيدية ويعترف بفضلهم وبراعتهم فى الفقه
واستنباط المسائل وذكر الدليل فى كتبهم وكان يحبها ويرغب فى الحصول
عليها ويسأل عنها بتلف . لاسيما البحر للامام المهدي والسيل الجرار ونحوها
من الكتب التى يكثر الشوكا فى من النقل عنها والاحالة عليها من مؤلفاته
ومؤلفات غيره .

وكان يطالع كتب سائر المذاهب كبيرها وصغيرها لاسيما الام للشافعى
وشرح المهذب للنووى وشروح المنهاج للرملى وابن حجر والخطيب والمحلى

وفتح القدير لابن الهمام وحاشية ابن عابدين على الدر المختار ، ويقول إنها بمنزلة حاشية الرهوني في مذهب مالك بحثا وتحريرا وجمعا ، والفتاوى العالمة كريمة ويحبها كثيرا لجمعها للاقوال ، أما فتح القدير لابن الهمام فكان يبدى عجبته من ضييع الشارح واتفقانه للدليل وإيراده طرق الحديث مع الكلام عليه وكان يتمنى أن لو أطال الله عمره فأكمله على ذلك المنهاج لأنه كان لا يرى لتكلمته قيمة أمام أصله ، وكان يعتنى من كتب الخنابلة بكشف القناع قبل أن يطبع المغنى والفروع لابن مفلح ، فلما طبعا كان مغرما بهما على أنه إذا دعت الحاجة إلى تحرير مسألة لا يدع في مكتبته كتابا في مذهب من المذاهب إلا ويراجعه ويعلم ما يقوله صاحبه في المسألة إلا كتب الشيعة الإمامية فإنه لم يكن بمكتبته منها كتاب أصلا ولتبحره في المذاهب ومعرفته بجميعها كان لا يرى بالانتقال إليها بأسا لمن أراد ذلك وكنت في بداية طلبتي اخترت الانتقال إلى مذهب الشافعي لما رأيت كتبهم تتعرض لدليل كل مسألة بخلاف كتب المالكية فإنها خالية عن الدليل ، ونشأت من صغرى لأقبل قولاً إلا بعد معرفة دليله فحسن لي الانتقال إليه وصار يحنني على التضلع منه ويرشدني إلى الكتب النفيسة فيه ويعين لي ما أقدم قراءته وما أخره منها ، ولما رحل إخواني إلى القاهرة لطلب العلم اختار بعضهم الانتقال إلى مذهب أحمد بن حنبل فكتب إليه يحسن له ذلك أيضا ويحثه على إتقانه مع معرفة مذهب مالك الذي هو مذهب البلاد والمشاركة في غيره .

ولما توجه إلى الشام لزيارة شيخنا سيدي محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله وكنت معه . قال له يوما إن مولاي أحمد ترك مذهب مالك وانتقل إلى مذهب الشافعي كأنه يريد من الشيخ أن يمتنعني من ذلك ، فقال له هو خير في نفسه يختار من المذاهب ما يشاء فسكت ، وكان عند شيخنا الكتاني رحمه الله نوع من العصبية وميل إلى المذهب بل والجنسية مع أنه كان يعمل بالسنة في كثير من المسائل لكن بشرط موافقة المذهب ولو في بعض الأحوال

وبشرط أن تكون المسألة في الآداب والرفائق لافى الحلال والحرام كما شافها
به مرارا وذكره في كتابه سلوك السبيل الواضح في أن القبض في الصلوات
كلها مشهور وراجع مع أن الواجب سلوكه تقديم قول الله تعالى ورسوله في
ما كل ورد عنهما لافرق بين سنن وآداب ولا بين حلال وحرام وهو في هذه
الطريقة أيضا مقلد لغيره فان المواق نقل في سنن المهتدين عن بعض شيوخه
أنه كان يقول نحن صوفيون محدثون في الرفائق والآداب فقهاء في الأحكام
والحلال والحرام أو نحو هذه العبارة فان مهدي بها قديم ، وذلك من الغلط
البين والخطأ الواضح والسلام .

وكان الشيخ رضى الله عنه محبا للكتب شديد الرغبة في اقتنائها وتحصيلها
ولو بالأثمان العالمة التي يستغرب من دفعها في مثل ما دفعت فيه ولو لم يكن
ذلك الثمن متيسرا لديه ، بل كان يستدين أو يبيع شيئا من اللوازم الضرورية
ليشترى ما احتاجه من الكتب ، بل قلما يعرض عليه كتاب فيوجد عنده ثمنه
الاشترائه خصوصا في أواخر عمره حيث كان لا يمسك عنده شيئا من الدنيا أصلا
ومع ذلك فكان لا يفوت كتابا يمكنه الحصول عليه ووقع له في الحصول على
الكتب وشرائها نواذر وحكايات يطول شرحها ، وقد ذكرنا جملة منها في
الأصل وكان إذا اشترى كتابا لا يكاد يضعه في خزائنه حتى يستوعبه جميعه
أو أهم مقاصده على الأقل وكان لا يقتنى كتب العصرين المنفرنجين المتشبهين
بعلوم الفرنج ولا يقرأها وكذلك الجرائد بل كان ينهى عن قراءتها وإضاعة
الوقت فيها ويقول ما ضل العالم وانتشرت الأخلاق الفاسدة ومعتقدات
المبتدعة والمتفرنجية فيه إلا بواسطة الجرائد فهي والمدارس الافرنجية العامل
الوحيد في إفساد المسلمين وحدثنى بعض أصحابه أنه سمعه بأخرة يقول

لو كنت أكتب لالفت كتاباً في ذم الجرائد والتحذير من قراءتها تأليفاً جيداً
أسميه الضرب بالحدائد لقراء الجرائد .

قلت ولعل الله يوفقى للنيابة عنه فيه كما نبت عنه في غيره والحمد لله فإن
الشيخ رضى الله عنه لشدة نفوره من الظهور وما فيه رائحة فخر وتبجح
لم يؤلف كتاباً مع أنه لو تصدى للتأليف لكان أسهل عليه من جميع اهل عصره
لكثرة حفظه وسعة اطلاعه وشدة استحضاره بحيث يمكنه املاء الكراسة
والكراستين في المسألة الواحدة ومعلقاتها بدون مراجعة كتاب كما كان يعل
ذلك في مجالس مذاكراته ويجيب به في مكاتبه لمن كتب إليه .

وقد قال له مرة بعض أصحابه لم لا تؤلف يا سيدى ، فقال له لم يبق
شىء يحتاجه الامة إلا وقد ألف فيه من قبلنا فما علينا الآن إلا أن نشغل
ونقرأ ونعمل بما كتبوه وحققوه .

وسمعتة مرة يقول كنت ألفت كتاباً في العبادة في مجلد ثم أحرقتة .

وذكر العبادى فيما جمعه من ترجمة الشيخ رضى الله عنه قال نحلى مجلسه
الشريف يوماً بذكر تأليف نجله مولانا أحمد فقلت له يا سيدى إنه ينوب عنكم
في التأليف ، فقال وهو كذلك إن شاء الله فقد سنل القطب أبو الحسن
الشاذلى رضى الله عنه عن عدم كتابته ، فقال كتبتى أصحابى ، ثم قال رضى
الله عنه : وقد كنت مولعاً بالكتابة قبل هذا ، ثم رأيت الوقت لا يساعد
فتركت ذلك وأحرقت بعضها ، وكنت ألفت كتاباً في السيرة النبوية أيام
الشبيبة حينما كنت أدرس الهمزية مع الطلبة بعمارة وأظنه لا يزال عند بعضهم
إلا أن فيه أحاديث موضوعة كنت فلدت فيها بعض المتأخرين كالصبان ، ثم
بعد ذلك اتضح لى أنها موضوعة . قال العبادى وله خطب السنة كلها ورسائل
فى الطريق نحن على غاية الجسد فى جمعها ، وله رسالة النور اللامع فى تسكفير

الذنوب والقبائح ألغها بسبب خطبة خطبها ذكر فيها صلاة التسبيح وأحكامها
وفضلها فطلب منه بعض أعيان شرفاء وزان كتابة ما سمعه منه فكتب له
تلك الرسالة في صلاة التسبيح وضم إليها غيرها من المسكفات هـ .

قلت وقد عثرت على بعض المكاتب التي أجاب فيها أصحابها عن أسئلة
قدموها له أذكرها لتتميم الفائدة .

منها وأمامسألة الجهة التي ذكرها في الغنية شيخ العارفين وقطب الكاملين
من ليس له في مقامه ثاني سيدنا ومولانا عبد القادر الجيلاني رضى الله عنه
وأمدنا بمدد الرباني فليعلم سيدنا أنى قبل أن أراجع الغنية المذكورة
صرت أبحث عما يمكن أن يكون جواباً عن الشيخ رضى الله عنه فراجعت
ما أمكننى الوقوف عليه من كتب موضوع المسألة كاليواقيت للعارف
الشعراني والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي والمحاسن الغالية لليافعي
المطبوعة بهامش كرامات الأولياء للنهباني فوجدتهم ثلاثتهم برأوا الشيخ
من اعتقاد الجهة وصرحوا برجوعه أو دس ذلك عليه في كتاب الغنية وذلك
في المبحث السابع من اليواقيت ومسائل الكلام من الفتاوى الحديثية وآخر
المحاسن الغالية ، ولما رأيت ذلك في هذه الكتب الثلاثة كفاني عن تطلب
غيرها حيث لم يبق داع للجواب عنه برجوعه عن ذلك المعتقد أو دسه عليه
ثم راجعت الغنية فوجدت عبارته رضى الله عنه لا تقتضى ما نسبوه إليه
غاية ما في المقام أنه ينكر تأويل الآيات والأحاديث التي تقتضى بظاها
إثبات العلو والتموق والجهة من غير أن يعتقد معناها الذي تقتضيه اللغة
فاعتقاده رضى الله عنه فيها أنها صفات أثبتها الله تعالى لنفسه وأوجب على
عباده أن يصفوه بها ويكلموا بعد ذلك علم حقيقتها إليه سبحانه من غير أن
يقول الفوق بالعلو والعزة والقهر كما هو رأى الاشعرية ولا بالغلبة والاستيلاء
كما هو رأيهم أيضاً مع المعتزلة بل ينبغي أن يترك تفسير ذلك والخوض فيه
راسماً مع تنزيه الله تعالى عن ظاهر معناها ، وهذا الذى قاله رضى الله عنه هو

معتقد الصحابة والسلف الصالح قاطبة . وفي مقدمتهم الأئمة الأربعة وهذا أيضاً معتقد أكابر الأولياء الذين جعل الله الشيخ في مقدمة صفوفهم فلم يأت الشيخ في المقام بما يחדش في عقيدته ولا بما يشين عرض ديانته وإنما خالف المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية في عدم التأويل تبعاً للإمام أحمد ابن حنبل فإنه كان شديد الإنكار على المؤولين ويأمر بامرار ما ورد كما ورد من غير اعتقاد معنى يخالف الربوبية وعظمتها والمؤولون كامام الحرمين والغزالي والباقلاني رضي الله عنهم لا ينكرون هذا ، بل يقولون انه الأفضل والأولى ، وإنما أولوا خوفاً على العامة أن يفهموا تلك الآيات والأحاديث على ظاهرها فيقعوا في ورطة التجسيم ، وذلك يؤديهم إلى أن يكون الخالق كالمخلوق وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فان الله كان ولا فوق ولا جهة ولا عرش ولا سماء ولا أرض ولا زال سبحانه كما كان فكيف يكون في جهة من الجهات وهو الذي خلقها وكيف يحتاج إليها وهو الذي أوجدها فهو سبحانه قبل أن يخلقها وبعد أن خلقها هو الله الأحد الصمد موصوف بجميع الكلمات منزّه عن سمة الحادثات لا يشك في هذا مسلم لا من المتقدمين ولا من المتأخرين ولم يأت الشيخ رضي الله عنه بما يخالف هذا وحاشاه من ذلك ، وكيف وهو الرجل الذي لم تنتج الأرحام مثله ولم يسمح الزمان بمشابهه له في ولايته ومعرفته بعده رضي الله عنه وعن جميع أولياء هذا الأمة فتأمل هذا وأمعن فيه نظرك فان كفاك وإلا فعرفنا لنتذاكر في المسألة ان شاء الله تعالى .

قلت ومن جواب الشيخ رضي الله عنه يظهر لك موافقته للسلف ومخالفته للخلف الذين تجهّموا فضلوهم وأضلوا من قلدتهم واعتقد سننهم حتى صار يستشكل كلام كبار أهل الله الموافق لما نطق به القرآن وتواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأجمع عليه الصحابة والتابعون والسلف الصالح من الإيمان بالصفات وامرارها كما جاءت من غير تكذيب ولا تعطيل باسم التأويل إذ لو اراد الله سبحانه وتعالى تأويله لما أنزله بتلك الألفاظ الموهمة للتشبيه

والجهة والتجسيم والموقعة في الضلال والكفر والبدعة على زعم المتأخرين
والله تعالى أنزل القرءان هدى للناس وشفاء لما في الصدور من الريبة والشكوك
والسواس والأوهام لاضلالا وحيرة وشكا وريبة محتاجا الى إصلاح زيد
ويان عمرو وتعقب بكر وشرح خالد فقبح الله العقول التي تتقدم بين يدي
الله ورسوله وترى أنها أولى بالهداية والبيان ونصيحة العباد من الله ورسوله .
ومنها فاما مسائل الحيفض التي أفادها الشبلي لابي عمران فلم أر من تعرض
لها فقد راجعت الديباج لابن فرحون والطبقات للشعراى فلم أر ذكراً
لها فيهما على أن اجتماع أبي عمران بالشبلي فيه ما فيه وذلك أن أبا عمران
ولد بعد ما توفي الشبلي بنحو ثلاثين سنة فكيف يجتمع وهو لم يوجد بعد
اللهم إلا أن يكون أبو عمران المذكور في القضية غير أبي عمران الفاسي
وكيفما كان الحال فلا غرابة في إفادة الشبلي أبا عمران بتلك المسائل ولو كان
أبو عمران من كان في العلوم الرسمية لأن اهل الكشف والعيان يعلمون
من الاشياء ما لا يعلمه منها أهل الرسوم والأفكار لنظر أهل الكشف
للأشياء بعين الحقيقة التي هي عليها في نفس الأمر حتى أنهم يدركون بنور
كشفهم حقائق المحدودات على ما هي عليه بخلاف أهل الرسوم والأفكار
فإنهم لا يدركون الا رسومها وخواصها وحدودهم كلها رسوم في الحقيقة
وعند التأمل حسبما أفصح بذلك رئيس أهل الأفكار المعلم الثالث ابن سينا
بعد ما أفنى عمره في تطلب حقائق الأشياء وإدراك ما هي عليه في نفسها
وارتكب لادراك ذلك كل طريق يمكن للبشر ارتكابه فلم يحصل من ذلك
على طائل بل في آخر عمره اعترف بأن العقل والفكر لها حد لا يتعديانه إلا
بقوة مفاضة عليهما من الخارج ، وتطلبه لادراك الحق في الأشياء بنفسه هو
الذي تركه متذبذباً في دينه فانه كان يريد أن يعرف الحق ويصل الى ما ينبغي
من معرفته بعقله وفكره من غير طريق الأنبياء وسيدهم وامامهم مولانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم ظننا منه أن العقل يفي بذلك وخصوصاً اذا

كاملا في إدراكه كعقله فخاب ظنه وخرج من الدنيا كما دخل اليها من غير
 فائدة تنفعه في معاده كما وقع ذلك غيره من الفلاسفة المتقدمين عليه والمتأخرين
 عنه وهذه القوة التي أشار اليها هي القوة المفاضة على الانبياء عليهم الصلاة
 والسلام وعلى اتباعهم الأولياء لكن من غير مساواة بينهم فيها إذ الأولياء
 لا يشاركون الانبياء في شيء من أحوالهم أصلا ولا لاجل هذه القوة المفاضة
 عليهم كانت علومهم كلها ضرورية لانظر فيها ولا تفكر أصلا بخلاف غيرهم فان
 علومهم كلها نظرية مجلوبة بمقدمات وأفكار لا تخلو في الغالب عن أغلاط
 وأوهام لقصور الأفكار عن الاحاطة بذاتيات الاشياء ولذلك يقع بين أهلها
 التنازع والتخاصم فترى هذا يقول الحق معه وهذا يقول الحق معه والمسألة
 واحدة بخلاف علوم الأولياء فانها الاشياء فيها من ذلك لاستيلاء أرواحهم المقدسة
 على الانوار التي كان منها بروز الاشياء فتعطيهم الاشياء بسبب ذلك علما
 من نفسها بما هي عليه في الواقع فأني يتطرق لهم الغلط والحالة هذه ولهذا قال
 الاصوليون لا يقع التخالف بين قاطعين أبداً ولما ذكرناه من استيلاء أرواحهم
 على الانوار التي كان منها بروز الاشياء كانت الاشياء في نظرهم كالشيء
 الواحد لاتحاد منشأها فعندهم الماضي والحال والمستقبل نقطة واحدة
 ما يعرف من أولها يعرف من آخرها ولا يغيب عنهم من أمرها شيء حتى أن الواحد
 منهم لو أراد أن يخبر بما هو آت على ما هو عليه وقت ظهوره لفعل ويخرج
 كما أخبر من غير زيادة ولا نقصان مع أنه لم يوجد بعد وما ذلك إلا أنه ينظر
 بعين الروح المحيطة بالزمان وما فيه بدأ ونهاية ولولا تحجير الشارع عليهم
 لا يمكن أن يخبر الواحد منهم بما كان وبما يكون وبتعيين أهل الجنة وأهل
 النار وأهل السعادة وأهل الشقاء وغير ذلك من شئون الأكوان ولكن لم
 تتعلق مصلحة العالم بذلك فأمروا بكنتم ما تعلمون من شئونه إلا من أذن
 له في افشاء شيء من ذلك وان وقع وافشى أحدهم شيئاً مما علموا عوقب
 بعقاب لو عوقب به جبل لذاب وتفتت اذا علمت هذا تبين لك يقيناً أنه يمكن
 للشبلي ومن كان على شاكلته أن يفيد أبا عمران وغيره بألف مسألة من الحويض

مثلا من غير أن تخطر على باله ولا مفهوم للحيض بل سائر أبواب الشريعة وفروعها له أن يفيد فيها بما لا يخطر له على بال ولا يهجس له بخاطر لعدم المناسبة بين فكره وبينها وكفي وعلوم هؤلاء علوم الهام وتحديث وإلقاء في الزرع من غير فكر ودراسة ونظر مع إحاطة النور النبوي بعوالمهم الثلاثة المحفوظة من التلبس بسبب ذلك النور وعلوم الفقهاء وغيرهم علوم فكر وظن وشتان ما بينهما فان علوم الطائفة الأولى لا تردد فيها ولا وهم ولا غلط لأخذها من طريق محفوظ من ذلك وعلوم الطائفة الثانية كلها ظنون وغالبها أغلاط فالطائفة الأولى علومها كالشمس في رابعة النهار فانها لقوة نورها وكمال اشراقها لا يبقى معها خفاء في المدركات بوجه من الوجوه ولا يمكن لظلام أن يتسلط عليها وقت سلطانها أبداً والطائفة الثانية علومها كالضوء في الظلام فانه وان كان في الاشراق ما كان لا يقع به الظهور الذي يقع بالشمس مع امكان تسلط العوارض التي تزيله عليه كالريح وغيره فافهم وتأمل ولولا ضيق الكتاب لآتيننا من هذا بما ترتاح له الافكار وتنشرح به الأسرار ولكن الخير أمام وبالله التوفيق .

وأما أول من أسس الطريقة وهل كان تأسيسها بوحي الخ . فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين الحمدي إذ هي بلا شك مقام الاحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما بينها واحدا واحدا دينا فقال هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم فغاية ما تدعو اليه الطريقة وتشير اليه هو مقام الاحسان بعد تصحيح الاسلام والايمان ليحرز الداخل فيها والمدعو اليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لحرزها والقائم بها السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة والضامنة أيضا لحرزها كمال الدين فانه كما في الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة فمن أخل بمقام الاحسان الذي هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه ولهذا نص المحققون على وجوب الدخول في الطريقة وسلوك

طريق التصوف وجوباً عينياً واستدلوا على ذلك بما هو ظاهر عقلاً ونقلنا
ولسنا الآن بصدد بيان ذلك ، وقد بين القرآن العظيم من أحوال التصوف
والطريقة ما فيه الكفاية فتكلم على المراقبة والمحاسبة والتوبة والانابة
والذكر والفكر والمحبة والتوكل والرضى والتسليم والزهد والصبر والايثار
والصدق والمجاهدة ومخالفة النفس وتكلم على النفس اللوامة والامارة
والمطمئنة وعلى الأولياء والصالحين والصدّيقين والمؤيدين وغير هذا مما
تكلم فيه أهل التصوف والطريقة رضى الله عنهم .

وأما قولك هل لما أسست الطريقة الخ فجوابه يعلم ماقبله فانها إذا كانت
من الدين بل هي أشرف أركانه وكانت بوحى كما قلناه وكانت الصحابة بالحالة
التي بلغتنا عنهم تواترا من المسارعة إلى امتثال أمر الله كانوا بالضرورة أول
داخل فيها وعامل بمقتضاها وذائق لاسرارها وثمراتها ولهذا كانوا على غاية
ما يكون من الزهد فى الدنيا والمجاهدة لانفسهم ومحبة الله تعالى ورسوله
والدار الآخرة والصبر والايثار والرضى والتسليم وغير ذلك من الأخلاق
التي يحبها الله ورسوله وتوصل إلى قربهما وهي المعبر عنها بالتصوف والطريقة
وكما كانوا رضى الله عنهم على هذه الحالة الشريفة كان أتباعهم أيضاً عليها
وإن كانوا دونهم فيها وكذلك كان أتباع الأتباع وهلم جرا إلى أن ظهرت
البدع وتأخرت الأعمال وتنافس الناس فى الدنيا وحييت النفوس بعد موتها
فتأخرت بذلك أنوار القلوب ووقع ما وقع فى الدين ، وكادت الحقائق
تنقلب وكان ابتداء ذلك فى أواخر المائة الأولى من الهجرة ولم يزل ذلك
يزيد سنة بعد أخرى إلى أن وصل إلى حالة تخوف منها السلف الصالح على
الدين فانتدب عند ذلك العلماء لحفظ هذا الدين الشريف فقامت طائفة منهم
بحفظ مقام الاسلام وضبط فروعه وقواعده ، وقامت أخرى بحفظ مقام
الايمان وضبط أصوله وقواعده على ما كان عند سلفهم الصالح ، وقامت
أخرى بحفظ مقام الاحسان وضبط أعماله وأحواله فكان من الطائفة الأولى

الأئمة الأربعة وأتباعهم رضى الله عنهم وكان من الطائفة الثانية الأشعرى وأشياخه وأصحابه وكان من الثالثة الجنيد وأشياخه وأصحابه فعلى هذا ليس الجنيد هو المؤسس للطريقة لما ذكرناه من أنها بوحى إلهى وإنما نسبت إليه لتصديه لحفظ قواعدها وأصولها ودعائه للعمل بذلك عند ما ظهر التأخر عنها وبهذا السبب نفسه نسبت العقائد إلى الأشعرى والفقهاء إلى الأئمة الأربعة وغيرهم مع أن الجميع بوحى من الله تعالى .

وأما اذعان ابن عبد السلام للشاذلى فلما ذكرناه سابقا من اتساع علوم الأولياء رضى الله عنهم إلى حد لا يخطر على بال الفقيه ولا يطعم فى شم رائحته وكيف يشم رائحته أو يخطر على باله وهو من وراء ألف ألف حجاب وذلك أن الأولياء رضى الله عنهم يصلون إلى مقام يأخذون فيه العلم عن الله ورسوله بلا واسطة ولا يصلون إلى ذلك المقام حتى يقع لهم المرور على مقامات عليية ومراتب سامية كل مقام منها لوحده الفقيه ولو ساعة لرمى ما بيده من العلوم الرسمية إلا القرآن والسنة ورآها جهلا وبطالة بالنسبة لمسا رأى ولو كان أعلم عالم على وجه الأرض بل لو جمع إلى علمه علم جميع العلماء وإلى حكمته حكمة جميع الحكماء لرآى ذلك بالنسبة إلى ذلك المقام كالأشياء وهذا بالنسبة لمقامات مطلق الأولياء أما أقطابهم وكبرائهم كالشاذلى رضى الله عنه فإن عندهم ما يقف العقل عن التصديق به لولا تواتر وجود ذلك عندهم وإذا كانوا بهذه المثابة فكيف لا يخضع ابن عبد السلام وغيره للواحد منهم وعندهم من سر الله والمعرفة به ما لو ألقى على جبل لدك وصارهباء بل يصلون من هذه المقامات إلى مقام يستخرج أحدهم جميع العلوم الموجودة على وجه الأرض من أى حرف شاء من حروف القرآن حتى أنه لو انقطعت العلوم من الدنيا لوجدت عند الواحد منهم كما ينبغي وفوق ذلك لا فرق فيه بين العلوم النورانية والظلمانية والدينية والدنيوية من غير مراجعة كتاب ولا مدارسته مع أنوار وامرار تطوف على قلوبهم لو ظهر شئ منها

لحيوان هام ولتقعد لقام ولا عمى لا بصر في الظلام وتأمل قوله تعالى لو
 أنزلنا هذا القرآن على جبل الآية يظهر لك ما قلناه فلما عندهم من هذا
 وأمثاله مما لا يعرفه إلا هم رضى الله عنهم خضع ابن عبد السلام للشاذلى
 وغيره لغيره .

وأما ما عند ابن الحاج من أقسام الشيوخ الخمسة فإن الأربعة بعد الأول
 كل واحد منهم يفيد في التسليك والوصول إلى الله تعالى وإن كان بعضهم أعلى من
 بعض في ذلك أما الأول فأنما يفيد في التعليم الممزوج بنور تنبسط بسببه أشعة العلم
 على باطن التلميذ فتشيط جوارحه للعمل بذلك العلم الذى يتعلمه وبذلك
 يفارق غيره من العلماء المعلمين أما تسليكه للمريد وأخذه بيده ورفع الحجاب
 عنه حتى يقول للمريد ها أنت وربك فلا سبيل له إليها لأن هذه الحالة لا تكون
 إلا لمن سلك الطريقة على أيدي الأشياخ العارفين بالله تعالى أما من لم يسلك
 فلا مطمع له في التسليك والتربية ولو علم ما علم وعمل من الاعمال ما عمل
 سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ثم أكمل الشيوخ المذكورين عند ابن الحاج
 وهم المرئى والمرقى والحرفى والكامل هو المرئى إذا كان التلميذ قابلاً للتربية
 لجمعه في السلوك على يده بين الجذب والسلوك والبقاء والبقاء وذلك غاية
 ما يطلب من كمال السالك أما إذا كان المرید غير قابل للتربية لغلظ حجاب
 وكثافة حسه ورضاه عن نفسه كما هو الواقع في هذه الأوقات فلا يبعد أن
 يقال أن الاكمل هو المرقى لأخذه بيد المرید من غير تعب ولا مشقة ولكن
 قلما تسلم عاقبة المرئى بالترقية وأولى وأحرى بالحرفية والكامل مندرج في
 المرئى فلا يقال كيف وقع تركه وبالجملة هذا مقام يحتاج إلى بسط وطول
 كلام والمقصود الاقتصار على ما يتعلق بجواب ما سألت عنه على
 سبيل الاختصار .

ومنها فاما الأوراد والوظائف من الزرقية وحزب البحر وحزب النووى
 فأذكرها وواظب عليها باذن تام منا وإن وقع وحصل لك منها ملل في بعض

الأوقات فتركها حتى يعود اليك نشاطك لتذكرها باستحضار تام وتوجه عام لتجد بركتها ومرة ذكرها فإن الذكر من حيث هو لا ينتفع به صاحبه إلا إذا أقبل عليه بكيته وتوجه اليه بخالص قلبه وما يعتريك من الكسل عن العبادة في بعض الأوقات سببه برودة حرارة الروح وانقباضها عن الانتشار في أعضاء التعبد وموجب ذلك اما خوض فيما لا يعنى واما تناول ما فيه حرام أو شبهة واما تطعم إلى الدنيا وشهواتها وحب البقاء فيها فتدخل بسبب هذا ظلمة وبرودة على القلب فتتقبض حرارة الروح من أجلهما فيحصل الكسل والملل من العبادة وتميل الذات بطبيعتها إلى البطالة ودواء ذلك، ألا أن تلجىء إلى الله تعالى في الاسحار وتطلب منه أن ينقذك من وحشة الغفلة، الاعراض والادبار مع ملازمة الاستغفار، وثانياً أن تستحضر وقت ما يقع لك ذلك ما أنعم الله به عليك من النعم الجليلة التي لا سبب لك في تحصيلها كالايمان بالله تعالى الذي أتحفك به وحفظك لكتابه العزيز ومعرفتك بأحكام شريعة دينه مع ما أعطاك من السمع والبصر والعافية وغير ذلك من النعم التي لا تحصى وتشكره عليها في باطنك وترجوه أن يتحفك بجميع ما تحبه كما أتحفك بما ذكرناه وتدوم على هذا الاستحضار وعلى هذا الرجاء حتى يمتلئ قلبك من الفرح به سبحانه فاذا امتلاء من الفرح به امتلاءً بأثر ذلك بمحبته فاذا أحست الروح بمحبة الله في باطنك حييت باذن الله تعالى وانتشرت حرارتها في الذات كلها فترتحل بسبب ذلك تلك البرودة وتنعش الذات بطبيعتها عبادة الله تعالى فلا تشبع ولا تمل منها حتى أنه ربما تمر عليها الأوقات الكثيرة ولا يقع لها شعور بمقتضياتها من طلب الأكل والشرب والنوم والكلام وغير ذلك من أوصاف البشرية القاطعة للعباد عن وصول الأمداد إلا لاهية لقلبه ولا تزال الذات تترقى في هذا الحال من عبادة إلى عبادة ومن مفضول إلى فاضل ومن فاضل إلى أفضل حتى يستولى عليها النور ويحيط بها ظاهراً وباطناً فتتخلص العبودية بعد ذلك ولا يبقى للذات ميسل إلى شيء من الأكوان الظلمانية

والنورانية فاذا تمكنت في هذا المقام رفع الله عنها الحجاب في الحال وأشهدها من جلاله وجماله ما تقر به عينها وتثبت به سعادتها إلى أبد الأبد ثم يفاض عليها من مقامات الولاية والمعرفة به سبحانه ما يناسب قدرها وصدقها إلى آخر ما يقع للسائرين إلى الله جعلنا الله وإياك منهم بفضلهم وكرمه آمين قدم على هذا ثم إياك والالتفات إلى غير الله على أي حالة كنت .

وأما الشرط فإياك ثم إياك أن تتأخر عنه فإنه من أرفع العبادات وأشرف الحالات ويكفيك فيه أنك تظل يومك وليك تعلم كتاب الله لأولاد المسلمين وتدعوهم بسببه إلى توحيد الله تعالى وعبادة رب العالمين مع ما ينضم إلى ذلك من ملازمة بيت الله الذي قال الله تعالى فيمن يلازمه إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية وإقام الصلوات الخمس في أوقاتها والأذان لها خمس مرات في اليوم إلى غير هذا من العبادات التي لو ظفر الإنسان بواحدة منها لكففته يوم القيامة فكيف بها إذا اجتمعت.

وأما ما يقع للفقهاء الذين يقرئون الصبيان من عدم الالتفات إلى العبادة والتخلق بالأخلاق النبوية المحمدية فيس الشرط هو الذي أوجب لهم ذلك وإنما أوجبه لهم عدم تطلعهم إلى العبادة وعدم تشوقهم إلى معرفة الله ومعرفة أخلاق حبيبه صلى الله عليه وسلم إذ المعرفة بالله وبرسوله لا يناهها إلا من تشوق إليها وتطلبها وارتكب أسبابها التي أشرنا إليها سابقا والتي ألفت فيها القوم العارفون بالله كتبهم ورسائلهم ، وأما من يعبد الله تعالى ويتلو القرآن ولا همه له في معرفة الله ولا عنده ميل إليها كغالب أحوال المدرسين فهو لا يناهها ولو بقى على عبادته الدهر كله فاعرف هذا واعمل عليه والسلام .

ومنها وحديث البخاري لا إشكال فيه إذ لا يأتي الأشكال إلا لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية الشريفة على سبيل التلاوة وهو إنما أتى بها على سبيل الاستشهاد لما ذكره من حكم تلك المسألة والقرآن إذا استشهد به المستشهد لحكم من الأحكام أو أتى به تمثيلا لوعظ أو تذكرة لا يلزم أن

يؤتى به على وجهه من غير زيادة ولا نقصان لاتفاق السلف والخلف على جواز ذلك بالحذف والزيادة عند استعماله ويسمونه ضرب مثل وتمثيلا وربما سموه اقتباسا بحسب اختلاف المورد، وقد كثر ذلك في كلام النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين واتباعهم وهلم جرا، ولم ينكر احد منهم نقص حرف او زيادته اذا لم يقصد التلاوة وجرىء بالآية لما ذكرناه فما ورد من ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم مع نقص حرف من التلاوة قوله صلى الله عليه وسلم في حديث للترمذي اذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته وخلقه فزوجهوا لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير بحذف الهاء من تفعلوا مع أن التلاوة باثباتها ومما جاء عنه مع ابدال حرف من كلمة قوله صلى الله عليه وسلم من تكلم والامام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفارا مع أن التلاوة كمثل الى غير هذا مما يطول جلبه من الاحاديث أما ما ورد عن الصحابة من هذا فشيء يفوق الحصر وكذا ما ورد عن التابعين واتباعهم الى وقتنا هذا . وقد بسط هذه المسألة الحافظ السيوطي في كشف الالتباس عن جواز ضرب المثل من القرآن والاقتباس أو كما هو اسمها فانه غاب عنى اسمها وأشار الى شيء منها في آخر عقود الجمان نظما وشرحا وسبقه الى ذلك مع ايراد نصوص الائمة العارف ابن باخلا في شرح حزب البحر فانظر ذلك فيه اذا عرفت هذا ظهر لك انه لا اشكال في الحديث وانه يقرأ كما قلته من غير تبديل ولا زيادة واول لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد التلاوة وانما قصد تقرير ذلك الحكم السابق بالآية الشريفة .

ومنها واما رؤيا الشيخ أحمد خادم الحجرة وأمره بابلاغ تلك الوصية فلا يخفك أن رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق لا شك فيها وما يأمر به كذلك فان أمر بما هو متعلق بالدنيا من غير دخل في الدين فلا شك في قبول ذلك وتعين العمل به على الرائي ولا بد أن يجد ما أمره به صلى الله عليه وسلم وان أمر بما هو متعلق بالدين فان أمر بواجب او مندوب او ما يندرج تحتها

تعين قبوله والعمل به ودل امره بذلك على مصلحة تامة تعلقت بذلك المأمور به في الحال للرأى ولمن صدقه و اراد ان يعمل بعمله لأن امره صلى الله عليه وسلم بمثل هذا لا يهدر وان امر بما هو محظور في شرعه الشريف وجب تأويله وصرف الرؤيا عن ظاهرها لانه صلى الله عليه وسلم لا يأمر بغير الحق وبما يخالف الشرع الشريف اصلا هذا حكم ما يأمر به صلى الله عليه وسلم في الرؤيا لكل احد كائنا من كان اما رؤيا الشيخ احمد بالخصوص فانت تعلم أنه لا يقبل رواية احد في الدين الا اذا عرفت عينه وتحققت عدالته ، اما اذا جهلت عينه وعدالته كحال الشيخ احمد هذا فانه مجهول العين والعدالة فروايتيه مردودة اجماعا كما في كتب الاصول ووصيته ما وافق منها الشرع الشريف قبلناه لا لرؤياه بل لموافقته لما هو معروف من الشرع وما خالفه منها رددناه عليه وعلى غيره لان الدين قد تم وكل فلا يحتاج إلى رؤيا احد ولا وصيته هذا ما يتعلق بتلك الرؤيا في الحال على سبيل الاجمال والاختصار وان اردت بسط العبارة عليها وتتبعها كلمة فعرنا يصلك ذلك حالا ان شاء الله تعالى .

ومنها : اما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فاختلّفوا فيها اختلافا طويلا فقال ابن اسحاق في جماعة من اهل العلم ان الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كانت بغير امام ولا دعاء من الدعوات المعروفة في صلاة الجنائز وانما كان الصحابة رضی الله عنهم يدخلون افواجا افواجا فيقفون ويدعون ويصدقونه في رسالته ثم يخرجون وتدخل طائفة اخرى ثم تفعل كذلك وهكذا واستدل من قال هذا بأمرين اولهما ان الصلاة المشروعة في الجنائز إنما شرعت شفاعاة للميت وهو صلى الله عليه وسلم غنى عن شفاعاة غيره له ثانيها ان الله تعالى أخبر انه يصلى عليه وملائكته وطلب من المؤمنين ذلك ، قال السهيلي وهذا الطلب يشمل صلى الله عليه وسلم حياً وميتاً فالصلاة عليه إذاً انما كانت بان يقول كل واحد اللهم صل على سيدنا محمد الخ الصلاة

الابراهيمية ، ثم يدعو لنفسه ويصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في رسالته ثم ينصرف الى حال سبيله . وذهب الجمهور إلى أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كانت كالصلاة المعهودة في الجنائز . قال القاضي عياض والنووي وهو الصحيح الذي لا يلتفت إلى غيره ، لكن اتفقوا على أنها لم تكن بامام لقول سيدنا علي كرم الله وجهه كما رواه ابن سعد والبيهقي هو إمامكم حياً وميتاً ، فلا يقدم عليه واحد ، وكذلك اتفقوا على أنهم لم يدعوا حال صلاتهم بدعاء الجنائز ، وإنما كانوا يقولون كما رواه ابن سعد والبيهقي أيضاً « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله ، اللهم إنا نشهدك أن سيدنا محمداً قد بلغ ما أنزل عليه ونصح لأمته وجاهد في سبيلك حتى أعز الله كلمته ، فاجعلنا تتبع ما أنزل إليه وثبتنا بعده ، واجمع بيننا وبينه » ثم يقولون « آمين » يفعل هذا كل واحد منفرداً بعد كل تكبيرة من التكبيرات الأربع ، والحال أنهم صفوف صفوف كما قدمنا ، هذا هو الصحيح في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما الخرطال فالذي يظهر من مذهبنا ومذهب الشافعية أنه لا زكاة فيه لأنهم وإن عللوا ما فيه الزكاة بالاقتيات والادخار ، فقد اشترطوا فيه أن يكون اقتياته معروفاً عند الخاصة والعامة ولو في بلد المقتات . أما ما كان مختلفاً فيه هل هو مقتات أم لا فهذا فالذي ينبغي الجزم به عدم الزكاة فيه ، ولهذا اتفق شراح المختصر ومحشوه على تخصيص الزكاة بالأنواع العشرين المعروفة للاتفاق على وجود الاقتيات بها وأخرجوا كرسنة من الأنواع العشرين ، وقالوا إنها إلى العلف أقرب . واختلفوا في التين . والمشهور عدم الزكاة فيه مع أن الاقتيات فيه محقق بلا شك ، حتى قال الشيخ الرهوني في حواشيه على كبير ميسرة . إن القول بالزكاة فيه هو الذي ينبغي التعويل عليه ، بل قال لو كان عنده

منه نصاب زكاه ، ومع هذا لم يلتفتوا إلى قوله لأجل ما وقع فيه من الخلاف وهل هو مما يقتات أولاً ، وإذا كان هذا في التين المشاهد اقتياته عند القبائل الجبلية ، فماذا يقال في الخرطال الذي لم يصل اقتياته إلى درجة الشك فضلاً عن الظن فضلاً عن التحقيق والقطع . وبالجملة فالذي تحصل لنا من مراجعة كتب المذهب هو عدم الزكاة في الخرطال فتيقن هذا وكن منه على بال . نعم على مذهب الحنفية الذين لا يشترطون اقتياتاً ولا ادخاراً ، بل ولا نصاباً ففيه الزكاة ولا إشكال . ولولا خشية الطول لذكرنا دليلاً ودليلنا ومع من الحق في ذلك .

ومنها وما يذبح على ضرائح الأولياء حسبما جرت به عادة المسلمين في هذه الأعصار وقبلها لا يخلو حال ذابحه إما أن يعتقد أن الولي المذبوح عليه يضر وينفع بذاته ، وهذا حكمه حرمة أكل ذبيحته لكونه كافراً باعتقاده أن الله شريكاً يضر وينفع ، وإما أن يعتقد أن الولي لا ينفع ولا يضر بذاته ، ولكن جعل الله فيه قوة بها يضر وينفع ، وحكم هذا كراهة أكل ذبيحته وهو فاسق باعتقاده التأثير بالقوة المودعة في المؤثر . وإما أن يعتقد أن الولي لا يضر ولا ينفع لا بذاته ولا بقوة مودعة فيه ، ولكن جرت عادة الله بقضاء الحوائج عند الذبح والتعلق بالأولياء ، وهذا حكمه جواز أكل ذبيحته من غير كراهة ، فإن جهل حال الذابح ولم يعرف من أي قسم هو حمل على القسم الجائر إن كان الغالب على أهل البلد معرفة النوحيد ومخالطة أهله ، أو كان فيهم الموحد وغيره فالورع ترك أكل الذبيحة ، هذا هو الذي يؤخذ من شراح المختصر ، وشرح الزياتي على ذكاة خاله ، ونصوص كل قسم من هذه الأقسام موجودة فتأمل هذا ، والنظر ما هو واقع الآن بهذه البلدة من أي قسم من هذه الأقسام هو يظهر لك حكمه والسلام .

ومنها وحديث « لا يبطل حق امرئ مسلم وإن قدم » معناه أن حق المسلم لا يضيع بقدمه . فمن كان له مثلاً حق على شخص بحجة ثابتة

شرعا وسكت عن طلبه المدة الطويلة كالثلاثين والأربعين سنة ثم قام يطلبه فإنه يستحقه ولا يهدر حقه بسكوته عن طلبه المدة المذكورة وأما رتبته من الصحة والحسن والضعف ومن خرج من المحدثين فأنى أعرف أن الخطاب ذكره آخر الشهادات من شرحه على المختصر ناقلا له عن ابن رشد ولم يعزه لأحد ولا تكلم على رتبته وكذلك فعل من نقله عنه كالزرقاني بالمحل المذكور والشيخ الزهوني في حواشيه عليه والشيخ التاودي صدر البيوع من شرحه على التحفة والشيخ التسولي وجميعهم يسلم الاستدلال به على المعنى الذى قررناه أما فى كتب الحديث فلم يوجد له أثر ولا ذكر فيما رأيناه منها ومنها وحديث ليس منام من لم يتعاضم بالعلم ذكره ابن الحاج فى حواشيه على المكودى حديثا وتبعه على ذلك سيدى المهدي الوزانى فى حواشيه على الاستمارة وغيرها من حواشيه وأولا ظاهره المقتضى لطلب التعاضم بالعلم وهما تبعا فى ذلك الطرنباطى فى حواشيه على الخلاصة وثلاثتهم لم يعزوه لكتاب من الكتب الحديثية على عادتهم فى ذكر ما يستدلون به من الأحاديث أما كتب السنة المسندة التى هى عمدة كتب السنة فلا يوجد فى شىء منها .

ومنها وقد تعجبت من بيع من باع شرح اللقانى الكبير والأجهورى على المختصر مع ما هو مكتوب عليهما من الوقف فى غالب الأوراق وإن كان ذلك لا يضر شرعاً لما نص عليه البرزلى من أن كتابة لفظ الوقف على كتاب من غير اشهاد لا يمنع من بيعه وتملكه ونقله عنه جماعة من المتأخرين وسلموه كابن هلال والسجلماسى فى عمله المطلق وشرحه والحمد لله على خلاف العلماء فإنه رحمة ومثل ما قاله البرزلى للحنفية فإن الوقف عندهم لا يثبت حتى يحكم به الحاكم .

ومنها أما الحديث الذى أخبركم به ذلك المخبر فهو بلا شك مختلق موضوع ومخترع مصنوع ليس عليه أثر من طلاوة النبوة ولا هيمنة من حلالة الرسالة

لفظه في غاية الزكاة ومعناه بلغ الغاية في الساجدة وقد عد علماء الحديث من علامة وضعه ركاة لفظه وبرودة معناه بحيث إذا سمعه السامع لا يخضع له سره ولا يقبله عقله ولهذا قال ابن الجوزي إن الحديث المنكر إذا سمعه الطالب يقشع منه جلده وينقر منه قلبه وقال الربيع بن خثيم إن للحديث ضوء كضوء النهار ولغيره ظلمة كظلمة الليل نعم معناه صحيح بلا إشكال فقد ورد في هذه العجائب العصرية من الأحاديث ما لا يدخل تحت حصر منها ما هو صحيح وحسن . ومنها ما هو ضعيف إلا أنه منجبر بكثرة شواهده ومتابعته فصار من المقبول المستحسن فما من شيء من هذه المخترعات العصرية الا ويوجد حديث يشير إليها إما بصراحته واما بتضمنه والتزامه فصلى الله على هذا الرسول العظيم الذي أخبره الله بما كان وما يكون وأطلعه على ما لم يطلع عليه غيره من السر المكنون .

قلت والحديث المذكور سألت عنه من أرسل إليه الشيخ هذا الجواب فكتب إلي بأنه كان بوجدة فاجتمع بها بعض علماء الجزائر وتذاكرا في المخترعات الوقتية فأورد ذلك العالم حديثاً مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا نطق الحديد وقرب البعيد فالامر قريب غير بعيد وهو حديث موضوع كما قال الشيخ رضى الله عنه ومثله حديث افتراه بعض علماء الأزهر وادعى أنه في صحيح البخارى وهو ما نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أنه قال إنكم ستجيئون أو ستفدون إلى المدينة على صفائح من حديد وفولاذ .

أما ما أشار إليه الشيخ من ورود الأحاديث بالإشارة إلى المخترعات العصرية فقد يستغرب القارىء ذلك ويتشوف إلى الوقوف عليها فليعلم أن الأحاديث بذلك على قسمين قسم اجمالى وقسم تفصيلي ووردت الإشارة اليها في القرآن العظيم .

أما الاجمالي فروى الطبراني من حديث سمرة قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها وتزول الأمور العظام التي لم تكرر نوا ترونها في هذا الحديث إشارة إلى سكة الحديد التي تزال الجبال من أماكنها في سائر البلاد الجبلية التي تمد فيها شرائطها وأشار بقوله وتزول الأمور العظام التي لم تكرر نوا ترونها إلى سائر المخترعات الغربية من أو طمبلات ووابورات وطائرات وغواصات وتليفون وتلغراف ورايو وكهرباء وغير ذلك مما حدث أو سيحدث بعد .

ومن أعجب العجب أن كثيراً من الناس بالشرق والمغرب سألتني مراراً هل ورد في الحديث النبوي ما يشير إلى هذه المخترعات العجيبة المدهشة فأجيبهم بما ورد في ذلك وشرعت في كتابة تأليف فيه لم يبيض بعدهم وجدت في الحديث إخباره صلى الله عليه وسلم بتساؤلهم هذا أيضاً عن هذه العجائب وهو قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البزار والطبراني في حديث سمرة المذكور سترون قبل أن تقوم الساعة أشياء ستذكرونها عظاماً تقولون هل كنا حدثنا بهذا فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله تعالى واعلموا أنها أوائل الساعة حتى قال سوف تزول جبالاً تزول قبل حق الصيحة الحديث فصلى الله على هذا الرسول العظيم والنبي الكريم المؤيد بالمعجزات الظاهرة والخوارق الباهرة .

وأما التفصيل فالطائرات اليوم على نوعين نوع خاص للتجارة والبريد وركوب التجار والسواح ونوع خاص للحرب ورمي القنابل .
أما طائرات النقل والتجارة فقد روى ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى لا تنطرح ذات قرن جاء وحتى يبعث الغلام الشيخ بريداً بين الأفقين وحتى يبلغ التاجر بين الأفقين فلا يجد ربحاً .

وفي رواية لا تقوم الساعة حتى يكون السلام على المعرفة وحتى تتخذ المساجد طرقاً فلا يسجد لله فيها وحتى يبعث الغلام الشيخ بريداً بين الأفقين

وحتى يبلغ التاجر بين الأفقيين فلا يجد ربحاً رواها الطبراني وأصل الحديث في مسند أحمد فإرسال الغلام الشيخ بريداً بين الأفقيين وبلوغ التاجر بين الأفقيين إنما هو بالطائرة وهو واقع بكثرة فإن غالب التجار اليوم ينتقلون في حركات التجارة بالطائرات ومنهم من لا يربح شيئاً كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وأما الطائرات الحربية ففي قواه تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم الآية إشارة إلى الطائرات الحربية والغواصات بل هي ظاهرة في ذلك لا سيما وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في تفسيرها أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد رواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص بل مع هذا الحديث يجزم بأن الآية واردة في هذا لا في غيره مما ذكره المفسرون وهي أيضاً شاملة للغام التي تزرع في الأرض وتنفجر من تحت الأرجل .

وكذلك قول الله تعالى (والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً فالفرقات فرقا فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً إنما توعدون لواقع) فإنه وصف للطائرات الحربية بجميع حركاتها وأفعالها تعصف بقنابلها وهي تحتمل معنيين في اللغة تترك الناس كعصف ما كول وتميل أحياناً عن هدفها وهذا معنى العصف في اللغة وتنشر المنشورات في ميادين القتال على الجنود وفي المدن على الأهالي والسكان بالدعاية والأخبار عن الحقائق التي تسترها عنهم حكومتهم كما هو الواقع اليوم وتفرق بين الجموع والكتائب فرقا لأن الرعب بها والهزيمة أشد من غيرها بحيث لا يثبت تحتها فرد ولا جمع بل بمجرد رؤيتها يقع الفرار والتخفي تحت الكهوف والملاجئ وتلقى ذكراً في المنشورات عذراً أو نذراً تنذر وتخوف وتهدد وتوعد وربما اعتذرت عن بعض ضربها للاما كن البريئة كما هو واقع ومشاهد وربما أرسلتها بين يدي هجومها وضربها انذاراً وطلباً للخضوع .

وأما السيارات على اختلاف أنواعها فوردت فيها أحاديث كثيرة مصرحة

وملوحه فمن الأحاديث المصرحة ما رواه أبو يعلى بسند صحيح من حديث
أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم
الساعة حتى يقترب الزمان وتكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة
والجمعة كالיום واليوم كاحتراق الحزمة فهذا حال السيارات وقدر
طبيها للمسافات .

وورد في بعض الأحاديث الأخبار بتقارب الأسواق وذلك بسبب
السيارات أيضاً وان فهم العلماء أن ذلك بكثرتها وقرب بعضها من بعض والواقع
خلاف ذلك لأنهم لم يكن في زمانهم سيارات حتى يحملوا الأحاديث عليها كما
هو الواجب لان الأسواق لم تكثر عما كانت عليه كثرة يقرب بعضها من
بعض بل لم تكثر أصلاً ولا تزال كما كانت وإنما قربت بسبب السيارات

ففى صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ينزل ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرن الصديب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية
ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها والقلاص الجمال وإنما يترك السعى عليها
استغناء عنها بالسيارات وقد ظهر أثر ذلك في الحجاز فانه مع عدم تعبيد
الطريق لسير السيارات وكون السفر فيها لا يزال متعباً ومعرضاً للخطر
بانكسارها في الرمال والاحجار لم يبق أحد يركب القلاص إلا القليل
ومن لا يستطيع دفع ثمن السفر فيها فاذا ما عبدت الطرق وسهل السفر فيها
ورخص ثمنه فان السعى على القلاص يترك تماماً في الحجاز كما ترك في غيره
طبقاً لما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

ويشير الى هذا أيضاً قول الله تعالى وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم في الفلك
المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون فان مثل الفلك المشحون الذى يركبه
هو السيارات وبابور السكة الحديد لا الجمال كما يقوله المفسرون المعذورون
لعدم وجود ذلك في أزمانهم .

ومن الأحاديث المشيرة إلى ذلك حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة وفي لفظ الحاجة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وحتى يخرج الرجل بماله إلى طرف الأرض فيرجع فيقول لم أربح شيئاً رواه أحمد والحاكم واللفظ له . وعند أحمد وابن نعيم في التاريخ من حديث عمرو بن تغلب نحوه فما فشت التجارة حتى دخل فيها النساء بكثرة وصرن يعن أزواجهن فيها إلا بظهور الوابور والسيارات كما هو مشاهد الآن في تنقل النسوة بالبضائع من مأكولات وملبوسات من مدن إلى أخرى لسهولة ذلك عليهن مع ركوب السيارات والوابور الحديدي ولم تكن نرى ذلك منهن أيام كان التنقل على البهايم ولا كان يخطر ببال امرأة أن تسافر في تجارة مسافة نصف يوم فضلاً عن يومين وثلاثة وهكذا صار يخرج الرجل إلى أطراف الأرض فلا يربح شيئاً لكثرة انتشار البضائع ووجودها في كل الأماكن بواسطة السيارات بخلاف ما قبل ذلك .

وقال الديلمي في مسند الفردوس أخبرنا أبي أخبرنا أبو الحسين بن النقوم أخبرنا الكنانى حدثنا يعقوب بن ابراهيم البزار حدثنا علي بن مسلم ثنا ابن ابي فديك عن عبد الله بن ابي يحيى عن سعيد بن ابي هند عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة إلى الشام يبتغون فيها الصحة ، فهذا لم يقع الا في زمن وصول وابور السكة الحديد من الشام إلى المدينة المنورة فانه كان كثير من أهلها ينزلون إلى الشام ابتغاء الصحة والصحة وهكذا يعود ذلك ان عاد وصولها أما بدونها فلا يتصور الخروج من المدينة إلى الشام ابتغاء الصحة مع وجود التعب العظيم ومقاساة أنواع العذاب من حر وبرد وعطش وجوع وألم بسبب ركوب ظهور الجبال ما يقرب من شهر ذهاباً ومثله إياباً لأجل ابتغاء الصحة بل ما كان يتوجه إليه في الحاجة اللازمة إلا أصحاب الضرورة الأقوياء في ابدانهم الذين هم غير محتاجين إلى صحة كالنجار الضارين في الأرض من البدو الذين اعتادوا ذلك .

وأما الراديو والتليفون فيشير اليهما قول الله تعالى ويقذفون بالغيب من من مكان بعيد بل هي ظاهرة فيهما ويشير إلى إذاعة المقالات العلمية في الراديو الخبر الآتي في المطابع .

فقد قال الدارسي في سننه أخبرنا محمد بن مالك عن حجاج بن محمد عن ليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية يرفع الحديث ان الله قال أثبت العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير فاذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحتى عليهم .

ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة أبي الزاهرية من رواية ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية به إلا أنه قال بلغني في بعض الكتب فذكر مثله وانتشار العلم قد حصل بسبب ظهور المطابع التي كثرت الكتب بطبعها وصارت تدخل في يد الناس كافة إلا أن الحديث يفيد أن الراديو سيزيد انتشاراً في العالم حتى يمتلكه كل غني وفقير ويوجد في أغلب البيوت وانها ستكون المحاضرات العلمية فيه حتى يعلم ذلك من طريقه النساء في البيوت والخدم والعميد وغيرهم فيقع ما أخبر الله تعالى به نسأل الله اللطف والسلامة والمغفرة بمنه .

«فائدة» ستخترع في المستقبل أمور أخرى لم تظهر بعد منها أحذية ونعال فيها آلات فوتوغرافية أو نحوها يرسم فيها كل ما يقابلها أو فونوغرافية ينحس فيها كل صوت قريب منها وكذلك سيأخذ بهذه المثابة تستعمل في الجاسوسية وتوضع أمام من لم يشعر بها ينطق ويتكلم أو يفعل ما يريد وكل ذلك يرسم وينحس في ذلك الحذاء أو السوط فيكون مخبراً به وشاهداً عليه ويتركه الرجل في بيته بين أهله فاذا رجع أخبره بجميع ما فعلوه هكذا وردت به السنة وهو وإن لم يظهر بعد فقد ظهرت بعض انواعه .

فصل

ومن رسائله الى الفقراء رسالة الى أهل طنجة أرسلها اليهم في سفرة سافرها ونصها : اخواننا في الله وأحبائنا فيه السادات الاجلة البدور الأهله الذاكرون الله بالزاوية الدرقاوية من الحضرة الطنجاوية صغيراً وكبيراً السلام عليكم ورحمة الله ما قامت الأشياء بالله أما بعد فوجه السؤال عنكم وعن كافة احوالكم أجراها المولى على وفق آمالكم وإن تفضلتم بالسؤال عن عبدكم ومحبتكم فإنه لا بأس عليه الا ما يجده من ألم فراقكم والبعد عنكم نطلب الله أن يجمعنا معكم قريباً غير بعيد هذا واعلموا رحمكم الله أن الانسان إذا كان ممثلاً لأمر الله مجتنباً لنهيه بظاهره وباطنه متحققاً مع ذلك في الظاهر بالعبودية التي هي الذل والفقر والضعف والمسكنة وعدم الانتصار للنفس ومتحققاً في الباطن بالحرية التي هي الحلم والكرم والصدق والمحبة والثقة بالله وحسن الظن به والرضى والابثار والزهد والاكتفاء بالله وغير ذلك من أخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الانسان لا محالة عارفاً بالله مستغرقاً في شهود عظمة الله لا يعرف غير الله ولا يميل لسواد رفض في الله كل شيء وخلصه الله من كل شيء فهو أبداً يهيم في الله ويتلذذ بمشاهدة قدسه وسناه ليس له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار لا يفرح بشيء سوى الله ولا يحزن على شيء أزال الحق سبحانه عنه الحجب والاستار وأكرمه بالمعارف والاسرار فانها عن وجوده باقياً بشهوده ذاته مع الخلق وقلبه مع الحق يأخذ من كل شيء ولا يأخذ منه شيء يتقرب الى الله بكل شيء ولا يحجبه عن الله شيء حركاته وسكناته كلها لله وبالله ، ليس للشيطان عليه من سبيل لأنه عبد الله ، ومن كان عبد الله تولاه الله ، ومن تولاه كفاه إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فما حجب القلوب عن علام الغيوب إلا عدم العبودية ، فلو وجدت لوجد الخير كله ،

وحيث فقدت فقد الخير كله ، فما اتصف أحد بما ذكرنا إلا وكان من الأولياء الكاملين لأنه تخلق بسنة سيد المرسلين ، ولا اتصف بأضدادها إلا وكان من الشياطين ، ولو كان عند الناس من الصالحين وأنتم يا إخواننا لكم إن شاء الله المعرفة الكبيرة والولاية العظيمة بحسب ما لكم من الصدق في العبودية التي هي سبب للعلوم الالهية ، فأتم في الزيادة بفضل الله شعرتم بذلك أم لا . وستعرفون ذلك ، ولا بد لكل واحد منكم أن يكون منه ما يكون إن ثبت في باب الله وفي صحبتنا ، إذ بالثبات مع بعضنا يكون لنا ولكم ما كان لمن قبلنا من أولياء الله تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين . المرء على دين خليله فأنتبوا ولا بد ولا بد في إخلاص العبودية لله ، ولا تلتفتوا لشيء من الأشياء ، ففي الله كفاية ، وارتكبوا شرائع الطريق لتلوح عليكم أنوار المعارف والتحقيق ، وتأدبوا بأداب الأولياء لتكونوا من المخصوصين الاصفياء ، فبالآداب تفتح الابواب ، وبارتكاب الشروط يذوق المشروط واستمعوا ما أقوله لكم وأفهموه واعملوا به فانكم في الحين تعرفون ربكم وتصلون إلى مناكم ، وهو أنى أحبكم ان يكون لكم القصد الصحيح والصدق الصريح والآداب المرضية والاحوال الزكية وحفظ الحرمة وحسن الخدمة ورفع الهمة ونفوذ العزيمة وخلع العذار والذل والانكسار والبذل والايثار وصحبة العارفين الاخيار وبذل المجهود في الطاعة والاذكار . أما القصد الصحيح فالمراد به ان تكون نيةكم في صحبتنا تحقيق العبودية ومعرفة الحق سبحانه لا طلب كرامات ، ولا إدراك درجات ، إذ ذلك حاصل على كل حال . وأما الصدق فالمراد به ان تصدقوا بسر الخصوصية والولاية وتجزموا بما لاهلها من المعارف الالهية وتعتقدوا ذلك في شيخكم والصدق بهذه الكيفية هو أساس الوصول ، فكل من صدق وصل وذاق ومن لا فلا ولو بقى مع الشيخ سنين لان الشيوخ لا ينظرون فيمن لا يعتقدهم سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وبهذا الصدق يغترف المرید من بحر المعارف ولو

كان ضعيفاً عن المجاهدة ، ولولا ضيق القرطاس لذكرنا لكم من فضل هذا المقام ما تحير فيه الألباب . وأما الآداب المرضية فالمراد بها حفظ الجوارح من المخالفة والبواطن من الاعتراض والتدبير والاختيار والمحافظة على السنن النبوية ومحبة الاخوان وتعظيم الشيوخ .

وأما الأحوال الزكية فالمراد بها خرق عوائد النفس وتخريب ظاهرها أكلاً وشرباً وملبساً والسعى فيما يزيل جاهها ورياستها ، فكل من خالفها وخرق عوائدها بهذه الكيفية خرقت له العوائد وأكرمه الله بالعلوم والفوائد كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد مع كفا الأذى عن الناس وحمل الأذى منهم .

وأما حفظ الحرمة فالمراد بها حرمة الشيخ حاضرًا وغائبًا حياً وميتاً فلا يجلس الفقير في موضع يهان فيه شيخه ، وكذلك حفظ حرمة الاخوان بأن يحمل أذاهم ويكف أذاه عنهم ويكرمهم الله ويعظمهم الله ، وكذلك حرمة المسلمين فلا يذكرهم بسوء .

وأما حسن الخدمة فالمراد بها خدمة الشيخ والاخوان ومجاهدة النفس لله .

وأما رفع الهمة فالمراد بها أن يكون القصد معرفة الله والتمتع بمشاهدته مع الاعتماد عليه والفرار من كل شيء إليه .

وأما نفوذ العزيمة فالمراد بها أن لا يعمل ولا يكسل ، ولا يلتفت إلى شياطين الجن والانس ، بل يدوم على سيره حتى يصل لربه .

وأما خلع العذار فالمراد به أن يخلع الأوصاف المذمومة ، كالكبر والحرص على الدنيا ، ويتجلى بالأوصاف الحمودة ، كالحب والشوق والزهد ، ويخلع لباس العز والاستكبار ويلبس لباس الذل والانكسار .

وأما الذل والانكسار فالمراد به الخضوع لله سبحانه ولا يظهر ذلك إلا

بالخضوع لعباده .

وأما البذل والايثار فالمراد به الجود بالنفس والمال محبة في ذى العظمة والجلال ، والجود شرط في الطريق أقبح من كل قبيح صوفي شحيح .
 وأما صحبة العارفين فالمراد بها سلب الارادة لهم ، وصحبتهم وخدمتهم لله ، وهو القطب في الطريق ، وليست المعرفة بالعزلة إنما المعرفة بالصحة .
 وأما بذل المجهود في الطاعات والأذكار فالمراد به ألا تمر عليه ساعة إلا وهى فى طاعة الله ، وهذا هو المقصود من الطريق ، والأهم عند أهل التحقيق ، فكل ساعة مرت على الفقير لم يذكر الله فيها كانت عليه حسرة وندامة . فأوقات الفقير دائرة بين ذكر ومذاكرة وفكرة ونظرة ومن خلا وقته من هذا فهو فى بطلالة وفترة ليس له من الطريق إلا الاسم ، لا يذوق للولاية طعماً ولا يجد لايمانه حلاوة ولا لعلمه فهما فهذه شرائع الطريق وشروطها ، فكل من عمل بما ذكرنا نال المعرفة الكبرى ، إذ ما ذكرنا هو لب الشريعة المطهرة فتعلموا بما ذكرنا لكم ولا بد ، واستعينوا على ذلك بالله فانكم عن قريب تصلون إلى مقام تأخذون فيه العلم عن الله وتزول عنكم اوصاف البشرية ، وتحبى لكم اوصاف الروحانية وبحياتها تصلون للحضرة القدسية ولا تحجبون عنها بشئ من الأشياء ويصير الغيب الشهادة عندكم سواء ، ومن لم يسلك كما ذكرنا غابت بشريته على روحانيته فانطمست بصيرته وحجبت بالأكوان عن المكون نخسرت ضفقتة وضاعت حياته ، فاذكروا الله ولا بد واثبتوا فى باب الله واجتمعوا على ذكر الله وتواصلوا وتزاوروا ، واعلموا أن أمركم عند الله عظيم وقدركم جسيم ولا بد ان يجدد الله بكم هذا الدين فاثبتوا ولا بد ولا بد والسلام .

ومنها: إلى إخواننا فى الله وأحبائنا فيه كافة فقراء العرائش حفظكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى . أما بعد: فأحبكم أحبكم الله ورسوله ان تقوموا بالوظائف الدينية

القلبية والقلالية ففيها السعادة الآخروية والراحة الأبدية . فمن
الوظائف النطق بالشهادتين مع اعتقاد معناهما الذي هو ثبوت الوجدانية لله
ذاتا وصفة وفعلا وثبوت رسالة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم
مع تصديقه فيما جاء به عن الله واتباع أوامره ونواهيه . فمنها وهو
أهمها بعد الشهادتين أداء الصلوات الخمس في أوقاتها المعينة لها مع
إيقاعها في الجماعة والالتيان بجميع شروطها من الطهارة الكبرى والصغرى
واستقبال القبلة وستر العورة واتقان الوضوء باتقان الاستبراء الذي هو
استفراغ ما في المخلين من الأذى مع الاستجمار بالأحجار إن أمكن والغسل
بالماء بعده والالتيان بجميع الفرائض والسنن والمستحبات ، ولا بد مع هذا
من المحافظة على النوافل ، كالوتر والفجر والضحى والرواتب القبلية والبعدية .
ومنها الزكاة فأدوها إن وجبت عليكم ولا بد ولا بد فانها طهارة
وبركة وسبب للغنى ، واحفظوا مع هذا جوارحكم التي هي الأذن والعين
واللسان والبطن واليد والفرج والرجل من المنهيات ، فلا تسمعوا إلا الوعظ
والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا تنظروا إلى ما لا يحل
لكم من النساء والصبيان والأمتعة ، واحفظوا ألسنتكم من الكذب والغيبة
والنميمة والزور والبهتان وأيديكم من اذابة الناس في أبدانهم وأموالهم
وبطونكم من الحرام وفروجكم من مماسة ما لا يحل لكم وأرجلكم من
المشى في غير طاعة الله وقلوبكم من العجب والكبر والرياء والحسد والبغض
والغل والحقد والغش والخديعة والمداهنة وحب الرياسة والتقدم وحب
المدح وخوف الذم والاهتمام بالرزق والخوف من الخلق ، وتفكروا في
مصنوعات الله واستحضروا اطلاعه عليكم في جميع الحالات ولا تستعظموا
هذا فانه سهل ان استعنتم عليه بالله . ثم المؤكد به عليكم الاجتماع لذكر الله
وقت فراغكم من الأشغال ، وخصوصا فيما بين المغرب والعشاء ، وفيما بين

صلاة الصبح وطلوع الشمس ففي ذكر الله في هذين الوقتين من الفضل والثواب شيء عظيم ، وتزاوروا في الله وتحابوا فيه ، وواسوا محتاجكم ، وصلوا أرحامكم ، وعودوا مرضاكم ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، واحتملوا أذى من آذاكم ، ولا تجالسوا من يقطعكم عن ذكر الله ولا تخالطوه فإنه يميمت قلوبكم وفي موتها فساد الدين وضعف اليقين ، وفي ذكر الله ذكره ورضاه ومجالسته وطمانينة القلب وفي الاجتماع عليه رياض الجنة وغشيان الرحمة ونزول السكينة وحفوف الملائكة حسبما وردت به الأخبار وصحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الآثار ، وإياكم والانصات لمن يعدلكم أو يلومكم فإنه شيطان مارد ومطرود شارد ، ولا تسيئوا لأحد من عباد الله ولا تخافوه ولا ترجوه فإن الأمور كلها بيد الله ، لا يملك أحد لأحد منها ضراً ولا نفعاً ، ولا خفضاً ولا رفعا ، وصونوا قلوبكم من الطمع في الخلق فإنه الفقر الحاضر والذل الظاهر ، واعلموا أنكم ان فعلتم هذا ثبتت خصوصيتكم ونلتم مطلوبكم من ربكم ، أعانكم الله وقواكم ومن نزغات الشيطان حفظكم ووقاكم والسلام .

ومنها : الى كافة اخواننا في الله السادات الفقراء العارفين الكبراء أهل الزاوية الأيوبية من الحضرة الفاسية دفع الله عنها كل فتنة وبلية امنكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى .

أما بعد تجديد العهد بمحبتكم والسؤال عن أحوالكم والتماس صالح أدعيتكم فاني أعلمكم أنه ما قامت الطريق ولا حصل طالبوها على التحقيق إلا بدوام الاجتماع مع أهلها والمذاكرة في شروطها والعمل بمطالباتها ولا بطل أمرها وحرم منها طالبوها إلا بالاعراض عن أهلها وعدم العمل بشروطها فاجتهدوا وفقكم الله تعالى في القيام بشرائع الدين ، والتخلق بأخلاق سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، واجتنبوا ما يبعدكم عن الله من ارتكاب المناهي الشرعية ، وارتكبوا دائماً ما يقربكم إلى الله من النوافل على اختلاف

أنواعها بعد أداء الفرائض العينية والزموا طهارة الثياب والبدن والمكان والوضوء دائماً وصلاة ركعتين بعده فإن لها سرّاً خاصاً في تنوير الباطن ونفي الخواطر الرديئة عنه ، وكذلك الزموا تحية المسجد والزاوية وصلاة الضحى وأقفاها ركعتان ، وأكثرها ثمان ركعات وقيام آخر الليل والدعاء عقب الصلوات ، وفي وقت السحر وخصوصاً إن وجدتم رقعة ونشاطاً فيه فإن ذلك من علامة الاستجابة ، ولا تخلصوا أنفسكم بالدعاء ، بل عمموا ليكون أنجح وأقرب للإجابة ، وواظبوا على حلقة الذكر صباحاً ومساءً إن أمكنكم ذلك وإلا ففي يوم الجمعة وليلتها وليلة الاثنين فإن لها بركة وأثراً عظيماً في التخلي والتخلي ويكفيكم نزول السكينة عليها وغشيان رحمة الله لأهلها وغفران ذنوبهم ورفع درجاتهم كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة الشريفة ، ولا تهولوا من إذابة الخلق ، ولا تكرهوا ما نزل بكم من الفاقات والأمراض فإن ذلك سيعود على من ينزل به بالخير والفضل والبركة إن صبر ورضى ورجع إلى الله وترك تدبيره واختياره وفر من حوله وقوته إلى حول الله وقوته ، والزموا الصمت إلا عن ذكر الله أو امر بمعروف أو نهى عن منكر أو إصلاح بين الناس أو مذاكرة في علم أو عمل ، واتركوا ما لا يأتي بخير من الأقوال والأفعال ، واجتنبوا الكذب والغيبة والنميمة والتجسس على عيوب الناس ، وارقبوا الله في سركم وعلانيتكم واستحضروا دائماً اطلاعه عليكم ، وتحققوا أن ناصية لكم وناصية الأكوان كلها بيد الله سبحانه ، يصرفها كيف يشاء فيما يشاء لا فعل لأحد معه سبحانه ، ولا تشتغلوا بأمر الوقت وما هو جار فيه فإن ذلك ي تلف قلوبكم ويصدها عن ذكر الله وعبوديته ، وبعد ذلك لا يكون إلا مراده سبحانه واقنعوا من الدنيا بما تيسر من غير كلفة ولا تعب ولا مزاحمة ، ولا تعلق بمخلوق تعلقاً يؤدي إلى رؤيته ونسيان الله تعالى لأن ذلك نوع من أنواع الشرك ، ولا تتناولوا من المأكل والشروب والملبوس إلا ما تقوم به البنية ويقع إليه الاحتياج من

غير إسراف ولا مبالغة فان من أخذ فوق ما يكفيه أعمى الله عين بصيرته .
ومن تناول شهوته عدم صفوته وتزاوروا في الله وتحابوا فيه فان ذلك من
أعلى شعائر الدين الموجبة لمحبة رب العالمين . وعظموا المسلمين والعلماء وأهل
البيت النبوي الشريف وأحبوا لهم ما يحبون لأنفسكم واشتغلوا بعيوبكم
عن عيوبهم واستغنوا بالله عن كل شيء سواه ففيه سبحانه الكفاية ولا
تنظروا إلى من هو فوقكم في الدنيا وانظروا إليه في الدين من غير حسد
ولا حقد عليه ووقروا مقدمكم ولا بد وكبراءكم في الطريق وفي السن ،
واحترمواهم لله وفي الله واسمعوا إليهم واتركوا ما تعرفون لما يعرفون فان
البركة كما في الحديث الشريف مع الأكارم ، وتحققوا أنكم ان عمائم بما
ذكرناه أخذ الله بيدكم في الحال ورحمتم إلى الله بظواهركم وباطنكم وأدرتكم
ما أدركه الرجال قبلكم وجربوا في التجريب كشف الحقائق وإظهار
ما خفي من الطرائق ، وواصلونا ما دمنا في الحياة ، فبذلك يدوم سيركم
ويكمل أمركم ، والله تعالى يتولانا ويتولاكم ويحفظكم ويرعاكم ،
والسلام .

ومنها : أما بعد فقد بلغنا أنك وجميع الاخوان لازلتم مشغولين باستنشاق
طاباق في انوفكم كما بلغنا أنكم تؤذون الاخ الصالح الفقيه وتعرضون
عنه إذا لقيتموه في الطريق فلا تسلمون عليه ولا تصافحونه فساءنا فملاكم
لهذين الأمرين القبيحين استنشاق طاباق وإذابة الاخ المذكور واستقبحناه
غاية الاستقباح . أما طاباق فلا يخفاك انه اتفق على تحريمه علماء الباطن قاطبة
والصالحاء العاملون من علماء الظاهر لا خلاف بينهم في ذلك حتى قال العارف
بالله القطب شيخ شيوخنا سيدي محمد بن ناصر ان من يستعمله في انفه او
يتدخن به في فيه لا حظ له في طريق اهل الله ولا ينال منها شيئاً وكذلك
قاله شيخ شيوخنا مولاي العربي الدراوي في جماعة كثيرة من الاولياء يطول
ذكرهم وفي العماليات الفاسية .

وحرموا طابا للاستعمال وللتجارة على المنوال

ولا تغتروا باستشاق من يستنشقها من فسقة العلماء المهتوفين المارقين
فانه لا دليل معهم فيها ولا نور يبصريتهم يصلون به إلى الاطلاع على قبائحها
فالفرار الفرار منها والبدار البدار عاجلا إلى تركها إن أردتم سلامة دينكم
وصلاح ظاهركم وباطنكم .

وأما إذائتكم للأخ المذكور فلا يخفاكم ما ورد في توفير مطلق المسامين
واحترامهم فضلا عما كان منهم من أهل الفضل والصلاح والدين وذوى
الشبهة والوقار المتين ، ويكفيكم قوله عليه الصلاة والسلام « المسلم أخو
المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره » وقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاثة
لا يستخف بهم إلا منافق الامام المقسط والعالم العامل وذو الشبهة في
الاسلام » إلى غير هذا من الأحاديث الكثيرة في هذا المقام . وفي القرآن
العظيم « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » . ومن أعظم
حرمات الله المسلم الصالح ذو الشبهة في الاسلام ، واذا كان هذا في مطلق
حق المسلم على المسلم فماذا يكون حق الأخ على أخيه في الله الأخوة
الصالحة التي جعلها الله بابا من أبوابه وطريقا موصلا إلى رضوانه مثل
أخوتكم مع الأخ المذكور فلنهابها بمقتضى شريعة الطريق تستوجب عليكم
أن تعظموه وتحترموه وتوقروه وتحملوا ما عسى أن يصدر منه ، وتقابلوا
إساءته بالاحسان محبة في الله ورسوله وتخلقا بأخلاقه صلى الله عليه وسلم
وأخلاق كبار أمته فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يجزى بالسيئة السيئة
ولكن يعفو ويصفح . وكان لا ينتصر لنفسه من مظلمة ظلمها كما في الصحيح
وكان يصل من قطعه ويعطى من حرمة ويعفو عن ظلمه ويقول بهذا أمرني
ربي وقد تبعه على هذه الاخلاق الكريمة سلف هذه الأمة وكبرائها من
العلماء العاملين والأولياء الكاملين عملا بقوله تعالى « قل إن كنتم تحبون الله

فاتبعوني يحببكم الله » فسالوا بذلك ما نالوه من سعادة الدارين ، والفوز بمعرفة الله ورضاه في الكونين ، وليست الطريق إلى الله بكثرة الصلاة والصيام ، بل بالقيام بالواجبات فقط مع التواضع وحسن الخلق مع الأنام والاعراض عن النفس وما تطلبه من الرياسة وعلو المقام فهذا بلغوا ما بلغوه من الولاية الكبرى والصالح وحسن الختام .

وقد قال شيخ شيوخنا القطب مولاي العربي الدراوي رضى الله عنه من تعذر عليه الفتح فليعمد إلى فاس الاحسان وليحفر به في قلوب الاخوان يخرج له ينبوع من العلم يغنيه عن مذاكرة الذكاء ومطالعة الدفاتر فاعرف هذا وعرف به الاخوان . وبادروا بعد ذلك إلى الأخ المذكور واستعطفوه عليكم واستجلبوا رضاه ووقروه وقدموه في الصلاة وغيرها فانه ممن يستحق التعظيم والتقديم ولا تلتفتوا إلى أنفسكم وأهوائكم وكونوا معه بدأ واحدة في الله ولا تسمعوا فيه قول قائل ولا إنكار منكر فان الوقت كما لا يخفى لكم لا يسلم أحد من أهله هذا واجتهدوا في طاعة ربكم وعمارة أوقاتكم بذكر الله والتخلق بأخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقنعوا من الدنيا بما تبسر من غير كلفة ولا تعب ووقروا الكبير وارحموا الصغير واعتمدوا على الله في جميع أموركم وقدموا أمره سبحانه وتعالى على شهوات أنفسكم ليقرّب عليكم الطريق وتحصلوا في أمد قريب على التحقيق وتلقوا الله كما تحبون وتنالوا في الآخرة ما تطلبون وما ترتضون وتمسكنوا فان المسكنة في هذه الدار سبب للنجاة من البوار ومن العذاب ودخول النار وارضوا بما يبرز من القضاء يرضى الله عنكم واحفظوا أمر الله في الرخاء يحفظكم في الشدة واذكروه في اليسر يذكركم في العسر وخافوه يؤمنكم واتقوه سبحانه يكرمكم والله يعينكم ويحفظكم اه .

ومنها رسائل أخرى مذكورة في الأصل .

الباب الخامس

في سرد جملة من أخلاقه السنية السنية وأحواله الزكية المرضية التي انفراد بها في دهره ولم نرها مجموعة في غيره ولا سمعنا بها عن أحد من أهل عصره لا من الموصوفين بالولاية والمشار اليهم بالخصوصية ولا من المشهورين بالمشيخة ورسوخ القدم في التسليك والتربية فضلا عن غيرهم من أهل العلم الظاهر مع اجتماعنا بكثير من شيوخ المغرب والمشرق ووقفنا على أخبار جل من لم نره منهم من طريق أصحابهم وكتب تراجمهم وأخبارهم بل لم نر أخبار الشيخ رضى الله عنه مجموعة إلا في السيرة النبوية وتراجم كبار أفراد الأمة المحمدية وكل رجالها من السلف الصالح والخلف الناجح رضى الله عنهم وعنا بهم وسلك بنا بفضلهم منهاجهم وحشرنا في زمرةهم آمين .

فصل

فمن ذلك شدة تعظيمه ومحبته واحترامه للشيوخ الذين أخذ عنهم ولو دروساً قليلة من العلم فكان يبالي في الأدب معهم ولا يتقدم أمامهم في شيء من المسائل ولا يظهر علمه بمحضرهم وإن كان أعلم منهم ولا يجادلهم ولا يناظرهم في شيء إلا على سبيل النادرة مع كمال الأدب والاحترام .

وكان يشد الرحلة من طنجة الى فاس في مدة ثمانية أيام لزيارة شيوخه ، ولما توجه الى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة شد الرحلة منها الى الشام لزيارة شيخه سيدى محمد بن جعفر الكتانى رضى الله عنه . وكان وقتئذ ببيروت قبيل نزوله الى المغرب ، فلما وصل الى الباب واستأذن خرج الشيخ لمقابلته فلما وقع بصره عليه انكب على رجليه يقبلها والشيخ يحاول منه

من ذلك وها في الشارع خارج الدار ومكث عنده ثلاثة أيام طلب منه فيها ان يذهب لزيارة الامام الأوزاعي ، فقال له : والله لو كان حياً ماذهبت إليه لأنى قصدت زيارتك فلا أزور أحداً معك . وكان لا يتكلم في مجلسه كأنه لا يعلم شيئاً من العلم أصلاً . وكذلك كان حاله مع غيره .

وكان شديد التعظيم والاحترام لحمة العلم ولو كانوا حساده وأعداءه الذين بالغوا في إذائته والمجاهرة بعداوته . وكان للأذكياء والنبغاء منهم أشد احتراماً ومحبة وإكراماً ينوه بقدرهم ويشيد بذكورهم وينشر فضائلهم بين أقرانهم . وكان لا يأتي إليه أحد من أهل العلم إلا وينهض لمقابلته بمزيد فرح وسرور ويقضى حوائجه بعناية تامة ويكسوه إن كان محتاجاً ويتحفه بتحفة من كتاب ونحوه ويصله بالمال إن كان من الفقراء المحتاجين ويبالغ في الوصاية باكرامه والبر به من هو مكلف بالضيوف في زاويته إن كان من الغرباء الوافدين عليه وهم الأثرون لأن طنجة قليل بها أهل العلم لا سيما إذا سبق لأحد منهم إذاية في جنبه أو كان يتظاهر بعداوته ويتكلم فيه بما لا يليق في غيبته فانه يقربه ويدنيه وبكرمه بما لا يكرم به أحب الناس إليه . فمنهم من ينجع ذلك فيه لسابق عناية من الله به فتنقلب عداوته محبة وإذائته برأ واعتقاداً . ومنهم من يغاب عليه طبعه اللئيم فيصر على ما كان عليه ، وربما خالف ظاهره باطنه . وقد بالغ بعض القضاة في عداوة الشيخ إرضاء للفرنسيين وتقرباً إليهم إلى أن مرض مرضاً أعيا الأطباء دواؤه وايس معه من العلاج بل والحياة . فأرسل الى الشيخ يقول : قد عجز الأطباء وانقطع الرجاء ولم يبق إلا الالتجاء الى الله تعالى وأتم أبواب الله فعلمجه الشيخ بأدوية وصفها له فشفاه الله في الحال وبعد قيامه استدعاها الشيخ وعمل له ولحمة فاخرة .

وجاء بعد انتقاله قانس آخر فأظهر من العداوة للشيخ إرضاء للفرنسيين

أشد ما كان يظهره الأول ودام على ذلك مدة إلى أن اجتمع بالشيخ مرة فلاحظه وأكرمه فانقلبت عداوته محبة وتلمذ للشيخ وصار لا يصدر إلا عن رأيه وإذنه في غالب مهامه إلى أن مات .

وقد وفد بعض المدرسين إلى طنجة واتخذها داراً وشرع في التدريس وتظاهر أيضاً بالعداوة الشديدة للشيخ حسداً منه وبغضاً كما هي عادة جل طلبة الوقت وصار يعرض بالشيخ في دروسه ومجالسه واشتهرت إدايته بين الناس كافة لكثرة ما كان يطلق لسانه في الشيخ رضى الله عنه الى أن نزل به ما اضطره إلى القدوم إلى الشيخ والتعلق به كما هي عادة الله مع غالب أعدائه فأكرمه وبالغ في ذلك وأعطاه كتباً جليلاً فتلمذ له وأخذ عنه الطريق وصار يلزم مجلسه ويستفيد منه مدة إقامته بطنجة . ثم لما رجع إلى بلده صار يتردد منها بقصد زيارة الشيخ واستشارته والاستعانة به في بعض أوطاره ، وطلب منه أن يلقنه الاسم الأعظم ويأذن له في علم الحرف والتصرف به ، فأجابه بأن هذا الأمر رفع سره والتصرف المطلق به من سنة عشرين وسيقع الاذن بذلك في سنة أربع وخمسين فاذا حصل الاذن فاني سأعلمك لتقدم فلما دخلت سنة أربع وخمسين كتب الشيخ إليه يخبره بأن الاذن قد حصل ويقول له : إذا أحببت ذلك فاقدم . قال فشعاني عن القدوم شأن الوظيفة الحكومية وأشغالها وبقيت أنتهز الفرص وأسوف نفسي باليوم وغد الى أن بلغني خبر وفاته فحصل من الندم والحسرة ما لا يعلمه الا الله تعالى وكم هؤلاء من نظير .

وكان يحترم حملة القرآن العظيم ، لاسيما حفاظ السبع والمتقنين لعلم القراءات بل كان يتعشق هذا الصنف من الناس ويطير فرحاً عند رؤية واحد منهم وبكرمه بكل ما لديه ويحفظ ترجمته وأخباره ، ويتحدث بها عنه في غيبته تشويقاً للسامعين الى الاشتغال بحفظ القراءات وعملاً بالوارد في اكرام حملة القرآن ، وربما علل ذلك في بعض الأحيان بقوله ان هذا العلم كاد ينقطع . وقد كان جدنا سيدى الحاج أحمد يتقنه غاية وبلغ فيه رتبة الامامة ، فكان

الواجب علينا الاقتداء به والاعتناء بهذا العلم ، فاذا فاتنا فلنحب أهله ولنعتن بهم .

وكان يبالح في إكرام معلم أولاده القرآن ويحترمه احتراماً زائداً وينزله منزلة سامية ويغدق عليه من العطايا ما لم يعهد له نظير من غيره ولا ينازعه في شيء يفعله بأولاده ولو ضربهم الضرب المبرح الخارج عن الحد الشرعي الأدبي ، بل والذي لا يكاد يقبله أكثر الناس فكان لا يكلم المعلم في ذلك بكلمة ولا يوافق من يزيد أن يكلمه من الفقراء ، بل يرد اللوم في ذلك على الولد ، ويقول لو لا أنه مشغول باللعب غافل عن حفظ سورة ولوجه لما فعل به الفقيه ذلك مع أنه كان إذا رأى معلماً يضرب أولاد الناس بأقل بكثير من ذلك يعظه ويذجره ويذكر له ما ورد في الظلم والتعدي ، ويحدد له الأدب الجائز شرعاً من عشرة أسواط ونحوها . أما معلم أولاده فلا يسمعه شيئاً من هذا إكراماً له وقياماً بحقوقه وهضماً لحقوق نفسه وعياله وحباً في القرآن العظيم .

وكان يحترم أولاد الشيوخ وحفدتهم ويبالح في إكرامهم قياماً بحقوق آبائهم وأجدادهم ، فكان إذا قصده واحد منهم يبادر إلى لقائه ويظهر مزيد الفرح والسرور به والاعتناء بشأنه ولو كان غير ظاهر الاستقامة ، ويصله بما لديه ، ويلاطفه ويسأله عن أحوال والده وجده وعن كتبه ومؤلفاته ، وربما كان الشيخ هو المفيد له بترجمة والده وجده وذاكراته منها ما لا علم له به .

وكان يوصي أصحابه وقرابته بمثل ذلك ويقول لا يفتخر بظاهر حال أولاد أهل الله فانهم كالرماد لا نار فيه ، ومن داسه بقدمه أحرقه . فذرية الأولياء وإن لم يكن لهم من الفضل والصلاح ما كان لأبائهم فان من آذاهم أصيب بعطب غيرة من الله لأسلافهم ، وكذلك كان يذكر في حق أولاد العلماء ما يحمل على إكرامهم واجتناب إذايتهم واحتقارهم ، هذا كمال حاله

رضى الله عنه مع اولاد مطلق العلماء والشيوخ أما اولاد شيوخه هو وحفدهم فكان إذا ورد عليه واحد منهم يظهر له من الاجلال والتعظيم مالا يوصف بل كان ينزل نفسه منهم منزلة التلميذ من الشيخ .

حدثني بعض من كان يجالسه قال : حضر شابان من حفدة شيخه سيدى محمد بن جعفر الكتانى من فاس ونزلا عند الشيخ فحضرت معهما ذات يوم وقد أتى بالعشاء فصرنا نأكل والشيخ يحدثنا عن أدب الأكل وما ينبغى أن يقدم ويؤخر من جهة الشرع والطب ويذكر ما يتعلق بذلك من الحكايات فلما أردنا الانصراف قام إلى باب الغرفة وصار يصف نعال الشريفين ، فقلا له يا سيدى نستشير معك فى الذهاب الى تطوان . فقال لهما النظر لكما فان عزمتا على الجلوس فأتتا فى بيتكما أو على الذهاب فالأرى رأيكما وأما أنا إلا عبد لكما .

وكان لأهل البيت أشد احتراماً وتعظيماً ومحبة من كل من تقدم على أى حالة كانوا لا يشترط فيهم صلاحاً ولا علماً ولا فضلاً ولا تقوى ، ويقول : علينا أن نقوم بواجبهم ونسكل أمرهم الى الله تعالى . وكان لجبههم يحب الكتب المؤلفة فى فضاهم وبيحث عنها ويجمعها ويحب من يحبهم ويؤلف فى فضائهم ويعنف من تصدر منه اذابة لواحد منهم اذا كان من تلامذته وأقاربه ولو أنهم من أهل البيت أيضاً صدر ذلك منه مراراً عديدة مع جماعة كثيرة فى وقائع مختلفة .

منها : أن شريفاً صدر منه ما يوجب تأديبه من الحكومة التابع لها ففر وجاء الى الشيخ مستجيراً فأواه وأكرمه وأنزله فى منزل مجاور لبيته مع بعض أنجاله وجعله واحداً منهم . فلما طالت عليه المسدة واشتاق الى أهله ووطنه ، صار يسعى فى ذلك فاتصل ببعض الجواسيس فأرشدته الى أن الطريق التى يمكن رجوعك بها وغفوا الحكومة عنك هو التجسس على الشيخ وتقديم أخباره وأسراره اليها ، فأجابته الى ذلك واستصدر له العفو من

الحكومة فصار يتردد اليهم وينقل لهم أخباراً يفترها حتى أدى به الطيش إلى أن نسب إلى الشيخ أمراً عظيماً في السياسة . ثم جاء اليه يريد أن يحوط عليه في الموافقة على أمر يحقق له دعواه وكذبه على الحكومة ففطن له الشيخ وصار يلاحظه ويعده ويمنيه مع إكرامه وبره المستمر معه . فلما صدر منه هذا الأمر العظيم . وكان قد سبق منه أمور كثيرة هي أخف من هذا دخل بعض الفقراء على الشيخ متضرراً من أفعال ذلك الشريف طالباً منه الإذن في طرده وأمره بعدم الوصول اليه . فقام الشيخ في وجهه وغضب من قوله ، وصار يقول له : ماذا نفعل مع جده صلى الله عليه وسلم أيتصور في ذهنكم أننا نؤذي شريفاً ونطرده من بابنا ولو فعل بنا من الأذى ما فعل ، وهل رأيتم إذيتيه وصلت إلينا ولحقنا من ضررها شيء ، فلم يمكن ذلك الفقير إلا ان يستسمح الشيخ مما صدر منه في حق ذلك الشريف وينصرف .

وكان بعض الأشراف يلزم مجلسه سنين عديدة ويتناول الطعام معه في أكثر الأيام ويكثر من سؤاله عن المسائل العلمية والتصوفية فاطلع منه يوماً على سر يناقض مقصود الحكومة فأفشاه اليها ليتوصل بذلك إلى المال أو إلى وظيفة وحصل من ذلك الإفشاء فتن عظيمة دامت أكثر من عشر سنين ، ولا يزال أثرها سارياً إلى اليوم فما زاده ذلك إلا محبة فيه وتقرباً له وسعى له بعد ذلك في وظيفة يرتزق منها ودام معه على البر والاكرام والمحبة الأكيدة إلى الختام .

وهذا كان دأبه وديدنه مع أولاده وقرابته يريهم دائماً على محبة الأشراف وتعظيمهم وإجلالهم وعدم مقابلتهم بمثل ما يبدو منهم من الاساءة ووجوب تحمل ذلك منهم ويذكر الأحاديث الواردة بذلك وحكايات الصالحين في تعظيمهم وما نالوه من الفضل عند الله تعالى وعظيم المتزلة عنده بسبب ذلك حتى كان الصغير من أولاده وخدمه يعرف من قدر أهل البيت

مألا يعرفه الفقيه العالم المدرس وكذلك في حق الفقراء المنتسبين إلى أهل الله لأنه كان يريهم على ذلك بحاله وقاله وعمله ، لا بمجرد لسانه كما كان يحقر في أعينهم الدنيا وأهلها و يعرفهم أن محبتها والنظر اليها وإلى أهلها بعين الرغبة والاجلال يوجب المقت من الله تعالى والبعد من رحمته ويظلم القلب ويبعده من حضرة الله ويطمس عن بصيرته عن التطلع إلى العلوم والانتفاع بما يسمعه المرء من القرآن والسنة والموعظة ، ويقول يكفيكم أن الأغنياء لو بلغوا ما بلغوا في الغنى لا يصلون إلى درجة اليهود والنصارى فهم أغنى الناس على الإطلاق ، فلو كانت الدنيا ترفع من قدر صاحبها لرفعت من قدر اليهود والنصارى ولجرتهم إلى الخير وما ينفعهم في آخرتهم في أمثال هذا ما كان رضى الله عنه يربى به أولاده وأقاربه ويذكره في كل مناسبة حتى نشأ أولاده والحمد لله على هذا الخلق العجيب الغريب بين أهل الوقت فلا يرون لأحد من أهل الدنيا والمراتب السامية في الغنى والرياسة قدراً ولا مزية من جهة غناه ورتبته ، بل ينقبضون عنه وينكشون ولا يلبسون إلا عند رؤية أهل الفضل والدين والصلاح والعلم والعمل لا سيما أهل البيت منهم والذاكرين المنتسبين إلى أهل الله .

فصل

وكان يربى أولاده من صغرهم على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وتعلق القلب بالله وبمحبتة والاقبال على العلم والعمل وترك ما فيه شهوات النفس وحظوظها ، ولا يسمح لهم بالتشبه بأهل الدنيا وأولاد الأغنياء في الملابس لا في جودة الثياب ولا في كيفية اللباس ، بل يلبسون ما توسط من الثياب وعلى الكيفية التي يلبسها الفقراء ولا يسمح لأحد أن يلبس في رجله الشرايات أو التقاشير ولا غيرها من ملابس الترف أصلاً . وإذا رأى على واحد منهم شيئاً من ذلك غضب غضباً لا مزيد عليه ، بل لو رآه يزن

ما زاد غضبه على ذلك ويأخذ منه ذلك الثوب فيقطعه او يتصدق به في الحال
ويقول لا تطمعوا في الترفه والتدخل في مداخل الدنيا مادمننا بالحياة .
فنحن لو أردنا ان نلبسكم الذهب والفضة ، وكان ذلك جائزاً لما غابنا ذلك
والحمد لله ، ولكن موتكم والبكاء عليكم خير لنا من البكاء منكم
ورؤيتكم في حالة لا ترضى الله والرسول وتخالف طريقتنا وطريقة
سفننا الصالح .

ومن أغرب أحوال الشيخ رضى الله عنه مع أولاده أنه كان يقدم غيرهم
في المحبة والاكرام وجميع المصالح عليهم بما لا أفننه يوجد في غيره بل أكاد
أجزم بأنه انفرد به في الدنيا من مشرق الشمس إلى مغربها بحكم ما فطر الله
عليه طبيعة المخلوق من تغلب حب الأولاد على القلب وفرط ميله إليهم لا سيما
إذا كانوا بارين مطيعين سائرين فيما يحبه الوالد ويرضاه كما كان أنجال الشيخ
معه ومع ذلك فكان لا تتعارض مصالحهم أو واحد منهم مع مصلحة غيرهم
من أقاربه وأصحابه وفقرائه بل وأعدائه الاقدم مصلحة ذلك الغير عليهم
ولا جاء أحد صديقاً كان أو عدواً يشتكى أحد أولاده في شيء حقاً كان أو
باطلاً الا قام وقعد انتصاراً لتلك الشاكي وأهان ولده أمامه ليشفى منه غيظه
مع علمه غالباً بأن الحق مع ولده لا مع ذلك الغير وبالجملة فما رأيت في مدة
ثلاثين سنة ولا سمعت عنه يوماً أنه انتصر لأحد من أولاده في شيء أصلاً
حتى من كبر منهم وصار في مصاف الرجال بل والعلماء ونبغاء الطلبة بل غاية
ما كان يفعله أنه بعد أن يبينهم ويوبخهم التوبيخ البالغ الذي لا يوبخه أحد
من أهل الدنيا عبده فضلاً عن ولده أمام أحد من الأوباش والغوغاء فإذا
ذهب ذلك المشتكى وانفرد بالولد يصير يلاطفه ويقول نحن ما فعلنا بك ذلك
بغضاً وإهانة إنما فعلناه لامثالنا لأمراة الله تعالى وقياماً بحقوق الأخوة واردة
أن تكون كاملاً من أكبر الرجال وأفراد الأمة فانه لا يسامح في حقه ويصبر
على هضم نفسه امثالاً لأمر الله وتخلقا بالأخلاق المحمدية إلا أكبر الرجال

والناس اليوم لا يرون لأحد حقاً عليهم وإنما يرون حقوقهم على الغير فعلمينا أن نقوم بحقوقهم ولا نطمع في أن أحدا منهم يقوم بحقنا وإذا ساويناهم في أخلاقهم واضاعتهم للسنة المحمدية وعدم العمل بها فمن يقوم بها وأى مزية لنا من بينهم ونحن ما شرفنا الله تعالى إلا بالعمل بالعلم والافتداء بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضربوا ولا تضجروا من هذا فعما قريب تجنون ثمرة وهم سيجنون ثمرة أعمالهم وإن كنت على الحق فسيرفع الله قدرك ويزيدك بهذا شرفاً وعمدك في باطنك بأنوار ومعارف وسترى بعينك ماذا سيتزل بعدوك إذا أنت امتثلت أمر الله فيه إذ عصاه هو سبحانه وتعالى فيك ولم يتم بحقوقك التي أوجبها الله عليه في أمثال هذه المواعظ يسلى بها الولد بعد إهاناته وسلبه حقوقه وتمكين عدوه منها أما كونه ينتصر له أو يرد على من نسب إليه شيئاً من القبائح والجرائم المحقق كذبها فذلك من المستحيل عنده ، ثم ليس هذا مع البعيد فقط بل ومع الاماء والخدم داخل الدار أيضاً فما علم أنه رجع ولداً له على خادم أو خادمة أصلاً فقد كانت عنده أمة أورثها فرط حلمه ومساواته للخدم بأهله وعياله أنفة وكبرا وعظمة لا توجد إلا في أبناء الأمراء والوزراء فكانت تأنف أن تطيع أوامر أحد من أولاده وزوجاته بل وحتى الشيخ نفسه فيما لا يوافق هواها فكانت يخلقها هذا تثير غضب أولاده في بعض الأحيان فربما أسمعها بعضهم كلمة فبيحة فاذا أوصلت ذلك إلى الشيخ انتصر لها وجاوز الحد كأنه هو العبد وهى ابنته مع أنه كان كثيراً ما يتضجر من خلقها وكبريائها وعظمتها ثم يقول أمرنا الله تعالى بتحمل أخلاق السفلة وعدم معاملتهم بالمثل ونحن نرى أن لو طردناها لما وجدت من يتحمل خلقها ويقبلها على كبريائها وعظمتها وهى لا لوم عليها في طبعها لأنها جاهلة وإنما اللوم على من يدعى العلم والطريق واتباع السنة فهو الذى يجب عليه تحمل خلقها .

وكان بعض أهل الأخلاق السيئة والطباع الذميمة من أتباعه يؤذى الفقراء

غاية ويجترى عليهم بيده فلا يكاد يمر عليه شهر بدون أن يؤذى أحدا من الفقراء ، ثم زاده حلم الشيخ وكرم أخلاقه غرورا إلى أن ضرب يوما بعض أولاده النبغاء الأذكياء ضربة منكرة ثم لم يكتف بذلك حتى صار إلى الشيخ يشتكيه أيضاً فبدلاً من أن ينتصر الشيخ لولده ونحبه غاية أمامه وأمره أن يقبل رجله ويستسمحه فصار يقبل رجله أمام الشيخ رضى الله عنه .

وكان له تلميذ آخر اليه المنتهى في سوء الخلق والظلم والفسق والجور والكبرياء والعظمة والخداع والنش والرياء والتصنع وسوء الظن والجهل بالله تعالى والغرور بالنفس والحقد والحسد واذاية الفقراء والأشراف والعلماء والصغار والكبار وأهل الحواضر والبوادي وأهل الفضل والدين لا سيما من قرابة الشيخ وأنجاله فانه يأتي إليهم من أنواع الاذاية والاهانة بما لا يتسع لشرحه إلا مجلد حافل وبما لا أظن أنه يخرج معه من الدنيا سالماً أو يحتم له بخير لفرط اذايته بحيث قل عنه حجاج الفقراء ولا لوم اللهم إلا أن يتداركه الله برحمته فيتوب توبة تكون سبباً لأن يرضى الله عنه ذلك الجهم الغفير من الأشراف والفقراء والفضلاء فيسامحوه فيما أتاه إليهم وإلا فلا بد من القصاص .

وكان الشيخ رضى الله عنه لفرط حماقة هذا الرجل وكثرة اذايته للضيوف والزائرين والفقراء لا يكاد يمر عليه يوم أو أسبوع بدون شكاية تردبه وشكاية منه بمن يظلمهم ويؤذيهم لانه لفرط حلم الشيخ وكرم أخلاقه وفرط حماقته هو واغتراره وقلة حياثه وصفاقة وجهه كان يؤذى ولد الشيخ ويسمعه من السب والاهانة أمام الناس ما هو لائق بدينه وسفالة أخلاقه أو ابن اخي الشيخ أو صهره أو ابن عمه العالم الفاضل المدرس أو الأشيب الذاكر المنتسب ثم بعد ان يقضى وطره من عرضه واهانتته يسبق إلى الشيخ بالشكاية لاعتقاده ان الله اباح له عرض المسكين والاشراف والفقراء من أصحاب ابن الصديق بل وظهورهم وأموالهم لفرط اغتراره بنفسه وجهله بالله

تعالى وبدينه فكان الشيخ رضى الله عنه يعقد المجالس المتعددة بين أصحابه
وقرأته لأمره إياهم بطاعة هذا الجبار العنيد والسكون تحت أمره ونهيه مع
المبالغة فى تعظيمه واطرائه والثناء عليه فلا يزيد ذلك إلا عتواً واستكباراً
وغلظة وفضافة وجرأة على الله وعلى عباده الصالحين استغلالاً لجأه الشيخ
رضى الله عنه ومكاته ولولا هو لما شعر بوجوده أحد من أضعف ضعفاء
أولئك الأفاضل ولما خطر بباله هو أن يجترىء على واحد منهم كما هو حاله
اليوم فضلاً عن ذلك الجمع العظيم وهكذا استمر الشيخ رضى الله عنه يقاسى
معه الشدائد مع المبالغة فى إكرامه وتعظيمه إلى أن صرفه الله عنه وشغله
بدنياه وأراح الفقراء والزواوية وعمارها وزوارها من ظلمه وجوره وفساده
نسأل الله العاقية ولو لم يدل على عظمة أخلاق الشيخ رضى الله عنه وحلمه
المفرط إلا صبره على إذابة هذا الرجل لسكنى ذلك دليلاً على انفراده فى الدنيا
من مشرق الشمس إلى مغربها فوالله لو شئت أن أشرح إذابة هذا الرجل
للشيخ فى ذريته وأهله وقرابته وضيوفه وزواره وأصحابه ثم فى نفسه ومانسبه
إليه أخيراً وما قاله فيه مع عظيم إكرام الشيخ له ومواساته إياه لذكرت من
ذلك ما يتعجب منه المتعجبون ويستغرب من سماعه السامعون ويجزم القارىء
معه بأن الشيخ لثانى له فى الدنيا فى عصره بل ولا قبله بكثير فى هذه
الأخلاق فلقد حكى العارف الشعرانى بعض البعض من عشر هذا عن القطب
امولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ثم قال وهذا خلق غريب لا يوجد
لا عند أفرادهم مع أنه والله ما ذكر عشر عشر معشار ما رأيناه من الشيخ
رضى الله عنه فى هذا الباب ولقد رأيت أحد أفراد هذه الأمة المحمدية فى
عصرنا ممن لم تر عيناي بعد الشيخ رضى الله عنه مثله فكان يميل إلى أولاده
بحكم العاطفة ويقدمهم على غيرهم ولا يقبل كلمة سوء من أحد فيهم حتى إنه
صدر مرة من بعض أكابر أصدقائه ومحبيه الذين كانوا يخدمونه وينفقون

عليه ويواسونه المدة الطويلة أن قابل بعض أولاده بكلام فيه غلظة حتى أبكاه فدخل على والده وهو يبكي فاتفعل والده لذلك اتفعالا كبيراً وقابل ذلك المحب فأغلظ له جداً حتى إنه لما خرج من عنده حلف بالطلاق الثلاث أنه لا يبيت في بلد فيه الشيخ وسافر في الحال وكان ذلك آخر اجتماع بينهما مع أن الرجل من أكابر الأعيان الطاعنين في السن وأعظم المحبين ولم يصدر منه إلا كلام قاله بشدة في حالة غيظ فكيف بمن يصر على إذاية الأنجال وجميع الأقارب أزيد من خمس عشرة سنة بما لا يقبله المرء في أصحابه وأحبابه فكيف به في أئجاله وأقاربه من نسبة جميع الجرائم والطامات حتى في العقائد والديانات والاهانة باليد واللسان والسعي في الاذاية والعداوة واشاعة الامور القبيحة بالزور والبهتان لكي يتوصل بذلك الى أن يخلف الشيخ في مكانه حيث أن أولاده بالمثابة المذكورة ويعلم الشيخ منه ذلك وتبلغه إذايته أيام صباح مساء طول السنين المذكورة ومع ذلك يعقد المجالس الحافلة أمام أعين المؤمنين من الناس يعظم فيها من قدر هذا الجبار العنيد ويرفع من شأن هذا الجاهل المجرم بما لو أنفق مهجته ليشهد له به من هو دون الشيخ بمراحل لم يصل اليه فكيف بالشيخ أمام أولئك الجم الفقير من الناس تحقيقاً لمطامعه وإجابة لرغبته التي يؤذى أولاده من أجل الحصول عليها فلذلك قلنا إن هذا مما انفرد به الشيخ رضى الله عنه في الدنيا بأسرها والحمد لله رب العالمين .

فصل

وكان رضى الله عنه وصالاً لرحمه الدينى والطينى أما الدينى فقد ذكرنا صنيعه بأشياخه وأنجالهم وحفدتهم وأما رحمه الطينى فكان لا ينسى أحداً مع كثرتهم بل يواسى الجميع ويكسوهم كل سنة ويدفع أصدقة من يريد التزوج منهم حتى تترتب عليه في ذلك ديون عظيمة كل سنة وينفعهم بالمال

والجاء والتوسط والشفاعات عند الحكام مع كون الكثير منهم يؤذونه بأذراع من الأذيات وربما جاءه الواحد منهم فلم يجد ما يعطيه فأخذ من أولاده وأعطاه وكان يحض دائماً على صلة الرحم وبر الوالدين ويبالغ في ذلك ولا يرخص لاحد في مخالفة من هو أكبر منه من العائلة فضلاً عن إخوانه فضلاً عن والديه وهو الذي أمرني بتأليف مطالع البدور في بر الوالدين لقضايا صدرت من أقوام ووقع لبعض قرابته ان ادعت عليه امرأته العجوز البالغة من العمر ستين سنة عقب طلاقه إياها انها ولدت منه ولداً ذكراً لا يدري من أين اتت به فلما ذهبت القابلة والنسوة لم يجدن عليها أثر الولادة والنفاس اصلاً والولد موضوع بجنونها فأراد الرجل ان يلاعنها فامتنع اخوه وكان أكبر منه وقال له ان اللعان فيه بهدلة لا نرضى بها فأراد ان يخالفه ويلاعن لتحققه بافتراء المرأة عليه من وجوه متعددة فلما جاء الى الشيخ يستشيريه قال له حيث إن اخاك أكبر منك قد أمرك بالتخلي عنه فامتنل امرالله ولا تخالف إشارة اخيك .

فصل

كان الشيخ رضى الله عنه لا يخرج إلى السوق ولا يمر في الشوارع العامرة بالناس والدكاكين بل اذا خرج يوماً لزيارة أخ أو إجابة دعوة أو إلقاء درس يختار الشوارع الخالية ولو كانت بعيدة فراراً من الشهرة وتعظيم الناس وسلامهم عليه وكان يسرع في المشى ويمشى قصداً لا يلتفت لرؤية من عن يمين الطريق وشمالها حتى كان كثير من الناس إذا رآه مقبلاً لا يتهيأ له الخروج من دكانه للسلام عليه حتى يجده قد فاته وبعد عنه .

وكان لا يتولى شراء شيء بنفسه من أمتعة الدنيا وحاجياتها كيفما كانت الا الكتب وكان لا يملك فيها ولا في غيرها إذا اشتراه على سبيل النادرة وكان التجار يعرفون منه ذلك فيطلبون في الكتب أضعاف ثمنها فان وافقه

الكتاب أخذه وإلا رده ولا ينقص من الثمن وكذلك إذا كان حاضراً وقت شراء شيء له لا يدع أحداً يمس به بل يقول للوكيل ادفع الثمن وهكذا كان حاله في البيع أيضاً فإنه إذا توقف على ثمن شيء باعه بما أعطى فيه ولو كان ربع عشر ثمنه وكم كتاب ثمنه أربعون ريالاً واشتراه هو بأكثر من ذلك فأتاه فيه سمسار الكتب بأربعة وخمسة فباعه كلسان العرب وفتح الباري وشرح عايش على خليل وأمثالها وكم كتاب اشتراه بعشرين فأتاه فيه السمسار باثنين وقد باع بهذه الطريق مئات المجلدات حيث استدان مرة نحو ألف ريال من رجل فجاء يطلبه منه قبل أن يتمسراً فأخرج مكتبته وبعها فما أتاه السمسار في كتاب ربع ثمنه قط بل على النسبة التي ذكرناها من نصف العشر وربعه وهو يعلم ذلك ويعلم فساد سيرة ذلك السمسار وما يصرف فيه تلك الأموال التي يسرقها في البيع ولكنه لفرط حياته وحقارة الدنيا في نظره لا يتوقف في شيء من ذلك وأين هذا من علماء الوقت الأغنياء الذين يمكنون الزمن الطويل بما كسبوا على القرش ونصفه وربما وعظوا من رأوه لا بما كسبوا ويستدلون بحديث ينسبونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما كسوا السوقه وهو حديث باطل موضوع ويعرضون عن السنة الصحيحة الواردة بمدح السهولة في البيع والشراء والقضاء والاقتضاء والتخلق بأخلاق كمل الرجال .

وكان لا يمد رجله لا وحده ولا مع أهله لا في حالة المرض ولا في حالة الصحة وربما مد أحدهما قليلاً إذا تعب بحيث لا يخرج بعدها عن هيئة المتربع وإنما كان يكثر من جلوس القرفصاء لا سيما عند المطالعة والكتابة وما رأته طول عمره ماداً رجله ولا مستلقياً على قفاه ولا رافعاً إحدى رجله على الأخرى في جميع أطوار حياته وذلك لعظيم مروءته وكمال أدبه مع الله تعالى وتمام مراقبته .

وكان إذا غاب عنه أحد من جلسائه يتفقده بالسؤال عنه وإذا علم بمرضه

تعاهدته بالسؤال وارسال من ينوب عنه في العيادة مع وصف الأدوية وربما أرسل في اليوم الواحد مرتين وثلاثاً حتى كأن المريض من أعز أولاده كل ذلك قياماً بحقوق الأخوة في الله وآداب الصحبة والمجالسة فيه .

وكان إذا قصده أحد للسلام عليه لا يعطيه يده يقبلها إلا إذا انحنى هو على رأسه يقبله أو كتفه وما رأيته أعطى أحداً يده يقبلها وهو لا يتحرك ولا ينحني عليه أصلاً إلا مع أولاده الصغار حتى كنا نتعجب غاية ممن زاء يمد يده من العلماء والشيوخ لمن يريد تقبيلها من غير تحرك ولا تقبيل منهم أيضاً ليد المسلم أو رأسه ظناً منا أن ذلك هو حال جميع العلماء حتى علمنا أن ذلك مما انفرد هو به لكمال أدبه مع الله ومع خلقه وتعامه مع الناس .

فصل

وكان مفرد زمانه في قضاء حوائج المسلمين والسعي في مصالحهم لا يكاد يمر عليه يوم دون أن يجرى الحق سبحانه وتعالى على يديه فيه قضاء حاجة أو حوائج على اختلاف المراتب والطبقات حتى كأن بيته من أعظم الإدارات المقصودة لذلك فمنهم من يطلب المال والمعونة ومن يطلب الدواء أو التوسط في دخول المستشفى مجاناً أو السفر كذلك أو إخراج ورقة الجواز إذا كان ممنوعاً أو متعسراً على مثله أو الشفاعة عند الحكام في قضية أو عند القاضي أو عند بعض التجار أو طلب وظيفة أو إسقاط دين أو تظلم من ظالم أو نحو هذا مما كان يمضي غالب يومه في قضاءه إما بنفسه أو بإرسال رسل ومكاتب إلى من يتعلق ذلك به من الحكام داخل البلد وخارجها إذ ما كان أحد يقع في ورطة سواء من أصحابه أو من غيرهم إلا ويقصده لفك معضلته وتفريج كربته وكان يبحث غيره على ذلك وينوه به غاية ويقول إن المجاهدة ومكابدة الأعمال الشاقة التي كان عليها السلف الصالح في الطريق قد انقرض وقتها فساد الزمان وانقلاب طبائع أهله ولم يبق اليوم إلا المحبة والتقرب إلى الله تعالى بالسعي في قضاء حوائج

المسلمين وإغاثة المهوفين فان ذلك مما يرحم الله به العبد ويأخذ بيده كما أخذ هو بيد أخيه ومن أخذ الله بيده فقد أوصله الى كل خير

وكان في بذل الجاه عند الحكام المسلمين والنصارى في الشفاعات لا يجارى ولا يبارى ولا يستطيع أحد من أهل العصر أن يدرك له فيه غباراً فان الخلق كانت تهرد عليه أفواجاً أفواجاً فيرسل الرسل ويكتب المكاتب بحظه إلى الجهات البعيدة إلى القاضي والباشا والوزير والمندوب والحاكم والمراقب بالمدن والقبائل والمنطقتين السلطانية والخليفية وحكام الدولتين الفرنسية والاسبانية وعند سفراء الدول الأخرى أيضاً إن تعلقت المسألة بواحد منهم وربما كتب في اليوم عدة مكاتب وربما أرسل الى الحاكم الواحد عدة مكاتب أيضاً في القضية الواحدة بحسب رغبات أهلها لا يضجر من ذلك ولا يمل ولا يرد طلب طالب فيه ولا مسألة سائل سواء قضيت تلك المسألة وقبلت الشفاعة أم لا وربما يبلغه عن الحاكم كلام قبيح قاله في حقه وفعله مع بعض أصحابه ثم إذا جاء اليه أحد يطلب الشفاعة عند ذلك الحاكم أيضاً لا يعتذر له بأنه عدوله أو بأنه لا يقضى ما يطلبه منه بل يسارع إلى إجابة طلبه وإرسال رسول من جهته أو كتابة كتاب اليه فلا يحصى كم مسجون خرج من السجن بشفاعته بعد أن حكم عليه بالسنين الطويلة ومنهم جماعة كبيرة ممن حكم عليهم بالثلثين والأربعين لعظم جرائمهم السياسية فيخرجون بعد السنة ومنهم من لم يكمل السنة ولا يحصى كم وظف في الوظائف المختلفة من قضاء وولاية على قبيلة أو قرية وكتابة وتدريس وعدالة وغير ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الحصر ولا رأينا شرقاً وغرباً من الظاهرين في الوقت بالفضل والرياسة والجاه من يستطيع أن يتحمل عشر معشار ذلك ولعلم الناس بهذا أقبلوا على الشيخ رضي الله عنه

وكان لا يدعو أحداً من الناس باسمه المجرد بدون سيادة ولا يذكره كذلك في غيبته ولا يقتصر على ماجرى به عرف الناس من لفظ السى بحذف الدال

بل يذكر لفظ السيادة بكامل حروفه لأشريف والمشروف والعالم والجاهل
وكان كثيراً ما يخاطب الرجل بمولاي زيادة في الأكرام والاحترام أمثالاً لأمر
الله تعالى بأن تقول للناس حسناً .

وكان لا يمزح ويكره المزاح وينهى عنه حتى صغار الأولاد ويتعجب من
أهل العلم الذين يمزحون لاسيما في دروسهم فانه لما توجه الى القاهرة سنة خمس
وأربعين وكان يسمع عن بعض الظاهرين فيها بالدعوة الى العمل بالسنة والقيام
بها وبلغه أنه يقرأ سنن أبي داود ذهب لحضور مجلسه والتبرك به فلما جلس
لم يلبث إلا لحظة واذا بالشيخ المرئي صاحب الاتباع الكثيرين الداعي إلى
السنة فيما يزعم شرع يحكى الروس ليلة دخولها ويقلد فعلها وصوتها وصوت
النسوة اللاتي يكن معها وهو بلحيته البيضاء فوق الكرسي يقرأ حديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمائم واللحى ملتفة حوله . فقام الشيخ
وخرج مندهشاً مما لم يره ولا خطر له على بال أن يوجد مثله . وكان يحكى
ذلك على سبيل التعجب طول حياته ويضيف اليه ما هو قريب منه مما رآه من
بعض علماء القاهرة أيضاً

وسمعت شيخنا الامام أبا عبد الله سيدي محمد بن جعفر السكتاني يقول
كنت مرة أذكر الله تعالى فرأيت كأن شخصاً لطيفاً وقف بين يدي فقلت ما الذي
قطع فلاناً عن الله وسميت بعض من كان في الوقت ينسب الى الصلاح ويحدث عن
نفسه بأشياء فقال كثرة مزاحه مع الناس قال وقلت له ذلك باللسان الذي لم يفتر
عن الذكر يعني أنه نطق بالكلام المذكور في حال نطقه بالذكر معاً فكان
رضى الله عنه يحكى أن هذا من الكرامات التي وقعت له

وكان الشيخ رضى الله عنه ينزل الناس على حسب منازلهم التي أنزلهم الله بها
ويعامل كل واحد منهم ظاهراً في المجاملة والبر والاكرام على قدر منزلته
فلا يساوى بين الشريف والعامي ولا بين العالم والجاهل ولا بين أهل النسبة والفقراء
المتجردين لذكر الله وغيرهم من عوام الناس أمثالاً للسنة الواردة بذلك وقياماً

بالتدبير الذي جعله الله بين عباده فقد دبر لهم الأحوال من غنى وفقروا ووزل
ورفعة وضعة وعلم وجهل وقوة وضعف لتقوم بذلك حكمته فيهم فالعاقل عن
الله يعامل أهل رفته على مقتضى تدبير الله لهم فإذا لم ينزل الرجل منزلته التي
أنزله الله بها فقد استهان به وجفاه وترك موافقة الله تعالى في تدبيره وكان
ما أفسد أكثر مما أصلح لأنه عكس تدبير الله على مقتضى الحكمة البالغة فالغنى
إذا أقصيت مجلسه أو حقرت منزلته حقد عليك وتظاهر بعداوتك وأطلق لسانه
فيك لأن الله تعالى لم يعوده ذلك بما خوله من نعمه وأسبغ عليه من فضله
وإذا عاملت الولاة والحكام بمعاملة الرعية فقد تعرضت لما هو أكثر فساداً
وأعظم شراً لاعتياده العزة والرفعة وتقوذا الكلمة والافتقار على التصرف
في الغير فلا يقبل المساواة بمن ولاه الله الحكم عليهم وأعطاه تقوذا الأمر فيهم
ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم أنزلوا الناس منازلهم كما في سنن أبي داود من
حديث عائشة رضی الله عنها وفي مقدمة صحيح مسلم عنها قالت أمرنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم

وورد من طرق متعددة تزيد على العشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وفي رواية إذا أتاكم شريف قوم قال الشيخ
الأكبر محي الدين ابن العربي رضی الله عنه يدخل فيه كل كريم لقوم من سائر
الأديان لا من المسلمين فقط لعموم اللفظ وشمول المعنى وتحقق الحكمة والعلّة
في الجميع

وكثير من الجهال يظن أن الصلاح والتقوى في التسوية بين الشريف
والمشروف وربما يجعل ذلك ميزاناً يحكم به بالفضل وغيره فيقول لو كان فلان
فاضلاً أو صالحاً لسوى بين عباد الله في الرتبة والبر والاكرام واذ لم يفعل
ذلك فهو ذو وجوه وأغراض وذلك من فرط جهلهم ووجود حقد في بواطنهم
وتطلع الى منازل ورتب لم يجعلهم الله من أهلها ولم يقض لهم بشيء منها فهم
شيوعية الجاه والمنزلة يريدون أن يقلبوا حكمة الله في خلقه وسننه بين عباده

والمقصود أن الشيخ رضى الله عنه كان ينزل الناس منازلهم كما امره الله تعالى وذلك بالنسبة الى الظاهر اما ما يتعلق بالباطن والمحبة القلبية فكان عجباً لا يفهمه الا من يفهم ما لأولياء الله تعالى من الكشف والنظر بعين البصيرة والسير مع مراد الله تعالى من خلقه في الباطن وحقيقة الامر لا ما هو ظاهر عليهم في الحال من الحركات والأعمال فان الشيخ رضى الله عنه كان يحب بعض الأفراد محبة زائدة ويعتنى من شأنهم وقضاء أوطارهم وإجابتهم إلى رغباتهم بما لا يفعله مع غيرهم ويفرح بمقابلتهم وينشط لمجالستهم وهم من أهل التخليط في الأعمال وتبأغه عنهم تلك الأعمال السيئة والأفعال القبيحة وترد اليه الشكايات المتعددة فلا يزيد على أن يتعجب من ذلك أو يضحك منه ولا يكلم ذلك الشخص ولا يوبخه وربما كله بلين ورفق اجابة لرغبة الشاكي فقط ولا ينقص ذلك من قدره عنده ولا يصرف وجه عنايته عنه ويأتيه من هو مشهور بالتقوى والصلاح والفضل فيثقل عليه أمره ويقابله ظاهراً بما يجب له ويقضى ما ربه ولا يفرح وينشط كما يفرح لغيره وهذا من كشفه رضى الله عنه واطلاعه على المقامات الباطنة

قال سيدي ياقوت العرشي رضى الله عنه ينبغي للفقير ان يعظم الناس بحسب دينهم في الباطن لا بحسب ثيابهم قال وقد رأيت شيخنا ابا العباس المرمرى رضى الله عنه كثيراً ما يكرم بعض العاصين اكثر من بعض المطيعين فقلت له يوماً في ذلك فقال انه يظهر لى من المطيع عز النفس والكبر ومن العاصى ذل النفس والاحتقار فاعامل كل واحد بحسب ما فى باطنه هـ . فحالة الشيخ رضى الله عنه جامعة بين الشريعة والحقيقة وهى اعلى من حالة العارف الشعرانى رضى الله عنه الذى كان ينزل الناس منازلهم بحسب ما هم عليه من ذل النفس ولا يعظم بحسب الظاهر والثياب والضخامة لما فى ذلك من مخالفة الحكمة التى دبرها الله لخلقها وامر بها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

فص — ل

وكان لا يذهب إلى أحد من أهل الدنيا وأغنيائهم المشاهير ولو ألحوا في دعوته لا سيما في أواخر عمره وكذلك كان لا يذهب إلى الحكام ولا إلى المحاكم بل كان يرسل في الشفاعات أصحابه تارة بالمشافهة وأحياناً بالكتابة وربما طلب من الحاكم أن يقدم إليه ليكلمه في القضية إذا كانت مهمة فلا يتأخر عن ذلك لا سيما حكام النصارى فانهم كانوا يريدون الشرف برؤيته والافتخار بالاجتماع به ولم يذهب إلى الحكام بنفسه إلا مرتين سافر من طنجة إلى تطوان لمقابلة المندوب السامى في شأن مصالح المنطقة الغمارية مع أن السبب الباعث إلى ذلك هو أن طنجة محل إقامة الشيخ كانت تحت يد الدولة الفرنسية والمراقبة الدولية والحاكم العام للمنطقة الخليفية بتطوان لا يسمح له بالقدوم إلى طنجة فلذلك اضطر الشيخ أن يشد الرحلة لمقابلته مع عظم مصاحبة تلك القبائل كافة .

وكان شديد الكراهة للرياسة ، ولمن يميل إليها ويستجبهه غايه وبعد قلبه فارغا من النور والاخلاص في الأعمال اذ لو كان نور العمل حالا بقلبه لا كسبه حب الخفاء والتواضع والاستكانة لله عز وجل ولعرفه بقدر نفسه ومترلتها من خلق الله تعالى الذين يريد ان يترأس عليهم وما يدخل على دينه في ذلك من عظيم الشر والفساد فكان لا يميل الى ما فيه رائحة تقدم أو رياسة حتى التقدم للصلاة ، بل كان يقدم لها من حضر غالبا وكذلك اذا خرج لا يترك أحدا من أصحابه يتبعه ويمشى خلفه لاسيما مع التعدد والكثرة بل يقدمهم أمامه اذا كانوا قاصدين جميعا محلا واحدا ومن أجل ذلك كان لا يمر في الشوارع العامرة لئلا يزدحم الناس للسلام عليه كما قدمناه .

وكان لا يتميز عن العامة في الملابس ولا ينفرد عنهم بشئ أصلا مما ينفرد به العلماء وأرباب المناصب والوجاهة فلا يلبس الكساء ولا البرنس ولا يركب

البعثة كما هو حال علماء المغرب ووجهائه قبل ظهور العربات ، بل وحال علماء
المشرق أيضاً فكان لا يزيد على الجلابة التي يلبسها عامة الناس لا في الأعياد
والمواسم ولا في سائر الأيام ولا يوافق على شيء من ذلك لانهجاله أيضاً
ولا يتصور ان يرى واحداً منهم متميزاً عن عامة الناس في شيء من الأشياء
أصلاً وذلك كان حال النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح والعلماء
العاملين حتى ظهر الفجار من العلماء الذين هم ليسوا على شيء وهم يحسبون
أنهم يحسنون صنعاً فترخصوا في الترف والترفة وتوسعوا في مخالفة الشريعة
والسنة محتجين لهوى نفوسهم بالمصالح المرسلات الهادمة للدين منمقين ذلك
ومزوقين إياه لالقاء الغبار في أعين العوام حتى لا يحتقروهم ويفسقوهم
لمخالفة ظاهر الشريعة ولذلك كانوا شر من تحت أديم السماء قطع الله دابرهم
ونصر الدين بهلاكهم والقضاء عليهم آمين .

وكان يكره التشبه بأهل الدنيا في الملبس والمعيشة وفراش البيت وكل
ما فيه رفاهية وترفع على الناس فلا يلبس الثياب الرفيعة الجيدة ولا الرقيقة
ولا ما فيه خيط واحد من الحرير ولا الثوب المزور كالفقطان والفرجية
ولا ما تفصيله وهياته من شكل لباس المترفين وهياتهم ولا يفعل ذلك بأحد
من أولاده وإذا أهدى له أو لأولاده شيء منها تصدق به في الحال ولم يكن
يفرش في الغرف والبيوت زرابي وسجاجيد أصلاً بل كلها مفروشة بالحصر
ومراتب التبن الإغرفة أو اثنتين فكانتا بمراتب الصوف والحصر ولما ظهر النور
الكهربائي امتنع من ادخاله مع حرص الناس عليه في ذلك مدة تزيد على
العشر سنين لأنه كان في بداية ظهوره من شأن الأغنياء والمترفين وما أذن
بادخاله إلى بيته حتى عم جميع الناس غنيهم وفقيرهم وشريفهم ومشروفهم
ولما بنى بيته وكان الواقف على البناء بعض أصحابه فعمل بمقتضى نظره زليجا
في الحائط وشبائيك ذات أقواس منمقة فلما سكن بالدار ومرت مدة أمر
بقلع تلك الشبائيك وإزالة الزليج من الحيطان حتى صار البيت في شكله
كبيوت الفقراء وعامة الناس .

وكان يفضب غضبا شديدا إذا رأى من أحد أولاده ميلا لأبناء الدنيا في التشبه بهم والسير على منهاجهم لأنه كان لا يرى ذنباً أعظم من حب الدنيا والدخول في مداخيلها والتطلع إلى أهلها ويقول لأولاده افعلوا ما شئتم فإني أرجو لكم رحمة الله إلا حب الدنيا وطلبها والتشبه بأهلها فإنه لا يرجي لكم فلاح مع ذلك وكيف ينظر الله إليكم ويرحمكم ويفتح بصائركم وقلوبكم مملوطة بحب الدنيا التي هي أبغض شيء إلى الله تعالى ونحن لا نحب منكم مالا ولا خدمة وإنما نحب أن تكونوا رجالا نلقى الله تعالى بكم في صحيفتنا وتبيضوا وجهنا مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وذلك بالعمل بالسنة واتباع طريق السلف الصالح لا بحب الدنيا والبحث عنها فان كل من في الدنيا حاله كذلك فأى فائدة للعلم والعمل إذا كنا من جماتهم وهذا من أغرب ما اختص به الشيخ رضى الله عنه وخالف به أهل عصره من شيوخ الوقت وفضلائه فضلا عن علماء الوقت الفجار الذين هم أشد الناس حباللدينا ورغبة فيها وحرصا عليها وعلى تعليم أولادهم ما يوصلهم إلى الدنيا ولو بذهاب دينهم وكفرهم وإلحادهم لا بآرك الله فيهم ولا في أولادهم فما خرب الدين إلا من جهتهم .

وكان شديد الكراهة لما فيه تشبه بالكفار ولو في الشيء اليسير ويبالغ في الزجر عن ذلك والنهي عنه ويتعجب من حال علماء مصر في التشبه بهم في لبس أحذيتهم وهيأة فراشهم ومساكنهم وفي الأكل بالشوكة والسكين وقص اللحى وحلقها ويقول ما شئتموا راحة العلم ولا وصل شيء منه إلى قلوبهم وإنما هم سامة الشر والفساد يحترفون بالعلم ويأكلون به ويضلون من يقتدى بهم لظنهم أنهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ومعاذ الله أن يكون ورثة الأنبياء مع ما هم عليه من هتك الشريعة وخراب الدين فكان لا يتصور أن يقطع أحد الخبز بالسكين على مائدته فضلا عن أن يأكل بالشوكة والسكين ولا يتصور أن يلبس حجة مما فيه تشبه بالكفار لولده الطفل الرضيع ابن شهرين فضلا عن فوقه ، بل والسكتب على كثرتها كانت عنده موضوعة وضعا عربيا

كل مجلد فوق الآخر إلى نحو عشرين مجلداً وكان دائماً يتعب في أخذ المجلد الذي يريد لا سيما إذا كان هو أسفل مجلد وطولب مراراً أن يضع الكتب على الشكل الحديث كل مجلد قائم بنفسه لسهولة تناوله فأبى لما فيه من التشبه بالفرننج فما بالك بما هو أكثر من هذا وأقرب شيهاً منه بأحوالهم ولما دخل بعض بيوت كبار العلماء ومشايخ الإسلام في مصر ورأى هيأته الفرنجية المنكورة كان يتعجب ويضحك من صنع الله بهم ولا ينقضى عجمه منهم ، ويقول لا أدري كيف يستجيزون هذا أو يرضونه لدينهم ولا دنى أي ديار يعتمدون في ارتكابه نسأل الله العافية .

وإذا كان العارف أبو الحسن ابن ميمون ألف في أواخر القرن التاسع كتابه غربة الإسلام بين المتفقهة والمتفقره بمصر والشام وما والاها من بلاد الاعجام وحكم فيه بكفرهم وردتهم ومروقهم من الدين فما بالك لو رأى هؤلاء المجرمين المتفرنجين بل هم والله شر من تحت أديم السماء كما ورد في السنة المطهرة .

فصل

وكان يكره الوظائف الحكومية وينهى عنها كل من يحبه ويأمره بالتباعد منها والنكسب بالحرفة والتجارة لا سيما خطة القضاء والشهادة فإنه كان يبالي غاية في الزجر عنها والتنفير منها ويقول لأن يبيع طالب العلم الفحج والحطب والنعناع ويدور به في الأسواق والشوارع خير له في دينه ومروءته من تولية القضاء والشهادة اليوم لغاية الشر والفساد على أهل هذين الخطتين بل كان ينهى عن مجالسة القضاة والعدول ويجعل مجالستهم دليلاً على فساد الأخلاق والتهور في الدين فقد أخبرته يوماً أني رأيت بعض أهل العلم الموصوفين بالصلاح جالسا في دكان بعض العدول فصار يبدي عجبه الشديد ويقول كيف استجاز الجلوس معهم وهو يعلم حالهم بل نهى مرة بعض أنجاله عن

المرور من الشارع الذي فيه دكاكين العدول .

وجاء اليه مرة من يخبئه بأن أحد أصحابه ولي رئاسة محكمة الاستئناف بطنجة كأنه يريد إشارة الشيخ بذلك فغضب وقال له تريد بشارتي بما يؤسف له ويحزن من أجله هذا شيء فيه اتلاف دين المرء وذهابه فلا يفرح به وجاء اليه مرة صهر له يستشير في تولية منصب خليفة القاضي بتطوان إذ عرض عليه ذلك المنصب من أهلها وأبي أن يتقدم اليه حتى يستشير الشيخ لعلمه بكرامته لذلك فمنعه منه وأمره بالتدريس ووعده إن امتثل أمره أن يفتح الله تعالى عليه بالرزق من حيث لا يعلم وأن لا يحتاج طول عمره فكان كما قال .

وكان رضى الله عنه وقافاً عند الشهات شديد التيقظ في شؤون الورع يتذبه لما لا يتنبه له غيره ويقف عند ما لا يظن بأحد الوقوف عنده من الدقائق والخفيات ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ويراجع أقوال أئمة المذاهب ويحيط بما في الأمر من رحمة وعزيمة وتخفيف ، تشديد وعند ذلك يترخص في الفعل والاذن لغيره أو يرجع جانب المنع فيتأخر عنه وعن الاذن به وقضاياه في هذا كثيرة جداً بالنسبة لامور الحادثات والمخترعات الجديدة التي تحتاج إلى بحث عن حكم الله فيها بل التذبه لمسائل الورع كان من أخص أحواله وأهم الامور عنده حتى كان ينبه العالم والفقهاء والصوفى لما كان الواحد منهم يظن أنه من أشد الأشياء موافقة للشرع وانه لا محذور فيه أصلاً فإذا ما بين له وجه ذلك تعجب من دقة نظر الشيخ وغوصه على الحقائق في هذا الباب وربما توقف من جهة التهمة وسوء الظن ويقول ان الفعل جائز شرعاً لا محذور فيه ولكن الله أمرنا أن نتباعد من مواقف التهم وأن لا نوقع المسلمين فيه وربما علم حكم الله في المسألة من جهة الدليل من الكتاب والسنة ونصوص فقهاء المذهب ولكنه يخفائه على كثير من الناس لا يأمر به حتى يقول للمسائل مثلاً استصدر فتاوى العلماء حتى لا يكون هو مستأثراً بعلمه

ومعرفته وربما توقف في نفسه حتى يسأل العلماء وهو من أعجب الأحوال وأغربها بالنسبة الى ما كان عليه من الاطلاع الواسع في الفقه بحيث لا يسكاد يشذ عن علمه منه فرع لا سيما بعد التصدي للبحث والاطلاع وتوقف في تجليد الكتب عند مجلد نصراني حيث لم يكن بالبلد مجلد مسلم فعرف حكم الله في ذلك من الدليل ووقف على أقوال الأئمة فيه ولم تطمئن نفسه دون استفتاء العلما فأمرني بارسال سؤال الى مفتي الديار المصرية وعالمها شيخنا الشيخ محمد نجيت وكتب هو رضى الله عنه الى مفتي الديار المغربية وفتيها سيدي المهدي الوزاني .

فكثبت إلى الأول ما صورته ما قولكم أطل الله رعيكم في تجليد كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها عند مجلد كافر هل ممنوع كما يؤخذ من كلام بعض المالكية إذ قال يمنع بيع التوراة والإنجيل للكفار وكذا إعطاء دراهمنا التي فيها اسم الله لهم لما في ذلك من إهانة اسم الله وكلامه أم هو جائز كما يستفاد من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل كما في الصحيح وفيها اسم الله وذكر آيات من كتابه أفيدونا بجواب كاف مبسوط بالأدلة الشرعية ولكم الثواب .

فأجاب بقوله اطلعنا على هذا السؤال ونقول قال قارئ الهداية أهل الذمة في المعاملات كالمسلمين فمجاز للمسلم فعلة في ماسكه جاز لهم وما لافلا اه وكتب الأصول والفروع مشحونة بأن الكفار في المعاملات كالمسلمين سواء لهم فيها ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكتب الأحاديث مملوءة بأنه صلى الله عليه وسلم استعان بالكفار في عدة أمور اذا علمت هذا علمت أنه يجوز للمسلمين أن يعاملوهم بجميع المعاملات من بيع وشراء واستصناع أهل الحرف منهم كما يجوز لهم ذلك مع المسلمين ولذلك لما كان مدار المعاملات على الدراهم والدنانير وكانت تلك في صدر الاسلام عليها تماثيلهم لم يستكف المسلمون عن تداولها والمعاملة بها فيما بينهم وفيما بينهم وبين الكفار المتوطنين معهم

في دار الاسلام كما لم يمتنعوا من مبايعتهم واستصناعهم كما أن عبد الملك بن مروان لما ضرب الدراهم والدنانير في عصره كتب عليها بعض آيات قرآنية لسبب أمر مذكور في التواريخ تداولها الناس كافة وتعاملوا بها بلا فرق بين مسلم وذمى ومن هذا يعلم أن تجليد كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها من الكتب المشتملة على بعض آيات من القرآن وبعض الأحاديث عند مجلد كافر أن هذا من قبيل الاستصناع واماما نقل عن بعض أئمة المالكية وهو قوله يمنع بيع التوراة الخ . فمثله ايضاً موجود في كتب الحنفية قال في شرح السير الكبير لا ينبغي للامير أن يبيع التوراة والانجيل والزبور من المشركين مخافة أن يضلوا به فيكون هو السبب في فتنهم واصرارهم على الكفر وذلك لارخصة فيه وكذلك لا يبيع من مسلم وكذلك لا يقسمه بين الغائبين وأما الدراهم والدنانير فلا بأس بقسمتها ويبيعها قبل أن تكسر ألا ترى أن المسلمين يتبايعون بدراهم الأعاجم وفيها التماثيل والتيجان ولا يمنع أحد من المعاملة بذلك وإنما يكره هذا مما يلبس أو يعبد من دون الله من الصليب ونحوه اه . ولا شك أن هناك فرقا بين الاستصناع وتجليد الكتب لأن المقصود منه مجرد هذا العمل لا غير ، واما بيع التوراة ونحو ذلك فالمقصد التمليك نعم لا يجوز ان يجلد القرآن لأن مسه للمحدث مكروه تحريماً او حرام لما فيه من مس الكافر له عند التجليد ولا شك في انه محدث اما حدثاً اصغر او كلا من الحديثين هذا ما رأيناه والله أعلم اه .

وأجاب الثاني بقوله وأما تجليد النصراني للكتب فيظهر أنه لا بأس به إن لم يظهر منه مكروه في تجليدها لحل أمرهم على الطهارة في الأشياء التي يتناولها وقد تذاكرت مع بعض العلماء المشاهير هنا فقال لي لا بأس بذلك ويمكن اسكم النظر فيها إذ يرى الحاضر ما لا يرى الغائب .

وكان لاياً كل طعام الكفار ولا حلواهم وسمعتهم مرة يقول من نعم الله على أنى ماذقت الشكولاتة في حياتي ولما توجه إلى القاهرة مكث طول مدة السفر لاياً كل إلا الخبز والزبدة ولا ياكل ما يقدمه أهل الباور من الأطعمة الفاخرة

لأهل الدرجة التي ركب فيها ولا من المباحة مثل السمك المقلّي والبيض
والخضروات ونحوها

وكذلك لا يستعمل دواءهم إذا مرض خوفاً أن يكون فيه خمر أو نجاسة
مع أنه كان يأمر غيره بالتداوى عندهم وتناول أدويتهم لكنه لا يستعمل ذلك
في نفسه وكذلك كان لا يترك في بيته آنية أو ثوباً فيه صورة ولو غير مجسمة
وكم أبدى عجبه حين زار بعض كبار العلماء بمصر ورأى في بيته انصاف صور
الرخام المجسمة كما كان يتعجب من لبسهم للقفاطين التي سداها قطن ولحمها حرير
ولا يتفق له ما يراه من أحوالهم مع العلم والعمل به

وكتب إلى مرة وأنا بالقاهرة يقول وتغييركم اللباس به حيث اضطررتم إليه
لعدم ملبوس المغاربة هنا كما لا بأس به ولكن ولا بد ولا بد اجتنب ما يترخص
به علماء مصر من الحرير الكثير الذي يستعملونه في ملابسهم فإن ذلك من
أقبح ما يرتكبونه من رخصهم البعيدة من متانة العلم والدين المحبوبة
للشارع اهـ

قال في النسمات لما ترجم لورعه رضى الله عنه كان قويا في دينه محافظا على أوامر
الشرع واقفاً عند حدوده آخذاً بالعزائم تاركا للرخص لا يقدم على الأمور حتى
يعلم حكم الله فيها ولا يتناول من الأشياء إلا ما تحقق حليته واتضح حكمه
وبانت سلامته ولا يخوم حول ما وقع فيه التردد والشبه بل كانت جميع شئونه
مبنية على ما هو خالص من الشبه سالم من الاعتراض ظاهراً وباطناً وكان في
الظاهر متقيداً بمذهب مالك رضى الله عنه وفي حقيقة الأمر كان مجتهداً يأخذ
الأحكام من أصلها والحقيقة من عينها ومع ذلك فكان لا يخرج عن مشهور
المذهب لا في نفسه ولا في فتواه لغيره إلا لضرورة وذلك لِكَماله وتحفظه
وشدة ورعه وسلوكه طريق الجمهور الذي هو قول العامة من الفقهاء وكان
يتورع في جميع شئونه من أكل وملبس ومسكن وكلام وقد كانت تهدي إليه
أشياء من ما كولات وملبوسات فلا يتناول منها إلا ما تحقق سلامته من
الشبهة والحرام وما رأى فيه شبهة أخرجه وتصدق به في الحال وكان راسخ

القدم في هذا المقام لا تحركه الرياح العواصف ولا تعمل فيه المطامع ولا تستميله الحظوظ ولا تستفز الرخص فما رأيت أحداً ممن اجتمعت به من علماء الوقت وشيوخه وصلحاءه أعلى همة ولا أكمل ورعاً ولا أكثر عن الله فهما ولا أعظم بالله استغناء ولا أشد له محبة وحرمانه تعظيماً من سيدنا رضى الله عنه فلا يعول في جميع أموره إلا على مولاه ولا يطلب حوائجه إلا من الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يستعين إلا به ولا يأخذ إلا من الله ولا يعطى إلا الله قد سقط الكون من نظره وثبت الحق في مشهده وسره قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً

وكان لا يكثر من تناول الشهوات ولو كانت مباحة سالمة من الشبه والعلل ويحث على عدم تناولها وعلى التقلل منها ويذم المسترسل فيها لاسيما إذا كان من طلبة العلم وأهل الطريق بل يستدل بذلك على عدم انتفاع الطالب بعلمه والفقير بتصوفه وذكره ويتعجب من حال علماء الوقت وصوفيته في ذلك .

فصل

وأما زهده في الدنيا وبنهضه لها وإعراضه عنها وعمما يقرب اليها فأمر يعترف به الموافق والمخالف من المسلمين والنصارى رجال حكومة الدولتين الفرنسية والأسبانية فقد سلكوا معه كل مسلك وعرضوا عليه من الأموال ووسائل الحصول عليها ما يصير به أغنى أهل المغرب فما رفع اليهم رأساً ولا أجابهم الى مطلب ولا إسكت عن المعارضة ونشر ما يقتضيه الدين من الدعاية ضدّهم في الدروس العمومية والمجالس الخاصة والعامة والسعى في ذلك بالأقوال والأفعال وبذل الأموال إلى أن أيس من المسلمين وتحقق من مراد الله فيهم فعند ذلك لزم بيته وأقبل على شأنه وترك الأمر لله بدون معارضة فجمع بين الشريعة والحقيقة وامتلأ أمر الله تعالى في الأول والآخ وحرك سلسلة الأسباب فلما علم أن مراد الله من خلقه في الوقت ما هم عليه ألقى مقاليد

التسليم وصار ينتظر ما يبرز من الحضرة الالهية بدون حركة ولا تسبب متمسكا بعروة انتظار الفرج بالصبر عبادة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم
وقد قدم اليه مرة المندوب الأسباني أربعين الف ريال أسبانية ليوافق على تولية بعض الظلمة الجائرين على القبائل الغمارية ، فقال له : لو ملأت لى هذه الغرفة ذهباً ما وافقت على تولية رجل يظلم المسلمين ويسلب اموالهم ويسفك دماءهم فازداد عظمة وجلالة في اعينهم حيث لم يرفع راساً لما قدموه اليه من ذلك القدر العظيم الذي من كان يمتلكه في ذلك الوقت كان من اعظم الاغنياء ، لا سيما والرجل المذكور كان متولياً للحكم ، وانما كان الشيخ ينازع في توليته ويطلب عزله من الحكم لفرط اذايته للمسلمين .

وخاطبته دولة فرنسا مراراً على يد سماسرتها بأنها ستمد له يد المساعدة في المغرب بأسره وترفع من شأنه على جميع شيوخ المغرب وتساعد على نشر طريقته وكثرة أتباعه وتسهيل مصالحه ، فكان يجيب عن ذلك بالذم الشديد لها والتصريح البالغ المنتهى في ذلك بما لا يستطيع احد سماعه فضلاً عن النطق به ، لا سيما مع سماسرتها الذين هم عندها بمنزلة الوزراء وعظماء رجال الدولة لحقارة الدنيا في نظره وعلمه بدسائس فرنسا وما تقصده وراء ذلك من القضاء على المرء وهلاك دينه .

واما السلطان عبد الحفيظ فلو اجاب رغبته الا كسيدة في الاجتماع به ولو مرة واحدة لا غناه ، وقدم اليه من كرائم الاموال ما لا يقدمه ملك لملكه فقد مكث ازيد من شهرين يتملق ويرغب ويتوسل بكل الوسائل فما اجابه إلى ذلك ولا راعى فيه الوسائل والشفعاء الذين طال ترددهم اليه وإلحاحهم عليه في الاجتماع لأخذهم الاموال الكثيرة على ذلك من عبد الحفيظ .

وكانت عنده رسوم معادن للفضة والحديد وانواع اخرى بالبلاد الغمارية فخاطبه بعضهم مراراً في مباشرة امرها مع الحكومة والشركات فكان يجيب بأنه لا يرشد الكفار إلى معادن المسلمين ولا يكون السبب

في تمسكهم إياها ، ولما كثر الالحاح والطلب عليه اضاع تلك الأوراق
والرسوم .

وكان كثير من الفقراء يهدون اليه الأراضى ويكتبون له الاثلاث فيرد
ذلك ولا يقبله كما أنه زهد في ميراث أبيه فما سأل عن شيء منه قط لا عن
رقبته ولا عن إيراده من الزيت والحبوب وغيرها في أمثال هذا مما لم نسمع
به عن أحد من أولياء العصر وشيوخه الصالحين فضلا عن دونهم من
الدجاجلة المتمسحين فقد اغتنى جلهم بالمغرب وبلغت رؤوس أموالهم
الملايين وامتلكوا القرى والضيايع حتى قال لى بمضى الفضلاء يوماً وهو
يحدثنى عن غنى بعضهم أنه جمع من الدنيا ما لم يدخل بيد جميع أسلافه من
ظهور الاسلام الى اليوم بل لو جمع ما دخل بيد جميع أسلافه لما بلغ نصف
ما امتلكه هو وحده كل هذا نلوه بموالاتة فرنسا وموافقتها على أغراضها
وخدمة سياستها وتشيت قدمها في المغرب وتحكمها في رقاب المسلمين حتى
صار شيوخ الطريقة بالمغرب كلهم جواسيس وعيون على حركات المسلمين العامة
والخاصة نسال الله العافية بمنه .

ومن زهده في الدنيا وحقارتها في نظره عدم اهتمامه بشؤون البيت
ولوازمه الضرورية فكانت الأيدي السكثيرة كلها عاملة بما تهواه فكل يطبخ
ما يشاء ويأكل ما يشاء ويأخذ ما يشاء متى شاء فكان يحصل بذلك ضياع
كبير فوق الحاجة في أمور المعيشة والأواني والملابس بما كان يعرض غيره
للاطلاع عليه وهو لا يهتم بشيء من ذلك ولا يفكر فيه ولا يجعل لذلك التضييع
والاسراف حداً ولا يلتقى له بالا كأنه غير موجود في البيت بل هو رضى الله
عنه غائب عن كل ذلك مشتغل بربه هائم في مراقبة جلاله وشهود جلاله
لا يتكدر للدنيا كلها لو خرجت من يده فضلاً عما هو في بيته .

ولما شرع في عمارة البيت لسكنائه كلف به أحد الفقراء وصار كلما يفتح
الله به يدفعه له ولا يسأله عما دفعه ولا ما بقى ولا يأخذ منه حساباً ولا يكلمه

في ذلك أصلاً ولا يأمر في البناء بكيفية ولا يشير الى حاجة ولا قدم اليه يوماً ليراه حتى تم ودخل يسكنه مرة واحدة ثم لما ضاق البيت اشترى دوراً كانت مجاورة له وأدخلها فيه بهذه الطريقة مع فقير آخر وهو رجل مسرف لا يخاف الله ولا يراقبه في خلقه فكان يصرف من المال الذي يدفعه إليه الشيخ لأجل البناء ما يشاء في أغراضه الفاسدة وشهواته الساقطة والشيخ يعلم بذلك فلا يرده عنه وعن المعاملة معه كما كان بل قال يوماً لمن كلمه في شأن ذلك من يوكل لا يخاصم نحن فوضنا إليه فلا تناسبه ولا نراقبه ثم لما طالت الشكاية وكثر الكلام من الناس أشرك معه بعض من كان يدخل اليه كل يوم بعيوب ذلك المكلف وجعل المال تحت يدهما معا فكانا يصرفان منه جميعاً في شهواتهما وأغراضهما وانضم اليهما ثالث فكان كذلك والشيخ رضى الله عنه لا يزيد على الضحك اذا اخبر بشيء من ذلك .

ودخل بيده مرة احد عشر الف ريال فأرسل اليه بعض الفقراء يطلب منه ان يدفعها اليه يتجر بها ويقلبها من سكة الى اخرى ثم يعيدها في اقرب وقت ، فكثت عنده سنتين وادعى أنه خسر في التجارة والنفقة فذهب جميعها ولم يبق منها قرش واحد . فتعجب الشيخ من حاله وحرصه على الدنيا وعلم ان الدنيا هي منتهى نظره وقصده من صحبتته فما كلمه بكلمة واحدة ، بل زاد فأرسل اليه خمسمائة ريال لبعضهم يقول له أمنها لنا عندك حتى يظهر ربها فادعى بعد أيام أنها سرقت من الدكان مع ان الدكان داخل وكالة لها باب عليها خفير ينام بالوكالة ساهرا على الدكاكين ، فما تكلم بكلمة مع ظهور كذبه كالشمس في رابعة النهار ، بل قال حيث إنهم لم يريدوا من صحبتنا الا الدنيا فدعهم يأخذون ما وجدوا منها فليست الدنيا كلها بشيء حتى نتكدر لأجلها . ووقائعه في هذا كثيرة جدا لا تكاد تحصى .

وفي أواخر عمره بلغ في الزهد فيها الى حد لا يسك عنده منها درهما واحداً أصلاً ويبيت دائماً وليس في داره قرش واحد . بل كان كلما فتح الله

بشيء أنفقه في الحال ودفعه في الديون التي تترتب عليه لأصحاب الدكاكين التي يأخذ منها الثياب التي يتصدق بها ويكسوها من يقصده من القرابة والغرباء في اللباس وأصدقة الزواج ونحو ذلك أو للرجل المكلف بالنفقة على البيت وكان لا يسأله عن شيء ولا يعين له ما يشتري ، بل كان الرجل يشتري الطعام اليومي بنظره وشهوته والشيخ لا يعلم به ولا بما يطبخ حتى ينزل بين يديه .

وكان لا يحمل معه النقود أصلاً لا في الحضر ولا في السفر ، بل إذا كان مسافراً يدفع كل ما عنده لمن يصحبه في السفر ويكون مكلفاً بثوونه ، وكان لا يعمل في ثيابه جيئاً أصلاً حتى أنه كان يضطر أيام تدريسه الدروس المتعددة متصلة في وقت واحد إلى حمل ساعة معه ليعلم الوقت الذي ينهي فيه درس النحو ويشرع في درس الفقه وكذلك بعده درس الحديث فكان يضع الساعة في تسكة السروال .

وكان لا يأكل في اليوم إلا مرتين يفطر في الصباح ويتغدى بعد العصر ولا يتعشى لا في صيف ولا في شتاء . ويستقبح ثلاث أكالات في اليوم ويقول أنها من السرف والشرة .

وكان إذا أراد شراء ملبوس لا يختاره أيضاً لا ثوباً ولا لوناً بل يكلف من يشتري له الثوب ويخيطه ويأتيه به فيلبسه كيفما أتى به على النحو الذي يلبسه وكان لا يكثر من الثياب ولا يزيد على ثوبين إذا اتسخ أحدهما دفعه للغسل ولبس الآخر .

وكان لا يتخذ اللباس للزينة بل للحاجة والضرورة فإذا كان عنده ثوب جديد حسن وعليه ثوب دونه أو بدا عليه أثر الاتساخ وأراد الخروج فإنه لا يتزع الثوب الذي عليه ويلبس الثوب الجديد أو الغسيل من أجل مراعاة الناس بل يخرج بالثوب الذي اتفق عليه ساعة الخروج كيف كان .

وإذا أتى بلباس جديد أو حذاء جديد لبسه وتصدق بالذي كان يلبسه
قال في السمات وأما زهده رضى الله عنه فكان على التحقيق والحقيقة
على نعت ما وصف به المحققون من أهل الطريقة متخلقا به ظاهراً وباطناً
لا يتوسع في مأكله ولا يترقه في ملبسه ولا يتأنق في مسكنه بل كان آخذاً
من الجميع ما تقوم به ضرورة الحياة مقتصرًا على ما لا بد منه نابذاً للملذوذات
والشهوات فلا يعبأ بالدنيا وأهلها وزهرتها ومتاعها استوى عنده وجودها
وفقدتها فإن وجدها أنفقها فيما أمر الله بانفاقها فيه بل آثر منها على نفسه
وعياله وإن فقدتها رضى بمراد الله وفهم عن الله فيه فلا يفرح لوجدانها
ولا يحزن لفقدانها وهذا هو حقيقة الزهد كما قال ابن عطاء الله رضى الله عنه
في التنوير للزهد في الدنيا علامتان علامة في وجودها وعلامة في فقدتها
فالعلامة التي في وجودها الايثار منها والعلامة التي في فقدتها وجود الراحة
منها فلا يثار شكر لنعمة الوجدان ووجود الراحة شكر لنعمة الفقدان وذلك
ثمرة الفهم عن الله والعرفان لأن الحق سبحانه كما ينعم بوجودها ينعم بصرفها
بل نعمته بصرفها أتم .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه رأيت الصديق رضى الله عنه
في المنام فقال لى أتدرى ما علامة خروج الدنيا من القلب قلت لا أدرى قال
بذلها عند الوجود ووجود الراحة منها عند الفقد اه .

وهكذا كان حال سيدنا رضى الله عنه إذا وجدها وفتح الله تعالى عليه بشيء
منها أنفق في وجوه البر والاحسان وآثر على نفسه وعياله فيواسى به الضعفاء
وذوى الحاجات ولا يدخره ولا يسلك فيه مسلك الراغبين في الدنيا من
صرفه في الشهوات والملذوذات بل كانت همته رضى الله عنه في الباقيات
الصالحات .

وكان دائماً ينظر إلى الدنيا بعين الالهانة والاحتقار وينفر منها ويحذر
من محبتها واستغراق العمر في طلبها ويقول إذا كان الفقير يتردد الى أبناء

الدنيا ويجالسهم لا يجيء منه شيء في الطريق ولا يطعم في وجود قلبه ولا في حلاوة الاقبال على ربه لان أبناء الدنيا أموات القلوب ومن خالطهم مات قلبه مع من تكون بحاله تكون .

وكان رضى الله عنه يقول مثل الدنيا مثل من يضرب بالحجارة فما يخطئه منها خير مما يصيبه .

وكان إذا لبس ثوباً جديداً تصدق بما عنده وكان يأمر أزواجه وأولاده بذلك ويقول لهم إنكم لن تزالوا فى سعة ونعمة وستر أحياء وأمواتاً ما فعلتم ذلك . ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال ووعد به . فكان بمقتضى هذه السيرة الحسنة تترادف عليه النعم الجزيلة والخيرات الجسيمة وتحفه العيشة الراضية الطيبة .

ومما يدل على صدق زهده فى الدنيا اننا منذ جمعنا الله به وخالطناه ما يزيد على الثلاثين سنة ما سمعناه يذكر الدنيا الا بلسان الذم والاحتقار . وكان متبرياً من الدنيا وزهرتها وابناً متصلاً بها بجسده منفصلاً عنها بقلبه وروحه . لا يدعى لنفسه ملك شيء منها بل يرى نفسه مستخلفاً فيه فيضعه بين إخوانه ويجعلهم شركاء فيه .

وكان يقول : الأخ الحقيقي هو الذى لا سر عنده مكتوم ولا مال مقسوم .

ومما يدل على زهده فى الدنيا أيضاً اننا ما علمنا ولا سمعنا أنه تكلم على متروك أبيه وأجداده الكرام أو بحث عنه أو عرض بذكره داراً وعقاراً أو حبساً أو غير ذلك بل ألغى جميع ذلك وصيره نسياً منسياً كأن لم يكن وتركه لاخوته ينتفعون به . وبالجملة فزهده هذا السيد رضى الله عنه فى الدنيا شيء كبير لا طاقة لنا باستقصائه كما لا قدرة لنا على معرفة ما كان عليه من حقيقته وانما أشرنا إلى هذا النزر القليل من زهده تبركاً بذكره اه .

فصل

وأما توكله رضى الله عنه فكان توكل كبار العارفين وأفراد الأمة
الشمسية الذين أطلعهم الله على اللوح المحفوظ فشاهدوا فيه رزقهم وحصل
لهم بذلك الاطمئنان التام كما قال العارف الكبير سيدى أفضل الدين رضى الله
عنه : إن للعبد في أمر الاضطراب في رزقه ثلاث مراتب .

الأولى : وهى التى تقع بها الطمأنينة لقلبه ويزول بها الاضطراب بما
زاد على الجزء البشرى اطلاعه على الامام المبين الذى أحصى الله تعالى فيه كل
شئ فان جميع ما كتب فيه لا يصح فيه تبديل ولا تغيير ولذلك سمي
باللوح المحفوظ أى من المحو والتبديل بخلاف ألواح المحو والاثبات فانها تقبل
التبديل والتغيير . فمن رزقه الله الاطلاع على هذا اللوح اطمأن قلبه برزقه
ضرورة وهو خاص بأكابر الأولياء . قال وإنما قيدنا زوال الاضطراب
بما زاد على الجزء البشرى تبعاً للمحققين لأن حجاب الجزء البشرى لو
زال بالكلية من الأولياء لما كان للأنبياء زية عليهم كما أن الانبياء لا
يصح لهم الاحاطة بجميع ما أحصى الله تعالى فى الامام المبين فلا بد لهم
من الحجاب عن شهود شئ فيه لئلا يساوى علمهم علم الحق تعالى ولا
قائل بذلك وغاية ما فى اطلاعهم عليه أن الله تعالى أزال عنهم الاضطراب
ليتميزوا عن غيرهم من أكابر العارفين .

المرتبة الثانية : أن يكون مطمئح بصر العبد ألواح المحو والاثبات
الثلاثمائة والستين لوحاً ومن لازم ذلك عدم الطمأنينة لقبول هذه الألواح
التبديل والتغيير فلا يثق الولي بما يراه فيها .

المرتبة الثالثة : أن لا يكون له اطلاع على اللوح المحفوظ ولا على الواح
المحو والاثبات كغالب الناس فمثل هذا لا يسلم قلبه من الاضطراب بغالب
أجزائه ولم يزل مهتماً بأمر رزقه ليلاً ونهاراً ولكن من نعم الله تعالى على

أهل هذه المرتبة أن جعل اهتمام أحدهم برزقه مكفراً لذنوبه اه نقله العارف
 الشعرائي رضى الله عنه في الفلك المشحون ، ثم قال وعلى هذا التقرير فما سلم
 أحد من اضطراب قلبه في أمر رزقه سوى الأنبياء عليهم السلام ، وأما غيرهم
 فإن حفت أحدهم العناية الربانية تعطلت منه صفة الاضطراب عن الاستعمال
 والا فلا بد من الاضطراب اه .

قلت : فكان الشيخ رضى الله عنه من أهل المرتبة الاولى وممن حفته
 العناية الربانية فتعطلت منه صفة الاضطراب فكان شأنه في هذا الباب من
 أعجب ما رآه الراؤون وأغرب ما يسمعه السامعون حتى كأنه من أعظم ملوك
 الدنيا وأكبر أغنيائها لا يهتم برزقه أصلاً ولا يفكر في أبوابه ولا يذكره
 على لسانه مع أنه لا يملك ديناراً ولا درهماً ولا داراً الا التي يسكنها ولا
 أرضاً الا ما ورثه من أبيه وقد سامح فيه لآخوانه مع أنه شيء لا يذكر
 بالنسبة لضعف البلاد وعظم نفقة الشيخ ولا يزرع ولا يتجر ولا له وظيفة
 ولا مرتب ولا معلوم الا قدراً بسيطاً كان يأخذه من الأوقاف في بداية
 أمره وتدرسه مما لا يكفي لمصروف وقت واحد فضلاً عن يوم كامل فضلاً
 عن شهر كما هي حالة الأوقاف بالمغرب للضعفها وقلة وفائها بحق أهلها ، بل
 لفساد ولايتها واستثمارهم بها هذا مع ما كان في بيت الشيخ رضى الله عنه
 من العائلة الكبيرة المؤلفة من أزيد من عشرين نفساً دون الضيوف من
 النساء والرجال الذين لا يخلو يوم واحد منهم من اثنين وثلاثة الى عشرة
 وعشرين ، ومع كونه لا يلتفت الى ما يحصل في البيت من إسراف وتبذير
 مفرطين بحيث ما كان يستهلكه أهله من أنواع الأطعمة ولوازمها ضعف
 أضعاف ما يستهلكه مثلهم في العدد في بيوت الأغنياء وأهل الدنيا ومع
 كونه أيضاً لا يدخر قوت أسبوع فضلاً عن شهر فضلاً عن سنة بل كل يوم
 بنفقته وكثيراً ما يتفتن أن يكون عنده من الضيوف ما يزيد على العشرة بل
 والعشرين ويصبح وليس في البيت مطعوم أصلاً ولا عنده كذلك دينار ولا

درهم وهو فرح مسرور غير مهم بشيء كأن خزائن البلد عامرة برزقه
وملكه وربما زجر من يذكر له ذلك أو يذكره بالضيوف بل إذا أصبح
دخل الى مكتبته وأقبل على المطالعة فلا تمر برهة حتى يفتح الله بكل ما يلزم
وأكثر منه وأحياناً اذا دخل الضيوف أرسل يستدين ما يلزم لطعامهم وربما
استمر على ذلك الحال الاسبوع والاسبوعين والشهر الكامل فإذا فتح الله
أدى ما عليه ومع كل هذا فكان أهله لا يأكلون الا اللحم والسمك
والبيض ونحو ذلك من فاخر الأطعمة التي لا يدركها كل يوم الا الأغنياء
وهذا هو الذي حير الناس في أمره حتى كانوا يظنون به الظنون الكاذبة
ويقولون ان الدول تنفق عليه لأنه ما كان يتحرك في شيء ولا يسبح في
المدن والقبائل كما يفعله شيوخ الوقت ولا يخرج من بيته أصلاً مع هذه
النفقات الكثيرة وهذا أيضاً هو الذي كان يثير عليه حقد الدولتين الفرنسية
والاسبانية لان كل واحدة منهما كانت تتهمه بالميل الى الاخرى وخدمة
مصالحها وكونها هي التي تنفق عليه .

وقد اجتمع الشيخ مرة ببعض حكام الاسبان فقال له ذلك الحاكم نحن
يبلغنا أنك تأخذ الدراهم من الفرنسيين لتكون ضدنا فقال له الشيخ وهل
أخذ منكم دراهم قال لا قال فكذلك لا أخذ منهم لأنهم يقولون أيضاً
إني أخذ منكم لأكون ضدكم فان كان زعمهم أني أخذ منكم المال حقاً
فيمكن أن يكون ما تقول حقاً أيضاً وحيث إنك تعلم أني لا أخذ منكم
شيئاً وأن زعمهم باطل فكذلك زعمكم أيضاً باطل .

وسأل مرة بعض كبار المتصدرين للمشيخة بالمغرب بعض قرابة الشيخ
رضي الله عنه فقال له بكم من زوج يحرث الشيخ فقال له ما حرث طول
عمره ولا بزوجة واحدة ولا يملك مزرعة ولا ثورا ولا بقرة ولا بيتاً وإنما
هو من المتوكلين على ربه فقال له هذا لا يمكن فان ما سمعته عنه من النفقات
الواسعة لا يتيسر الا لمن عنده على الاقل حرث أربعين زوجاً فأكثر فقال

له الواقع هو ما أخبرتك به وأنه لا يعلم من أسباب الرزق شيئاً فما كاد يصدق وقوفاً مع العادة والأسباب ونظراً إلى حاله وحال أمثاله من الشيوخ والعلماء .

وقال بعضهم للشيخ رضى الله عنه مرة يا سيدى لو خفت من الناس الذين فى نفقتك فان الحمل ثقيل والوقت شديد فقال له ان السفينة لا يستقيم سيرها فى البحر وتأمين تلاعب الرياح بها حتى تكون عامرة مثقلة .

وبالجملة فحال الشيخ رضى الله عنه فى هذا الباب من أغرب الاحوال وأعجب الاوصاف لبالنسبة الى حال أهل الوقت وصلحاتهم بل وحال المتقدمين أيضاً من العارفين . فقد ذكر العارف الشعرانى رضى الله عنه أنه كان له ووقفة يأخذ منها ما يلزم للزاوية وأنه كان يدخر كل سنة نحو عشرة قناطير من عسل النحل وعشرين قنطاراً من عسل القصب وثلاثمائة أردب من القمح وأربعين أردبا من الفول وسبعة أرادب من الارز وخمسة وعشرين أردبا من العدس والجلبان وخمسة قناطير من التمر والخرنوب والتين وأشياء اخرى كالبطيخ الهندى كان يدخر منه نحو ألفى بطيخة وكان يأتيه كل سنة من الحطب ما يكفي للطبخ طول العام الى غير هذا من اللوازم والضروريات . ومع هذا فذكر عن نفسه رضى الله عنه أن ذلك الجزء البشرى لم تتعطل صفة منه تماماً . أما الشيخ رضى الله عنه فقد سمعت الى اى حد بلغ اطمئنانه وثقته بالله مع عدم ادخاره لقوت الاسبوع فضلاً عن السنة .

قال فى النسمات : وأما توكله فكان على الحال الاكمل عند أهل الله تعالى لا يدبر ولا يختار منطرحاً على باب مولاه على الدوام والاستمرار مستسلماً لامره معتمداً عليه فى سره وجهره فلا يهتم بأمر الرزق ولا يدبر ولا يسعى فيه لا لنفسه ولا لعياله بل كان يرى نفسه هو وعياله ضيوف الحق سبحانه يأكلون من مائدة رزقه ونواله متوكلاً على الله حق توكله

في جميع أحواله شدة ورخاء وعافية وبلاء لا يستدعى طبيباً إذا مرض ولا يستعمل في الغالب دواء وكان يقول في مرضه إذا قيل له نستدعي لك الطبيب . مرض أبو بكر فقيل له ألا نستدعي لك الطبيب فقال الطبيب أمرضني يعني الحق سبحانه وتعالى لانه الطبيب الحقيقي اى هو الذى أنزل في المرض وهو الذى يعافيني حين يشاء لا غيره من المخلوقين وهذا مقام الكمل من العارفين بالله .

وكان دائم التبسم والبشر والوجه الطلق وان كان متحملاً باطناً من الاحكام الجلالية والنوازل القهريه والحملات البلائية عن الخلق ما لو نزل على شوامخ الجبال لدكت .

وكان لا يختار حالاً على حال بل كان مع مولاه كلميت بين يدي غاسله . وكان يقول : العارف المحقق لا يختار مع الله شيئاً فلو أقامه في الشمس ما اختار أن يكون في الظل ولو أدخله السجن ما احب ان يكون خارجه وذلك لفناءه عن نفسه وحفظه وبقائه بربه وسكونه تحت مجارى أقداره اه .

فصل

وأما السخاء فكان منقطع النظير فيه لا يعظم في عينه شيء يعطيه من مال وأرض وعقار وكتب وثوب وطعام وغير ذلك بل كان عطاؤه للآلئ كعطاء غيره للقرش الواحد بل أهون من ذلك بكثير فان الدنيا لم تكن تساوى في عينه شيئاً فكان لا يقيم لها وزناً كما تعرف ذلك مما تقدم في زهده وتوكله ويكفيك انه كان يستدين ليعطى سائله بل ومن يرى احتياجه دون أن يسأله .

فكان في غالب أوقاته مديناً لأصحاب الدكاكين الذين يبيعون الثياب

والاقمشة والاحذية يأخذ من كل واحد ما عنده ليعطيه للقاصدين والمحتاجين لاسيما
 أواخر عمره فانه مكث سنين وأعواماً لا يأتي عليه فيها يوم لا يكون مديناً
 لهم مع أنه دائم الدفع لهم حتى توفي وترك أزيد من عشرة آلاف ريال
 وكان يقول من استدان فليستدن على ربه فانه لا يبد أن يؤدي عنه .

أما إذا دخلت بيده دنيا كثيرة فانه كان يفرقها في الحال كما كان النبي
 صلى الله عليه وسلم يفعل وكما وصف به صلى الله عليه وسلم المهدي يحثو
 المال حثياً ولا يعده عدداً وقد أعطى مرة رجلاً ثمانية آلاف ريال اشترى بها دارين
 أو ثلاثة وأعطى آخر أزيد من خمسة عشر ألفاً أما الألف والخمسةائة والمائة
 مما كان يتيسر لديه فغير داخل تحت الحصر ما أعطى من ذلك

وكذلك كان يجود بأحب الأشياء اليه وهو الكتب حتى إن بعضهم اجتمع
 لديهم مما أعطاهم من الكتب ما يكفيهم في الفنون التي يعرفونها من نحو وفقه
 وحديث وتصوف وغيرها

وبالجملة فكان في السكرم من الطراز الذي يضرب به المثل وتذكر أخباره
 مدونات الأدب والتاريخ

قال في نبذة التحقيق وأما سخاؤه وكرمه فحدث عن البحر ولا حرج فقد
 ثبت عندي من ثقات أصحابه وغيرهم حتى من المنحرفين عنه أنه كان لا يمسك
 قوت يوم لغده وربما استسلف ما يعطيه لمستحق وهذا خلق فيه على ما بلغني
 مندسب وقد كان في بدايته على أثر مدوده لطنجة يهاديه أهل الفضل خصوصاً
 المنتسبين إلى طريق سلفه فلا يمسك من ذلك شيئاً غالباً وساعة السرور عنده
 هي التي يبذل فيها ما بيده لغيره

حكى لي من أعتد صدقه من أحبائه أنه رأى عليه في بعض الأيام جلابية
 ظهر عليها اثر القدم فاشترى له أخرى وأتاه بها قال فبينما أنا معه بالطريق نظرت
 إلى يده فاذا الجلابية ليست معه فسألته عنها فقال أعطيتهما لفقير طلبها مني قال
 فذهبت في الحين واشتريت ثوباً وخطت له منه أخرى ثم جئت بها إليه

والحجت عليه أن يلبسها في الحين فأجاب سؤالي فاستبشرت بذلك ولكن بعد يومين رأيتُه عاد إلى القديمة فلبسها فسألت عن السبب فقيل لي خرج من الدار فلقية غريب ادعى أنه شريف وتمع السيد يسأله إياها فساقه معه إلى الدار وخلق الجلابية فدفعها إليه ولبس القديمة

وجاء رجل يشتكى إليه بعض فقرائه وهو من الأشراف قائلاً إنه اشتري مني زربية بثمن وذكر قدرأ له بال وقال انها لكم ووعد أن يأتي بالثمن فلم يفعل فدخل إلى الدار وأخرج له ما كان حاضرأ عنده ووعد باللساق مع أنه لا علم له بذلك ولا أمر بشراء الزربية وهذا خلق لا يعطيه الله تعالى إلا أحب الخلق إليه وبأمثاله كان لهذا السيد الجليل مكانة عظيمة في نفوس الناس لا سيما المنتسبين .

وحضر يوماً الذكر مع أصحابه فتواجد حتى سقطت عمامته فبيعت بالمزايدة بين الفقراء بأكثر من ألف ريال عملاً بقاعدة الصوفية في بيع الثوب الخليع حال التواجد فما أخذ من ذلك المال قرشاً واحداً بل تبرع به على الفقراء إلى غير ذلك مما هو كثير ولا شك أن أمره قائم بالله وقد شاهدنا من أحواله ما هو غريب وعلى الأخص سروره وانسراح صدره حيث تكون يده فارغة فيعد ذلك من عظيم نعم الله عليه وهذا مقام عظيم لا يقوى عليه إلا من قواه الله ثم إنه لا يرى فضلاً فيما يحسن به ولا يعظم في عينه بل لا يراه إلا قليلاً وان كان في الواقع كثيراً بل الكثير والقليل عنده سواء كما شاهدنا ذلك من حاله .

ودخلت عليه يوماً فالتفت بيده جزءاً من تفسير السيد محمد صديق حسن خان القنوجي أحد أمراء الهند في وقته فلمح مني أني استحسنته فلما عدت لمنزلي وجهه إلى تمامه وهو في أربعة مجلدات بطبع الهند وهو قابل الوجود بالمغرب كما أكرم مني مرة أخرى بكتاب مطالع الزهراء في نسب بني الزهراء وهو بخط ملوكي جليل وهو للعلامة النسابة سيدي الزكي العلوي ألقه لقبه

السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام وهذا المؤلف هو المادة العظمى والعمدة الكبرى لابي العلاء الفضيلي المتوفى في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف في كتابه الدرر البهية في أنساب الحسنية والحسينية المطبوع بفاس في مجلدين هـ .

وقال في النسمات وكان رضى الله عنه على حال عظيم ووصف كبير في الكرم والسخاء والبذل والايثار قد بلغ في ذلك المنتهى ووصل إلى الدرجة القصوى يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ولا يلتفت إلى ما أعطى ولا يرى له قيمة لما كان عليه من الزهد في الدنيا والاعراض عنها والنظر إليها بعين الاحتقار قد استوى عنده ذهبها وترابها .

وكان لا يرد سائلا سأل شيئا كأننا ما كان ان كان ذلك موجودا عنده وإن لم يكن عنده استدان واعطى أو وعد السائل ووفى بالوعد وهو في كل ذلك يرى المنة والفضل للسائل .

وكان يطعم الجائع ويكسو العريان ويعين المدين ويعيث الملهوف وكان الجرم الغفير من الناس معدودين في عياله وتحت نفقته واحسانه لا سيما أهل تبحران من الشرفاء وقربته فانهم كانوا يتواردون عليه في أغلب الأيام فيسد خلتهم يشبع بطنهم ويستأبدانهم ويزوج عزيمهم ويدفع اصدقتهم ويدر عليهم الرزق الواسع ويتوسط في قضاء حوائجهم بجأه مع الحكام مراسلة ومكاتبة ، فكان هو المتكفل بجميع شئونهم ذكورا وإناثا صغارا وكبارا .

وكانت مائدته على الدوام مبسوطة للصادر والوارد وقاما يمر عليه يوم من غير ضيوف فقد كانت تتوارد عليه الجماعات من الفقراء وغيرهم من أقطار مختلفة للزيارة وغيرها فيكرم نزلهم ويحسن ضيافتهم ويطعمهم الطعام الجيد الواسع ويجالسهم ويسامرهم بالمذاكرة في العلوم والمعارف العجيبة والأسرار

الربانية والفوائد الغريبة في كل الفنون ويصبر نفسه معهم طول اقامتهم فلا
يمل ولا يضر حتى يغادروا حضرته هـ . وكان اطعامه للضيوف في
الافطار يبتدىء من وقت الضحى ولا ينتهى إلا الى ما بعد الظهر لتوارد الضيوف
واحدًا بعد واحد وجماعة بعد أخرى بحسب الوصول من البر والبحر في
الأوقات المختلفة وكلما وصل ضيف قدم له الطعام ثم يبتدىء طعام الغداء من
قريب العصر إلى ما بعد العشاء بكثير .

وكان شديد الاهتمام بالضيوف والاعتناء بشأنهم فاذا قدم ضيف أو
ضيوف لا يهدأ له بال ولا يستريح في مكانه حتى يطعموا ويشبعوا ويشربوا
الشاي وكان يأمر الخادمت أن لا يدخلن الطعام إلى الضيوف حتى يمررن
عليه به في محله ليراه خوفًا أن يكون قليلًا لا يكفي أو غير مناسب للواردين
وربما وقف ينتظر وروده من المطبخ أو يستعجل دفعه إليهم خوفًا من
التأخر والعطلة .

وكان لفسرط كرمه وجوده يحب السكراء والاجواد على أى حالة كانوا
ويرجو لهم الخير العظيم من الله تعالى ويعتنى بشأنهم ويفرح بهم غاية الفرح
ويثنى عليهم ولو كانوا على غير قدم الاستقامة ويقول إن السخى محبوب عند
الله تعالى ولا بد أن يرحمه الله ويحتم عليه بخير إذ وضع فيه هذا الوصف
الحسن الجميل ، ويستشهد على ذلك بالأحاديث الواردة في فضل السخاء
والأسخياء .

وكان يتعجب من حال أهل العلم وميلهم إلى الدنيا مع أن العلم يقتضى
العمل به وقد أمر الشرع الشريف بالسخاء والبذل والايثار وذم البخل وحب
الدنيا أشد الذم وكان يقول على سبيل المباشطة ثلاثة من عجائب الدنيا العالم
كريم والحاج صادق والحمار أحمر .

وكان لا يطالب أحدًا بحق له عليه بالغاماباغ بل اذا جاء بما عليه أخذه والا

لم يخاطبه فيه أصلا فكان يعطى بعضهم الشيء ببئس من كتاب وغيره فيأخذ
تمنه أو نصفه فلا يكلمه في ذلك ولما حج توقف غالب من كان في رفقته
لاتمام نفقة الحج فاستقرضوا منه ربما يرجعون إلى وطنهم فما أدى من الجماعة
إلا اثنان أو ثلاثة والباقي لم يدفع ما عليه فما كلم واحدا منهم إلى أن لقي
الله ولما توجه إلى الحج اكترى داره التي كان يسكنها رجل من الأعيان الأحبة
فاستمر فيها بعد رجوع الشيخ ثمانية عشر عاما ما دفع كراء ولا خطر ذلك له
بيال واشترى دارا في قرية كان نازلا بها مدة شهر فلما سافر تركها لفقرائه
من أهل تلك القرية لتكون زاوية لهم يجتمعون فيها لذكر الله تعالى فتقدم
واحد منهم وباعها وأخذ ثمنها لقضاء دين كان عليه فما كلمه ولا سأله عن
الدار بعد ذلك وهو أيضا من الناس الذين استدانوا من الشيخ بالحجاز فلم
يدفعوا ما عليهم وكم لهذا من نظير بل غالب معاملاته كانت من هذا القبيل
وكل هذا ناشىء من سقوط الدنيا في نظره مع الكرم والحلم وعظم حق
المؤمن وأخوته عنده فإنه كان من أشد الناس مراعاة لحقوق الأخوة والصحبة
يستبين في جانبها بكل شيء ويترك من أجلها كل حق من حقوقه وحقوق عياله
ويذكر دائما الحديث إن الله يسأل عن صحبة ساعة .

وكان يعطى المحتاج من غير سؤال ولا ظهور أمر الحاجة عليه ، بل كان
يفعل ذلك كسفا وفراسة فكثيرا ما يرسل للرجل شيئا وهو في بيته من غير
أن يكون ذلك الرجل معروفا بالسؤال والاحتياج فيوافق ذلك منه ساعة
الحاجة والضرورة إلى القدر المرسل من الشيخ رضى الله عنه وكذلك يأتيه
بقصد الزيارة فقط فيبادره الشيخ بالعطاء من غير سؤال ولا طلب .

وحدثني الشريف محمد نور الدين قال كنت مع الشيخ يوما فجاء لزيارته
بعض العلماء من أهل البادية فحادثه الشيخ مدة وسأله عن بعض كتب كان
جلبها من القاهرة أيام قراءته بها ثم لما استأذنه للخروج قال له اصبر فقام

ودخل الدار وأتاه بعشرة ريال وقال خذ هذه هدية منا فصار الرجل يقبل يده ويقول أشهد أنك ولي الله تعالى فوالله ما جئت إلا لهذا القدر احتجت إليه ولم أجد من أطلبه وغلبني الحياء أن أطلبه منكم .

وكان إذا أهديت له هدية ومعه جليس شاركة فيها أو دفعها إليه بتامها وهو إلا أكثر من حاله سواء كانت الهدية كتاباً أو ثوباً أو مالا وسواء كان الحاضر فقيراً أو غنياً محتاجاً أو غير محتاج ، بل كانت ترد إليه الكتب التي أوصى على شرائها من ماله من مصر أو فاس فإذا أدخلت إليه الخادم الكتاب من البريد وصادف أن يكون معه أحد من أهل العلم دفعه إليه ولو كان ذلك الكتاب موجوداً عند ذلك الزائر .

وقال صاحب حادي الرفيق كنت مع الشيخ يوماً فجاء فقير من فقرائه وهو عروس قد تزوج على يد الشيخ فأعطاه أربعة ريال هدية فرمى لي بريال منها وقال الجليس شريك فجعلته في صندوقي تبركاً به فكان سبباً في ادرار الرزق علي ولا زلت والحمد لله في سعة من ذلك الوقت ا هـ .

فصل

وأما الحلم والعفو والصفح والاحسان إلى المسيء فهو فرد زمانه فيه على الإطلاق لا يوجد في الدنيا من يدانيه فيه فضلاً عن يمانه أو يساويه فقد كان لا يتصور الانتقام لنفسه ولا يخطر له ببال ولا يعرف الغضب لنفسه وحقوقه أصلاً سواء أؤذي في نفسه أو عرضه أو ماله أو ولده أو خادمه أو قرابته وسواء أقل الشخص من الأذية أو أكثر أو بالغ أو قصر أو دام طول حياته أو اقتصر على برهة من الدهر بعيداً كان أو قريباً ضعيفاً كان أو قوياً كل ذلك عنده في الحلم والعفو والصفح عنه وإكرامه واحترامه واعظامه والبر به سواء فما كان مع من يبغضه ويؤذيه ويسعى في هلاكه إلا كما يكون

الولد البار مع أبيه ، بل ما كان يبالي في الاحترام والمراعاة ويتحمل في ذلك المشاق غالبا إلا مع هذا النوع لأنه كان يعلم من المحب الصادق ثبوت المودة وإخلاص المحبة الموجبة لسقوط الكلفة فكان يقوم بمحقوق الأخوة والمحبة على قدر مقامه وما أكرمه الله به من جميل الأخلاق لکن لا يتكلف فيها كما يتكلف للعدو المبغض الحسود فإنه لا يتأخر عن مقابله ولو كان مريضاً ولا يصرفه إلى وقت آخر ولو كان مشغولاً ويبادر إلى قضاء مطالبه واجابة رغبته من توسط وشفاعة وكل ما أتى إليه من أجله وحكاياته ونوادره في هذا الباب لا تدخل تحت الاحصاء والعد لأن غالب من كان يعامله من أهل طنجة هم من هذا القبيل لكثرة حسدهم وعداوتهم وشدة بغضهم ونفورهم من أهل الفضل .

لا سيما الشيخ رضى الله عنه فانهم ما تركوا من اذائته إلا ما لم تصل طاقته اليه وقد ذكرنا في فصل احترامه ومحبهه لأهل العلم وفصل احترامه ومحبهه لأهل البيت وغيرها حكايات من هذا القبيل .

ونورد في هذا الفصل بعض البعض مما لا يزال بذكرنا وهو قطرة من بحر ومنال معرف لما وراءه ولما كان عليه الشيخ رضى الله عنه في هذا المقام .

فمن ذلك أن أحمد المرينسى الطنجي وهو رجل مسن ذو لحية بيضاء وله حظ من العلم وتظاهر بالصلاح دسه الفرنسيون عندما حصل الخلاف بينهم وبين الشيخ وادعى أن الغيرة الایمانية وحب الانتقام والتظاهر بالعداء للكفار حثه على مخالطة الشيخ والكون من جملة أصحابه مع انه تجانى الطريقة وهم قوم لا يرون الفضل في غيرهم وغير طريقتهم ويغضون كل الطرق الحققة إلا ذوى الفضل والعقل منهم فصار يلزم مجالسه ويرد اليه كل يوم صباحا ومساء ولا يفارقه إذا خرج لدعوة دعى اليها او غير ذلك ، بل صار ألزم له

من ظله ثم انتقل من دار سكناه البعيدة الى دار بجانب دار الشيخ تظاهرا
منه بفرط الميل والمحبة والغرض من ذلك مراقبة الحركات والسكنات والوارد
والصادر وكان كلما قابل فقيرا من الفقراء مديده الى حزامه فان وجد عنده
مسدسا قال له هكذا الرجال وهكذا ينبغي أنى من أى شكل هو وان لم ير
عنده سلاحا لومه على ذلك ووعظه بالقرآن والحديث وبالغ في ذلك تحريضا
على شراء السلاح واظهارا للغيرة والايمان والواقع أنه يحصى من معه سلاح
من الفقراء وما نوع السلاح الذى مع كل واحد منهم ويرفع ذلك الى أسياده
فاغتر به الفقراء كافة وألقوا اليه مقاتل يد أسرارهم وصاروا يقولون عنه جبل
الايمان والواقع أنه جبل الكفر والنفاق والجاسوسية وغرهم في ذلك لحيته
البيضاء وسمته وهديه وعلمه ومذاكرته بالقرآن والسنة وتقربه من الشيخ
الذى كان لا يفارقه أكثر أوقاته وكان يكافئه ببعض المهام ويرسله شفيعا لدى
الحكام لا سيما الذى أرسله جاسوسا وكان الوسطة بينه وبين الفرنسيين
فكان الشيخ رضى الله عنه يرسله اليه ظاهرا في قضية أو شفاعة والواقع أنه
كان يساعده على غرضه باطنا ويجعل له السبيل للاجتماع مع القائد الوسطة
ليرفع له ما رآه من أخبار الشيخ والفقراء مما هو حق وباطل وصدق وكذب
على عادة الجواسيس فاتفق أن عزم الشيخ على السفر الى تطوان لقضاء بعض الاغراض
المتعلقة بالقبائل الغمارية ومقابلة قوادها ورجالها بتطوان وعزم هذا الجاسوس
على مصاحبته كما هو حاله فاما كانت الليلة التى صيحتها سيكون السفر عقب
صلاة الصبح بينما بعض الفقراء مارا في منتصف الليل على باب دار القايد ابن
عبد الصادق إذ رأى المرئسى خارجا من الدار متقنعا مختفيا فالحقه الرجل
ليتحقق منه فسلم عليه فأبلس ولا أدري بم اعتذر له ثم بعد صلاة الفجر جاء
إلى الشيخ وأخبره الخبر وكان الرجل من قرابة الشيخ فسال له الشيخ رضى
الله عنه نحن نعلم ما هناك ولكن استر الرجل واكتم أمره لاتذكره لاحد من

الفقراء وكان قبل هذه المدة أرسل إليه خفية بعض كبار الحكام المسلمين الذين فيهم غيرة يقول له لا تغتر بالمرنيسى فانه جاسوس بواسطة القائد ابن عبد الصادق فما زاده كل هذا إلا اكراما وإجلالا وبرا واحتراما حتى صار يرسل إليه وقت الطعام ليتناوله معه ومع ضيوفه وصار يشتري له الأضحية في العيد ويتحفه بالهدايا الثمينة من ملبوس وغيره وترتب عليه مرة دين كبير فاداه عنه، كل ذلك وهو ظان أن أمره مستور عن الشيخ والشيخ متحقق من حاله وطرف بأمره من طرق متعددة إلى أن أراد الله فضيخته وهتك ستره في قضية طنجة المشهورة التي انفردوا بها بين العالم بأسره وهي اجتماعهم عن بكرة أبيهم باذن من القائد عبدالسلام بن عبدالصادق خادم الفرنسيين وشهادتهم في عريضة قدموها للسلطان ظناً منهم أنها ستكون السبب في القضاء على الشيخ وابعاده من بلدهم التي لم يالفوا فيها رؤية الفقراء والعلماء والفضلاء فضادت صدورهم من ذلك وأحبوا البقاء على ما ألفوه فكان المرنيسى المتظاهر بعبادة الفرنسيين نمو السبع سنين والفاني بزعمه وتصنعه في الشيخ والفقراء وخدمة الدين من أول الواضعين أسماءهم في العريضة فلما انفض المجلس جاء جماعة من الشاهدين الواضعين أسماءهم بكل وقاحة ونذالة إلى الشيخ فأخبروه بما صنعوا كالمعتدين بأنهم فعلوا ذلك خوفاً من القائد والخروج عن دين أهل البلد وأن من جملة من وضع اسمه المرنيسى الذي كان يقال عنه جبل الايمان ثم بعد برهة جاء هو يجري على عادته وتفاقه يسب أهل طنجة وقائدهم الفرنسي وما فعل من العريضة فمما جاد بعض الفقراء بالياباب قبل أن يطلع إلى الشيخ بأنه قد سبقك فلان وفلان وأخبروا أنك من جملة الواضعين أسماءهم فقال نعم لما عرضوا على تلك العريضة وقرأت ما فيها كتبت: هذا بهتان عظيم فقالوا له لو كانوا صبيانا يلعبون لما استطعت أن تكتب لهم هذا فكيف بقائد البلد وجميع أهلها وسيرفع ما كتبوه إلى السلطان ثم حضر

أيضاً جماعة آخرون فصرحوا بأنهم لما أنزلوا خطوطهم رأوا خطه بالموافقة ولم يروا ما قال فعند ذلك أنزل الله في قلبه الدهش والرعب والخوف من الفقراء فصار الشيخ يطمئه ويقبل عذره ويوجه فعله وهو في كل ذلك غير آمن ولا مطمئن بل فارق البيت الذي كان فيه بجوار بيت الشيخ وطلع إلى بستان بعيد من البلد واختفى به ، ثم لم تطمئن نفسه حتى خرج من طنجة وقصد مدينة الرباط يسكنها ونفاه الله تعالى من غير ناف معاملة له بما قصد به الشيخ كما نفى القائد صاحبه الذي لا يزال منقياً إلى الآن ، أما المرئسي فأنزل الله به من الذل والمهانة والفقر والحاجة ما يستحقه المنافقون أمثاله إلى أن مات وهو جلاس بحمام وشئت الله شمله وقطع دابره من طنجة نسأل الله السلامة والعافية من النفاق والكذب والخيانة وعداوة أهل الله ورزقنا حسن الفهم عنه آمين .

ومن ذلك أن رجلاً يعرف بالحجراوى أرسله بعض الظاهرين في الوقت بالزعامة والتقدم وإرادة الوصول إلى المملكة ليقتل الشيخ لأنه كان يظن أن أمره لا يتم مع وجود الشيخ الذي كان دائماً يعارض في ولايته على القبائل لا سيما القبائل الغارية لفرط جورهم وظلمهم حتى كان يقال فيه حجاج المغرب فجاء هذا الرجل وادعى أنه فر من ذلك الظالم الذي أراد قتله فأواه الشيخ وأنزله بالباب مع الفقراء الملازمين وبقي مدة يتحين الفرص ثم لما طالت به المدة أجرداً قرب منزل الشيخ وسكنها ثم صار يختفي يومين وثلاثة يذهب فيها إلى صاحبه ثم يعود والشيخ على علم من ذلك وهو ينفق عليه ويواسيه إلى أن سلب الله عليه رجلاً ضربه بخنجر عدة ضربات أثخنه بها جراحاً فمرض وتغيب فافتضح وعرف حاله بورود من أخبر بحقيقته فلم يعد إلى أن مات .

ومن ذلك أن عبد الكريم بن ادريس الطنجي كان من عدول طنجة وأبناء أعيانها وكان من عداوة الشيخ والمجاهرة بها على ما عليه أمثاله فأكثر

من شهادة الزور وارتكاب الجرائم فطرد من الشهادة فافتقر وساء حاله ثم صار يتردد على الشيخ فيواسيه ويكسوه فلما اشتهر بكثرة تردده اليه ومجالسته إياه جعلته الادارة جاسوسا يأتبها بأخبار الشيخ فكان يفترى عليه ويلصق به من الجرائم السياسية ما يناسب عداوته الباطنية وقلة دينه الظاهرة ثم صار يصرح بذلك للشيخ ويقول اننا نأكل الخبز بالكذب عليك فيقول له الشيخ لا تؤذ أحدا من المسلمين ولك الاذن منا أن تنسب إلينا ما تشاء وجاء إليه يوما فكساه جلابة جديدة اشتراها من دكان وألبسه إياها فخرج بها وذهب إلى الادارة ، وقال لهم الآن جئتكم من الشيخ تركته وقد جاء إليه السفير الفلاني وأبرم معه كذا وأمارة ذلك انه كسأني هذا الثوب وجاء إليه يوماً آخر يطلب منه ان يكتب له كتابا لرئيس الجواسيس ليزيد له في أجره الجاسوسية فكتب له ذلك ففرح بالكتاب الرئيس المذكور ورفع من مرتبه وكما ازداد الشيخ إليه إحسانا ازداد هو إليه والى دأرتة إذابة واستمر معه على حاله الى ان لقي الله وبقي الرجل يعامل انجاله بما كان يعامل به الشيخ نحو اربعة اعوام إلى ان جن ونقل إلى المارستان ومات به على شر الاحوال ووقع يوم ثالث دفنه ما فيه عبرة وذلك انه اتفق أن مات رجل يوم موته هو لكنه دفن بعيدا عنه في مقبرة أخرى فلما كان يوم ثالثه أرسل بعض قرابته شيئا من الطعام لحلة القرآن ليقراوه على قبره ويأكلوا الطعام فأخذه الحاملون إلى قبر ذلك الرجل الذي مات معه وأنزلوه عنده فاجتمع عليه الطلبة وقرأوا وأكلوا الطعام وعند فراغهم منه وصل طعام صاحب ذلك القبر من عند أهله فأكلوه أيضاً وقرأوا عليه ثانية وهكذا صرف الله عنه بركة قراءة القرآن العظيم عند قبره .

ومثله رجل يسمى عبد السلام كريبش قربه الشيخ وأحسن اليه وآواه نحو سبعة أعوام ثم تعلق به أن يتوسط له في وظيفة مع الحكام ففعل ثم صبر و جاسوسا فأتى إلى الشيخ ما لا يتصور من أنواع الاذابة والافتراء ولا يزال

حاله كذلك مع أنجاله إلى اليوم قطع الله دابره وعجل بهلاكه وراحة المسلمين من اذايته .

ومثل هؤلاء من الجواسيس الذين كانوا يتواردون عليه ويعاشرونه ويحاسونه وينفعون به يزيدون على الخمسين ومنهم من كان يبسطه الشيخ ويصارحه بذلك ويقول له لا تهول من هذا بل اشتغل وخذ من السكفار ما يعود عليك وعلى عيالك بالنفع بشرط أن لا تؤذى مسلما ولا تكذب على احد غيرنا ولو لا الحياء من الله تعالى واردة الستر على هؤلاء لسميننا منهم جماعة لا يزالون على حالتهم ومنهم من أنزل الله بهم عقابه وصرفهم عن هذه البلدة ثم مصرف وإلى الله عاقبة الأمور .

ولما رحل إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة كتب في اليوم الذي أصبح فيه بالقاهرة رجل رحمانى يدعى أنه وزانى مقيم بالاسكندرية مقالا في جريدة نسب فيها الشيخ رضى الله عنه إلى أمور قبيحة يريد بذلك اسقاط منزلته عند المصريين ولم تمض ساعات على ظهور المقال حتى عرف الشيخ أنه للرجل المذكور ثم إنه بعد يومين شد الرحلة من الاسكندرية لمقابلة الشيخ والسلام عليه فأكرمه وفرح به غاية كلها كان يتردد اليه طول إقامته بالقاهرة ثم إن الرجل نزل الى الاسكندرية ومرض فلما نزل الشيخ اليها في طريق عودته إلى المغرب سأل عنه فقبل له انه مريض فقال لا بد من عيادته فذهب اليه ليعوده مع أنه لم يسبق له به معرفة ولا رآه قبل هذه المرة التي فاتحه بالاذاية قبل أن يجتمع به ومن مرضه ذلك كانت وفاته سامحه الله ورحمنا وإياه .

وذهب مرة بعض القضاة الذين كانوا يجاهرون بعداوة الشيخ الى الفرنسيين وقال لهم كيف شوشكم أمر ابن الصديق وأصحابه اذفعوا الى خمسمائة عسكرى وأنا ألقى القبض عليه وأهدم زاويته ثم اتفق بعد ذلك أن اجتمع الشيخ به فقال بلغنا أنك قلت كذا ولو جئت إلى لذهبت معك إكراما لك دون أن يكون معك عسكرى واحد فنجعل القاضى وتاب

وبالجملة خال الشيخ رضى الله عنه في هذا الباب من أعجب الاحوال
وأخباره فيها من اغرب الاخبار وان كان كل حاله عجبا ،

ومن هذا القبيل ما وقع له مع بعض محبيه من العلماء وذلك في قضية
عظم أمرها لدى الحكام وكان ذلك المحب مطلعاً فيها على الحقيقة ومشاهداً
للواقع فلما اجتمع الشيخ بمندوب السلطان وعرفه أن الامر خلاف ماهو
عندهم وأن الحق بيده استشهد بصديقه العالم المذكور وكان مجلس المندوب
خاصاً بدائرته من العلماء والكتبة فلما حضر ذلك الصديق أنكر أمام الشيخ
أن يكون عنده علم بما قال فسكت الشيخ وفهم ان الرجل خاف لأنه كان
من المرظفين فلما رجع الى منزله أتاه ذلك العالم المحب وقال سامحني فيما فعلت
فاني أعلم انك تقبل معذرتي وهم لا يقبلون فما زاده ذلك إلا محبة فيه
وإخلاصاً لصداقته وتكاد هذه القصة تكون اءجب من كل مامضى لأنها
مسقطه لجاه المرء مصرحة بكذبه ومبطله لدعواه في الموطن الذي يجب فيه
انتصاره واثبات حجته ودعواه .

قال في نبذة التحقيق : وأما حله وصفحه عنم كان يؤذيه فبالمكانة
القصوى والمنزلة السماء العليا لا يحقد على أحد ولا ينتقم من مؤذيه ولو تمكن
منه او وجد اليه سبيلاً وحسبك مثالا اغضاؤه عنم ساعدوا من ثاروا عليه
حتى ممن كانوا يتظاهرون بالاختصاص به والنسبة اليه وفي الحقيقة كانوا معه
وهم عليه وانى لأعرف جلمهم عيناً واسماً وصفة ووصفاً .

ولو كان هذا موضع القول لاشتفى

فؤادى ولكن للمقال مواضع

فكانوا في صدور من شهدوا فيه وهم زهاء المائتين ولم تكن شهادتهم
إلا بافترآت واختلاقات وتزويقات وتنميقات تولى كبرها من هو الآن لا
رفيق له سوى عمله وليس له واق من جزاء سوء فعله إلى آخر ما قال .

فصل

وكما كان الشيخ رضى الله عنه متخلقا بهذا كذلك كان يدعو إليه ويحث دائما عليه فلا يأتيه مظلوم يشتكى غيره في نفس أو عرض أو مال إلا ويأمره بالصبر والاحتمال وكف الأذى ومقابلة الإساءة بالاحسان ويقول للمشتكى أطلع الله فيمن ظلمك وتعدى عليك بالأعراض عنه وتحمل الأذى منه من حيث عصاه فيك بتعديه عليك فإنه ما قابل أحد من عصى الله فيه بمثل أن يطيع الله فيه ويمثل أمره بالعفو والاحسان ويفوض أمره الى الله تعالى وهو سبحانه يتولى نصرته والانتقام له بما لا يقدر هو على مثله مع سلامة الدين واكتساب الأجر والمحمدة ويقول للمشتكى أطلع أمرى بالأعراض عنه وجرب ما أقوله لك فإن لم تر انتقام الله تعالى لك من عدوك فإني على ذلك فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا فإذا أحسنت العمل باتباع السنة والعفو والصفح فلا بد أن يتولاك الله وينتقم لك من عدوك .
وأيضا هذا بما ورد في أخلاقه صلى الله عليه وسلم من الأحاديث مع حكاية الصالحين فلا يقوم المشتكى من بين يديه إلا وهو فرح مسرور قد طابت نفسه وأعرض عن صاحبه مفوضا أمره لله وربما ساعه ابتغاء مرضاة الله .

فصل

وكان رضى الله عنه في التواضع بالمنزلة التي يكون عليها أمثاله من أكابر العرفين والعلماء العاملين لا يعرف الكبر والعظمة ولا يرى لنفسه امام أهل الفضل والدين مرتبة يخدم الضيوف بنفسه ويقدم لهم النعال بيده ويجالس المساكين وذوى الخصاص والأملاق والثياب الوسخة ويتذاكر معهم في شئونهم الخاصة حتى كأنه واحد منهم ويخرج بالثياب المتواضعة ولا يلبس

الثياب الرفيعة الحسنة ولو أهديت إليه ولا يتميز في الجلوس عن اخوانه ولا يحب التميز عن الناس في شيء أصلا .

قال في نبذة التحقيق وأما تواضعه فكان بالمكانة التي كنا نستحي منه فيها يسبق زائرہ والمسلم عليه بتقبيل يده أو على الأقل تقبيل رأسه . ولا سيما ان كان الزائر من أهل الفضل والدين وربما قدم النعل بيده الكريمة عند وداعه ويدي من مخاطباته لي بخطه المبارك ما يوقعي في الخجل حين أفف عليه وربما شككتني في نفسي حينما أراه مبالغا في اطرائي لكنني أعود لعثي حينما أتذكر أن ذلك كان دأبه مع غيري والحقيقة أن ذلك من تنزله مع الكبير والصغير والجليل والحقير ، والكريم الذي حباه هذا الوصف الجميل والخلق السني الجليل الذي لا يقدر عليه الا سادات الناس هو الذي جعله من أفضلهم رضوان الله عليهم أجمعين وعنا بهم آمين اه .

وقال في السمات وأما تواضعه رضى الله عنه فكان تواضع المحققين من أهل الساطن وأرباب القلوب ، ممن فنوا عن أنفسهم وبقوا برهم وشهدوا عظمة علام الغيوب ، فكان يتواضع مع الكبير والصغير ويخفض الجناح للضعيف والوضيع والحقير خصوصا أرباب الخمول ورتانة اللباس ، ممن لا يفتقدون إذا غابوا ولا يعرفون إذا حضروا فكان يعاملهم بمكارم الأخلاق ومزيد الاقبال والتعظيم والاحترام فيلين لهم الكلام ويظهر لهم البشاشة ويصرف لهم الوجهة وينشر عليهم رداء الاحسان ويؤانسهم ويواكلهم ويحادثهم بما يدخل عليهم السرور ويزيل عنهم الوحشة والنفور وترى منه معهم من البشر وطلاقة الوجه وانفراح الصدر وطيب الكلام مالا تراه منه مع غيرهم وهكذا كانت معاملته أيضا مع آل البيت والعلماء وأهل الفضل والدين يعظمهم ويحلمهم ويتواضع معهم ويتصاغر دونهم ويفيب عن نفسه في رؤيتهم وينسى حقوقه في حقوقهم بل لا يرى لنفسه وجودا

معهم . وبالجملة فتواضعه رضى الله عنه تواضع العارفين وخضوع الاولياء الكاملين لا تكلف فيه ولا يُعمل ولا يُتخلق بل كان خلقا مزوجا بذاته ، وهو التواضع الحقيقي الناشئ، عن شهود عظمة الحق جل جلاله الذى يغيب صاحبه عن شهود تواضعه وهو وراثة نبوية من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم كسائر أخلاقه اه .

قلت : ومن تواضعه أنه كان لا يؤم الناس فى المحافل والمجالس ، بل يقدم من حضر من أهل العلم والفضل حتى من الطلبة الصغار فى السن إذا لم يوجد غيرهم . وكان لا يحب من يمدحه بالنظم والنثر ولا يترك عنده قصيدة قيلت فى مدحه الا نادرا ولا يظهر ذلك لأحد ولا يذكره قط ولو كان يترك تحت يده ما قيل فيه من القصائد والامداح ولم يحرقه لجمع من ذلك الشئ، الكثير . وكان لا يلتقن العلماء وأصحاب المظاهر وان طلبوا ذلك منه وألحوا عليه فيه بل يتواضع معهم ويقول أتم غير محتاجين إلى أمثالنا ويعظم من شأنهم ويصغر من نفسه حتى يقوم ذلك الشخص من عنده وهو معتقد أنه حائز لكل فضيلة وكمال ، وهذا خلق غريب بالنسبة للمتمشيخين من أهل العصر فانهم يفرحون غاية بكثرة التامنين بل يدعون الناس إلى الأخذ عنهم وربما لقنوا الرجل وهو كاره لذلك ودعوه إلى ترك ما أخذه عن غيرهم قبلهم رغبة فى كثرة الاتباع وحب الرياسة والظهور ، وكذلك كان لا يتظاهر بالكرامات تواضعا وسكونا ورغبة فى الخفاء وعدم الظهور الا ما أظهره الله تعالى على يديه من غير اختيار ولا قصد إلى إظهاره بل كان يذم ذلك ويعده من الرعونات والنقص فى مرتبة الكمال .

قال فى حادى الرفيق بعد حكاية كرامات صدرت على يديه ما نصه مع أنه رضى الله عنه كان لا يتظاهر بكرامة ولا يميل إلى شئ من ذلك . وكان يقول : الولي إذا كان يريد ظهور الكرامة على يده فهو لا يزال ناقصاً ، وكثيراً ما كان يقول لنا فى مجلس المذاكرة نحن لسنا بشيوع وأتم

لستم بفقراء، وإنما نحن مجتمعون للتعاون على عبادة الله تعالى وذكره على قدر الطاقة وبرودة أهل الوقت اهـ .

ومن توأضعه أنه كان كثير الاستشارة مع أصحابه بل وخدمه وأولاده الصغار في أغلب شئونه ولا ينفرد برأيه في التقدم إلى شيء وإمضائه دون مشورة إلا في القليل النادر مع أن الناس كانوا يتواردون عليه أفواجاَ للمشورة معه في أمورهم المهمة فيرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم لا من طريق حسن النظر وإصابة الرأي فقط بل ومن جهة الفراسة الإيمانية والكشف النوراني فكثيراً ما كان ينهى أقواماً عن مزاوله أمور هي في الظاهر وما يبدو للناس في غاية الموافقة للصواب ثم بعد ذلك يتضح منها ما لم يخطر لأحد على بال وربما أشار بما يثقل على النفس ويظن أنه بعيد عن النجاح فيكون فيه الخير العظيم والبركة التامة وقد تأخر قوم عن إشارته بعد استشارته فما أفلحوا ولا أنجحوا بل وقعوا في المهالك والمعاطب ومع هذا فكان هو لا يقدم على أمر إلا بعد استشارة امتثالاً لأمر الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما كان يلزم الاستخارة ويحث عليها دائماً ويبالغ في الأمر بها . ولا يجب من أحد أن يتقدم لأمر هام دون أن يقدمها بين يديه ، لا سيما أهل العلم والنسبة إلى طريق أهل الله .

فصه — بل

ومن توأضعه ووجهه للخفاء وإيثاره الخمول على الجاه والرياسة والظهور اختياره السكنى بمدينة طنجة على غيرهما من المدن ومفارقته وطنه الذي لو أقام به مع ما لوأده وأسلافه من الشهرة والجاه ونفوذ الكلمة ومع ما أكرمه الله به من المواهب والعلوم والأسرار والمعارف وجميل العشرة ومكارم الأخلاق لحصل له من

الشهرة والجاه والخير العظيم وإقبال الخلق ما لم يحصل لغيره وقد تعلق به أهل
 فاس وكذلك أهل الاسكندرية والتزموا ببناء الزاوية والقيام بجميع الشئون
 فلم يقبل إلا أن يقيم بالبلد الذي لا يعرف فيه قدره والذي يزداد أهله له عداوة
 وبغضاً ومحاربة وحسداً كلما رأوا زيادة فضل الله عليه وبعد صيته واشتهار
 ذكره وعظمة جاهه كما هي عاداتهم مع جميع أهل الفضل من الأشراف والأولياء
 والعلماء فقد أقام الشيخ رضى الله عنه بين أظهرهم خمساً وثلاثين سنة حيث
 فيها بلدهم بعد موتها واشتهر ذكرها بعد خمرها وعمرت بذكر الله وذاكره
 بعد خرابها وقصدها الأشراف والعلماء والفضلاء والأولياء بعد أن لم يكن
 يقصدها إلا الشرطية والطوبجية وصائدوا الأسماك من الأسبان والبرتغال وصار
 يسمع في أزقتها ذكر الله تعالى صباحاً ومساءً بعد أن لم يكن يسمع بها إلا
 زمارة الطوبجية وأصوات السكارى ووقع المجاديف وفشا فيهم العلم والفضل
 وقام فيهم سوق الأدب والدين فكانوا أخسر الناس صفقة فيه وأتى اليهم من
 المعروف وأنواع البر والاحسان في الحسيات والمعنويات ما لوفعله مع أهل قطر كافر
 لأسلموا فلم يكذب يخلو فرد منهم من وصول بر الشيخ وإحسانه إليه من شفاعته
 ووساطته في وظيفة أو معالجة أو مساعدة أو اصلاح أو قراءة علم أو غير ذلك
 مع ما كان يدافع عنهم هو وأصحابه لدى الحكومة يريد بذلك حفظ حقوقهم
 ورفعة قدرهم وإبقاء حرمتهم فلم يزدحم ذلك إلا حقداً عليه وحسداً له وبغضاً
 فيه وسعياً حثيثاً في إذابته وإطلاق اللسان فيه بما هم متصفون به ثم اجتمعوا
 كلهم بدعوة قائدهم وكتبوا عريضة قدموها للسلطان وغاب من أنزل بها خطه
 تلامذته في العلم والطريق أو ممن دخلوا في صف الأنامى واستنشقوا رائحة
 الوجود بوساطته وشفاعته بعد أن كانوا مساورين للعدم من كل الوجوه وقصدوا
 بذلك نفيه من البلد هو وأصحابه وأرسل إليه بعض أعيانهم يقول اخرج عنا
 من بلدنا ودعنا في أمن وعافية فدارت عليهم الدائرة وسقطوا في حفرة مكرهم
 وابتلوا بما صاروا به متميزين عن سائر مدن المغرب من تشييت الرأى وتفريق

الكلمة وفرط الجبن مع الفقر والحاجة والدلة والمهانة ونفى الله من تولى كبر ذلك وأخرجه من وطنه وأنزل بهم عقوبته على عدم شكر نعمته وجعلها سارية في عقبهم إلى يوم القيامة على أن الله تعالى سلك بالشيخ في ذلك ملك سلفه الأولياء الأكبر أفراد الأمة المحمدية وورثة الأنبياء والمرسلين كما هي سنة الله تعالى فيهم .

قال القطب الكبير مولانا أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه حرت سنة الله تعالى في أنبيائه وأوليائه أن يسلط عليهم الأذى في ابتداء أمرهم بإخراجهم من أوطانهم ورميهم بالبهتان والزور ثم تكون الدالة لهم آخراً ان صبروا قال ولما علم الله عز وجل ما سيقال في أنبيائه وأصفيائه فضى على قوم بالشقاء فجعلوا لله تعالى زوجة وولداً وقالوا يد الله مغولة وقالوا ان الله فقير ونحن أغنياء حتى إذا ضاق ذرع النبي أو الولي من كلام قيل فيه نادته هو اتف الحق تعالى أما لك بي أسوة فقد جعلوا لى زوجة وولداً ونسبوا إلى ما لا يليق بمجالاتي وعظمتي وأنا خلقتهم ورزقتهم فلا يسع ذلك النبي أو الولي إلا التأمي ولذلك تحمل الأنبياء والأولياء ما يرميهم به قومهم من الزور والبهتان والجنون والسحر وغير ذلك مما هو مشهور في الكتاب والسنة اه

وحكى العارف تاج الدين ابن عطاء الله عن أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنهما أنه كان يقول لا يكمل عالم في مقام العلم حتى يبتلى بأربع شماتة الأعداء وملازمة الأصدقاء وطعن الجهال وحسد العلماء فان صبر على ذلك جعله الله اماماً يقتدى به اه .

ومن الغريب أن بعض زعمائهم في الأوصاف والأخلاق المذكورة قال في هذه الأيام وهو في مجلس جرى فيه ذكر الشيخ رضى الله عنه لو أقام السيد بباريز المسدة التي أقامها بطنجة لكان له شأن عظيم ولكنه أقام بين من لا يعرف قدره

فصل

وكان رضى الله عنه شديداً للحياء لا يكاد يكلم إنساناً وهو ينظر إليه إلا في ساعة المذاكرة العلمية أو مع من هو من خاصة أحبائه وجلسه ولا يواجه أحداً بمكروه ولا يطلبه أحد في شيء فيرده أو يمتنع من إجابته إلى مراده ويتحمل ضرر الثقلاء وكثرة كلامهم وإطالتهم المجلس ولا ينصرف عنهم حتى يكون الواحد منهم هو المنصرف بنفسه ولا يعارض أحداً في قول ولا يرد عليه كلاماً ولا يكذبه في خبر أو حكاية ولو تحقق كذبه .

قال في نبذة التحقيق كان أشد حياء من العذراء في خدرها فكثيراً ما تلقاه ولا تكاد تراه إلا مطرقاً بعينه ورأسه يكلمك وربما لا ترى داخل عينيه .

وكان لا يحضر المحافل العمومية لا سيما وأخر عمره فإذا حضر كان على غاية من الأدب والكمال والتواضع في جلسته وهيأته وكلامه .

وكان على أدب كامل مع الله تعالى ومع شريعته المطهرة وسنة نبيه المشرفة ومع جميع عباد الله تعالى في سكناته وحركاته فلا يخرج عن طريقة الآداب الشرعية في شيء أصلاً فلا يمد رجله لا مع الناس ولا منفرداً وحده لا في حالة الصحة ولا في حالة المرض ولا كان ينام على ظهره ويجعل إحدى رجله على أخرى ولا يجلس جلسة المترفين أو يتكئ على أحد جنبيه وإنما كان يجلس متربهاً أو محتبياً لا سيما وقت المطالعة .

وكان يتأدب مع كتب العلم في الوضع والترتيب فلا يضع كتاب نحو أو أوتاريخ أو أدب على كتاب فقه أو تصوف فضلاً عن حديث أو تفسير بل كان يضع كتب التفسير العليا ثم التي تليها كتب الحديث ثم الفقه والتصوف ثم الكلام والأصول ثم النحو واللغة والأدب والتاريخ وإذا رأى مجلد تفسير

او حديث تحت مجلد نحو او تاريخ بادر في المال ووضع في اعلى الكتب
وقد دخلت يوماً بمصر على بعض العلماء الذين يدعون العمل بالسنة فوجدت
بين يديه كتباً كثيرة فيها النهاية لابن الاثير في غريب الحديث والقاموس وغيرها
وكان يصحح تاريخ الخطيب عند طبعه واذاهو واضع صينية القهوة بأوانها
فوق تلك الكتب يشرب عليها القهوة فنهيته عن ذلك فقال لم أحسب ان فيها
شيئاً ولا ان فيها اهانة .

ودخلت يوماً على بعض من يدعى أنه شيخ للطريقة الخلوئية فاذا هو رجل
جالس على كنبه وفارش تحت رجليه كثيراً من الجرائد واضع رجليه عليها
مع انها لا تخلو من مقال فيه آية أو حديث او من اسم الله على الأقل .

فص — ل

وكان رضى الله عنه سليم الصدر والنية كثير التصديق حسن الظن
يسلم لكل مدع دعواه ويصدق كل قائل فيما يقول لا يكاد يخطر بباله تهمة
احد يكذب او تدليس او غش أو خديعة ونفاق مجبولاً على ذلك بطبيعته
وفطرته التي فطره الله عليها مع التخلق بالأخلاق النبوية في ذلك والاوامر الشرعية
بحسن الظن والحث عايه والترغيب فيه .

وكثيراً ما كان يرد عليه المتمشخون فيدعون عنده بالمقامات العالية
والكرامات الكنبيرة وحضور الديوان ونحو هذا فيصدقهم فيه ويعاملهم
على مقتضى دعواهم من الاجلال والاكرام اللائق بصاحب تلك المنزلة وإن
كان كاذباً فيها بمقتضى شواهد الحال فضلا عما وراء ذلك وما علم أنه امتحن
احداً في مقام ادعاه او رد عليه ذلك لافي حضوره ولا في غيبته بل يسلم ذلك
ولو تحقق في نفسه بكذبه بل كان يعنى غاية بالستر على الكذابين المدعين
ويذب عنهم ويتأول ما صدر منهم مما يخالف اصول الطريقة او يبين حال العامة
من الناس ويحجيب عن ذلك بأجوبة ويعتذر عنهم بوجوه من الأعذار ما لم

يكن ذلك مخالفاً للشرع خارجاً عن حدوده . وقد ذكرت في الأصل عدة حكايات وقعت له في هذا الباب .

وكان ستيراً على أهل المعاصي فإذا اطلع من أحد على شيء لا يفضحه ولا يذكر ذلك لأحد بل يعض الطرف عنه كأنه لا علم له بشيء وإذا اقتضى الحال زجر الفاعل عن ذلك الفعل دعا في خلوته من حيث لا يطلع عليه أحد وزجره ونهاه حتى كان كثير من خدمه وأصحابه وأولاده يخافون من اطلاع أحد عليهم في شيء ولا يخافون من اطلاع الشيخ لتحققهم بستره عليهم وعفوه عن جنائهم دون غيره .

وكان يقوم بحقوق أصحابه وإخوانه من جميع الوجوه ولا يتشوف هو لأن يقوم أحد بمحقوقه ولا يعتب على أحد في تضييع حق من حقوقه أو إساءة أدب معه أو هفوة صدرت منه وإن عظم أمرها وتكرر فعلها ويقول لمن يذكر له شيئاً من ذلك إن الناس اليوم يرون لهم حقوقاً على غيرهم ولا يرون لغيرهم حقاً عليهم . فالواجب علينا أن نقوم بحقوقهم امتثالاً لسنة المحمدية وعملاً بأخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نتنظر من أحد أن يقوم لنا بحق وإلا قاطعنا الجميع وأعرضنا عن الكل وعاديناهم لأن هذا وصف غالبهم وما بذلك أمرنا الله .

وكان يقول : الناس كلهم يحتاجون إلينا ونحن نرجو الله تعالى أن لا يحوجنا إلى أحد منهم .

وكان إذا كثرت عليه الشكايات بالفقراء وتكررت لديه الأخبار عنهم بما يسوء يقول لم يبق اليوم فقراء وإنما هم فقراء بتقديم القاف على الفاء . ويقول في حقهم أيضاً : إن الفقراء فيما مضى كانوا فقراء بلا بطون ثم صاروا فقراء ببطون ، وأما اليوم فبطون بلا فقراء .

وكان يأسف لموت أحد من إخوانه في الله ومجالسيه ويبكي بكاء شديداً

لا سيما في أواخر عمره فإني رأيتُه يبكي عند موت بعضهم بكاء شديداً
ويبتحب تحيياً يسمع من بعيد كما يبكي الرجل على والده وأمه وأغز أولاده
لكثرة محبته وألفه باخوانه وجلاسه .

وكان يحب موافقة السنة في كل شيء ويسعى جهده أن يحصل له كل
ما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم ويحث على هذا وينبه للعمل به ويحكي
عن الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضى الله عنه أنه أخذ يوماً طفلاً
فبال عليه ففرح بذلك أو قال أولم لأجل ذلك وقال الحمد لله هذه آخر سنة
لم نكن أدركناها قد حصلت لنا الآن بيول هذا الطفل لأن النبي صلى الله
عليه وسلم أتى بطفل رضيع لم يطعم فبال عليه وكان الشيخ يحب كل
ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه من الأطعمة كالدباء ونحوه مما
ورد في السنة وكذلك كان يحب المعاملة مع اليهود والاستئذنة منهم لأن
النبي صلى الله عليه وسلم كان يعاملهم ويستدين منهم ، ومات ودرعه مرهونة
عند يهودى .

ولمحبته في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وموافقة سنته اختار الله
له موافقته في كثير من أموره بغير قصد منه واختيار . فتزوج قبل وفاته
بشهر ونصف أو نحوه بزوجة لم يدخل بها لأنها زفت إليه في رمضان وكان
الضعف ومرض القاب الذي مات منه قد اعتراه مع الصيام إلى أن مات في
سادس شوال ، وكذلك تزوج النبي صلى الله عليه وسلم قيلة بنت قيس
الكندية قبل وفاته بشهرين وقيل في مرض موته وقيل في ربيع الأول ولم
يدخل بها لتأخر قدومها عليه إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى صلى الله عليه
وسلم .

ولما حج الشيخ رضى الله عنه كانت وقفته بالجمعة كما كانت وقفة النبي
صلى الله عليه وسلم مع أن الشيخ خرج للحج قبل ظهور ذلك لأن خروجه
من وطنه كان في شعبان كما سبق .

وتوفى الشيخ رضى الله عنه وعليه ديون كما توفى النبي صلى الله عليه وسلم وعليه دين كذلك .

ولم يتزوج على زوجته الأولى إلى أن توفيت ثم أخذ بعدها زوجات متعدداً وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج على خديجة رضى الله عنها إلى أن ماتت فأخذ زوجات متعدداً .

وكانت زوجته الأولى فاضلة عاقلة سالحة ذات مناقب وكرامات كما كانت خديجة رضى الله عنها ذات مناقب حمة وفضائل عديدة .

وكان إذا نابه شيء فرع إلى الصلاة كما كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم فكان يفرج ما نزل به في الحال ويقضى ما قصده بامتثال أمر الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وكان يكرم الجار غاية ويراعى حرمة وحقوقه على أى حالة فلقد كان له جار مفرط الجهل والاسراف على النفس مع التكبر على الله تعالى وعلى عباده الصالحين فلا تلين قناته لأهل الفضل والدين ولا يظهر لهم ميلاً ولا احتراماً كأنه غنى عن رحمة الله تعالى . ومن جهله المفرط أنه باغ السبعين من العمر وما سجد لله سجدة قط ، فقال له بعضهم يوماً ألا تصلى ، فقال نحن ما كنا نلعب صغاراً فضلاً عنا ونحن كبار . وبالجملة فكان في منتهى الجهل والجفاء والاسراف كما تقتضيه طبيعة أرضه لأنه من ذوى بيوتها . فكان الشيخ رضى الله عنه يكرمه على هذا الحال ويراعى حق جواره لأنه كان ملاصقاً له . ولما توفى خرج لحضور جنازته والصلاة عليه بباب الدار مع أن الفقهاء يكرهون الصلاة لمن هو دون الشيخ على من هو أحسن حالاً من هذا الجار سامحنا الله وإياه وعاملنا جميعاً بفضله ورحمته .

وكان ينخدع لمن خدعه ولو كان خداعه من البين الواضح المكشوف فكان جماعة من أتباعه وفقرائه يفضون أولاده وأقاربه بحكم طبيعة البلد التى ينبت ماؤها وهوؤها الحقد والحسد فى القلوب كما ينبت الماء البقل

والربيع وكانت تحصل منهم إذابة عظيمة وإهانة كبيرة لا يتحملها بشر
لأولئك الأقارب والانجال ثم يأتي أحدهم الى الشيخ رضى الله عنه يريد
خداعه والتلبيس عليه قائلا إني فعلت مع الشريف الفلاني كذا وكذا من
سب وإهانة واحتقار وأخذ حق ومال ، وما فصدى بذلك الا تعظيم جنا بكم
وتبرئة ساحةكم لأنى رأيت منه ما لا يليق بمقامه ومقامكم فيعلم الشيخ
أنه كاذب فى دعواه وأن الذى حمله على ذلك فرط حقد وحسد فى قلبه
وحب انتقام من أهل الفضل والدين واسكنه يظهر له الفرح والسرور
ويقول جزاك الله خيرا ويمدحه على فعله. ذلك ويطريه حتى يذهب الأحمق
المغرور وهو ظان أن خداعه قد راج على الشيخ بل لا يكتفى بذلك حتى
يعتقد أنه على حق وصواب وفضل كبير كما حلاه به الشيخ الذى قد عرف
قصده وتحقق من كذبه ليس فى مرة واحدة فقط بل والله فى مئات المرات
وقد يستدعى الشيخ رضى الله عنه ذلك المظلوم المعتدى عليه من ذلك الجاهل
المجرم فيوصيه بالصبر والاحتفال ويقول له أنا متحقق من أنك مظلوم برىء
مما نسب اليك فلان وأنا أعرف قصده من ذلك ولكن حيث وقعنا معهم
وابتلانا الله بصحبتهم فلا حيلة لنا الا احتمال أذاهم والصبر عما يأتينا من
إذابتهم كما أمرنا الله تعالى وما هى إلا أيام قليلة يصبر فيها المرء ثم يعاجله
الله تعالى بالنصر والفرج على عدوه وإن أحياءك الله تعالى فسترى من أعدائك
ما يسرك إن امتثلت أمر الله فيهم بالصبر والاحتفال وعدم المقابلة بالمثل وقد
وقع والله كل ما قال وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار ولا يزال يظهر
وينمو حتى يصل المنتهى والحمد لله رب العالمين .

وكذلك كانوا يخدعونه من جهة المسال والتوسط فى الحصول عليه بضمانة
ووساطة ونحو ذلك بأعذار وكلمات ظاهرها حق وصدق وباطنها غش
وخداع فينخدع لهم ويوصلهم الى ما أرادوه مع تصريحه لبعض خواصه

في كثير منهم أنه يعلم كذبهم وعزمهم من أول مرة على أكل المال وعدم رده إلى أربابه ليدفعه الشيخ من عنده ولا يحصى من كان يعامله بمثل هذا وهم على قسمين . منهم من كان يعتقد أنه لحذقه وذكائه يخدع الشيخ ويفره لسلامة صدره وصفاء طويته . ومنهم من كان متحققاً بأن الشيخ غير مخدوع في الواقع وإنما يتظاهر بأنه قد انخدع لارضاء الخادع ومع ذلك فكان يعامل الشيخ بطريقة المكر والخداع لغلبة ذلك على طباعهم مع قلة حياهم .

وقد روى البخارى في الأدب المفرد وأبو داود والترمذى والحاكم والبيهقى وغيرهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم » يعنى ان المؤمن المحمود في الفعال والمحصل من كان طبعه الفرارة وقلة التظاهر بالفطنة للشر وترك البحث عن الأمور وليس ذلك منه جهلاً وغباًوة بل تجاهلاً وتسامحاً لكرم أخلاقه وحسن طباعه . والفاجر من أخلاقه الخبث والدهاء والتوغل في معرفة الشر والحذر لدناءة طبعه ولسوء أخلاقه وفقدته الكرم من نفسه . قال بعض العارفين كن عمرى الفعل فان الفاروق رضى الله عنه يقول : من خدعنا بالله انخدعنا له . فاذا رأيت من يخدعك وعلمت أنه مخدع فمن مكارم الأخلاق أن تنخدع له ولا تفهمه أنك عرفت خداعه . فاذا فعلت ذلك فقد وفيت الأمر حقه لأنك إنما عاملت الصفة التي ظهر لك فيها والانسان إنما يعامل الناس لصفاتهم لا لآعيانهم فاذا عاملته بما ظهر منه كنت مؤمناً حقاً . والمؤمن غر كريم لان خلق الايمان يعطى المعاملة بالظاهر اه .

وقد نص العارف الشعرائى في الأخلاق المتولية على أن هذا من أخلاق العارفين وكل الرجال كما نقلته في الأصل . وعلماء الوقت يسمون مثل هذا مغفلاً وعبطاً جهلاً منهم بالسنة وإعراضاً عن العمل بها . نسأل الله السلامة والعافية بمنه .

فصل

وكان يضع السبحة في عنقه إذا خرج ويمسك بيده العصا الطويلة المستقيمة ذات الزج كما هي سنة الأنبياء عليهم السلام وورثتهم من الصوفية عرفاء رضى الله عنهم لا العصى القصيرة المعكوفة الرأس كما يمسكها علماء مصر بيدهم زينة وتكبراً وافتخاراً وتشبهاً بالنصارى لأنها من سنتهم التي تبجحهم في جميعها علماء مصر ، نسأل الله اللطف والعافية .

وكان في بداية أمره يمجهر بذكر الله في الشوارع ويأمر بذلك الفقراء كما كان يأمرهم بحفظ القرآن وتعاهد دراسته وتلاوته .

وكان يحث الفقراء وطلبة العلم منهم ومن غيرهم على الاشتغال بالحرف وتعلمها والتكسب بها وبالتجارة ويقبح لهم البطالة جدا ويبالغ في ذمها وذم الكسل والاتكال على الناس . ويقول ان ترك الحرفة والتجارة يؤدي بالطلاب والفقير الى أن يأكل بدينه أو يتذلل لاهل الدنيا أو يدخل في الوظائف الحكومية مثل القضاء والشهادة ونحوهما مما يهدم الدين جملة ويقضى عليه بالكلية . ويقول لان يبيع طالب العلم الفهم والنعمان في الشوارع خير له من الدخول في القضاء والشهادة .

وكان كثير الاهتمام بأمر العامة شديد الشفقة عليهم قد بذل كل ما في وسعه وطاقته لنفى الشر عنهم والتوصل إلى أسباب انقاذهم مما هم فيه . فلما أعياه أمرهم وعلم أن مراد الله منهم ما هم فيه أقبل على شأنه وأمر الفقراء المتجردين في الزاوية بادامة قراءة سورة يس صباحا مع الوظيفة بنية الفرج على الامة ودفع البلاء عنها . وبذكر اسمه تعالى اللطيف كل ليلة لهذا الغرض أيضا وترك ما كان يسعى فيه من الاسباب الحسية الظاهرة لذلك لبلوغه مقام الكمال في المعرفة بالله تعالى .

فقد ذكر العارف الشعرائى فى الفلك المشحون أن من أخلاق الكمل من العارفين عمل أحدهم على تحصيل مقام عدم الاهتمام بأمر المسلمين وعدم مشاركتهم فى همومهم اكتفاء بتدبير الحق لهم ورحمته بهم وشفقته عليهم لا استهانة بحقوقهم وذلك بعد عملهم على مقام مشاركتهم فى كل هم وغم حتى بلغوا الغاية فى ذلك ودليلهم فى الشق الاول العمل بباطن حديث «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» بعد عملهم بظاهره وهو مقام عزيز قل من يتنبه له من الفقراء وإيضاح ذلك أن هذا الحديث يحتمل أن يكون المراد به أنه ليس منهم على وصف الذم ويحتمل أنه ليس منهم على وصف المدح كما هو شأن الكمل من الاولياء لأن أحدهم قد ارتفع عن مقام الاسلام والحجاب الى مقام الاحسان والايقان فضلا عن مقام الايمان يشهد أن الله ما ابتلاهم إلا الحكمة بالغلة إمالئودبهم بذلك أو ليكفر عنهم سيئاتهم أو يرفع بذلك درجاتهم وصاحب هذا المشهد لا يكاد يهتم لاحد من المسلمين الا بالجزء البشرى الذى يدق فيه . وكان وجوده عدم ثم أطل النقول فى هذا المعنى عن شيوخه كسيدى على الخواص وشيخ الاسلام زكريا الانصارى وسيدى أفضل الدين وسيدى على المرصنى بما فيه لطائف وفوائد لا تحظر ببسال محبوب فارجع إليه فانه نفيس جدا . وذلك بالباب الخمسين من الكتاب المذكور فكان الشيخ رضى الله عنه فى بداية أمره يعمل بظاهر الحديث المذكور ويهتم بأمر المسلمين اهتماما ماراه الراؤون من أحد من أهل عصره لا سيما العلماء ودام يسعى فى ذلك أزيد من خمس عشرة سنة بما يطول شرحه ولا يساعد الوقت على ذكره ثم صار فى نهايته يعمل بباطن الحديث أيضا فسلم الامر لله وصار يترب ما يبرز من الحضرة الالهية دون وساطة بشر أو سعى مخلوق .

وكذلك صار فى آخر عمره لا يتكدر مما عليه الناس من كثرة المعاصى والمخالفات . ولا يتأسف على ذلك ولا يكتر من ذكره الا على سبيل القلة

والندرة بخلاف ما كان عليه في بداية أمره فإنه كان كثير التعرض لذلك في دروسه وخطبه ومجالسه بقصد تغيير المنكر والتنبيه عليه وذلك أيضاً من كمال المقام في المعرفة وهو مقام عدم الاعتراض على شيء من الاقدار الالهية ولو خاطراً كما ذكر العارف الشعرائي . قال وهو مقام عزيز لا يثبت فيه إلا من أطلعه الله تعالى على اللوح المحفوظ وعرف ما سبق به العلم الالهي . فهناك يذهب الاعتراض منه جملة بصادي الرأي وصاحب هذا الاطلاع يعرف أن ما سبق به العلم الالهي لا يطلب تغييره لسكونه على أعلى مراتب الكمال كما أشار الى ذلك الغزالي رحمه الله تعالى بقوله : ليس في الامكان أبدع مما كان أي لأن جميع ما برز في الوجود ما برز الا على أكمل مراتبه التي سبق بها العلم عند هذا المكاشف فكيف يقع منه اعتراض وهو يشهد أن ما برز في الوجود أكمل مما يطلبه هو بعقله .

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله عنه يقول من علامة صدق من اطلع على ما سبق به العلم الالهي في اللوح المحفوظ أن لا يأمر الناس ولا ينههم الا بقدر ما فيهم من الجزء البشري الذي هو مناط التكليف لا يزيد على ذلك ذرة ولا ينقص وان وقع أنه مدح من زاد على غيره في الطاعات أو ذم من زاد على غيره في المعاصي فأنما هو من حيث الجزء البشري كذلك انتهى وإلا فشهد صاحب هذا المقام أن العبد لا يقدر أن يزيد ولا ينقص مما قدر له أو عليه . ثم أطال النقول في ذلك وهو مقام الشيخ رضي الله عنه ومشهده لأنه كان يقول لبعض من تقع منه المخالفات من خواصه استتر بستر الله ولا تبد شانك للناس فانهم لا يعذرونك ولا عليك من اطلاقنا فإنا نعرف مراد الله منك ولا نلومك على شيء صدر منك حتى يكون الله تعالى هو الذي يظهر فيك مراده .

وسمعت مرة يقول لبعضهم : والله لو دخلت على سكران تتمايل ما تغيرت مني شعرة واحدة عايك وأنا أعلم ما في الأمر وما هو الواقع ولذلك كان

ستيراً على أهل المعاصي بارأ بهم كما قدمناه .

وكذلك كان في بدايته يكثر التعبد ويتعشف على قدر حال الوقت ثم في نهايته ترك ذلك وصار لا يزيد على الفرائض في الصلاة والصيام وربما صام يوم عرفة ونصف شعبان في بعض الأعوام الا قيام الليل فانه لم يتركه أصلاً وما كان يأتي عليه ثلث الليل الأخير الا وهو قائم وربما قام في منتصف الليل وهذا أيضاً من كمال المقام في المعرفة بالله تعالى كما هو معروف عند أهله .

وكان يفرح بكثرة كلام الناس فيه ويضحك اذا سمع الجرائم العظام التي ينسبها اليه أهل بغضه وعداوته ويبالغ في إكرام من يرد عليه من المتكلمين فيه . وقد رأى بعض الشيوخ الصالحين من أهل فاس للشيخ رضى الله عنه مقاماً عظيماً فسأل عن سبب وصوله اليه فقيل له كثرة كلام الناس فيه وهذا أيضاً من أمرار اختياره السكني بطنجة والله أعلم .

الباب السادس

فيما أكرمه الله تعالى به من الفضائل والمزايا وخصه به من
عظيم المنن وجزيل العطايا

فمن ذلك جمال الصورة الحسية والمعنوية وكمال الذات الجسمية والروحية
أما جمال الصورة المعنوية وهو ما أكرمه الله به من الاخلاق الحميدة وزينه
به من الاوصاف السنية فقد مر شرح بعضها في الباب الذي قبله . وأما جمال
صورته الحسية فقد أكرمه الله تعالى بكمال الذات واعتدال القامة مع ميل
الى الطول شيئا قايلا وتوسط الجسم فلا هو سمين كثير اللحم ولا هو
رقيق بين العروق والعظم ، مستدير الوجه الى الاسالة كبير العينين أسودها
طويل الاشغار واسع الفم مفلج الثنايا فصيح اللسان أبيض اللون مشربا
بحمرة كث اللحية أسودها الا أنه شاب في مقتبل كهولته فكان يديم
الخضاب بالحناء فصارت حمراء مزهرة زادته نورا وبهجة في أعلى جبهته
دينار مخالف للجسم من أثر السجود جميل الاطراف سليم الاعضاء واسع
الصدر بعيد ما بين المنكبين إذا مشى أسرع في مشيته ومشى قصدا لا يانفت
عيناه ولا شمالا إذا ماشاه أحد يتعب في المشى من حيث يكون هو مستريحاً
لأنها مشيته العادية .

ومن ذلك النور والبهاء والهيبة التي لم نرها على أحد من أهل عصره
لا بالشرق ولا بالمغرب حتى كان لا يستطيع أحد أن يكلمه وهو ينظر اليه
من هيئته وكان أعداؤه يقابلونه في الطريق فلا يشعرون بأنفسهم الا وقد
انحنوا لتقبيل يده . ولما كان بالقاهرة والاسكندرية كان لا يمر بشارع من
شوارعها إلا قال الناس عند رؤيته ما شاء الله اللهم صل على سيدنا محمد
استعظما لبهائه وجلالته كما قال العارف ابن بنت الميلى في وصف الشيخ
السكامل رضى الله عنه :

إذا روى ذكر المولى لرؤيته وفاز بالسعد والتقريب رائيه
عبد عليه سمات العز لائحة وخلعة العز والنحيم عاليه

ووقعت له قضايا متعددة مع شيوخ مصر وعلمائها دهشوا فيها لرؤيته
لعدم اعتيادهم ذلك من شيوخهم وعلمائهم وجاء اليه مرة رجل متزوج بكفارة
وأصحابها معه والشيخ لا يعلم بذلك فأمر بإدخاله إلى غرفة المقابلة فلما دخل
الشيخ عليهما حصل لزوجته من الهيبة أمر عظيم فصارت تبكي ثم قامت
وخرجت في الحال

وذكر في حادي الرفيق أن الشيخ لما كان بالقبيلة الانجيرية جاء لزيارته القائد
ابن حازم في جماعة كبيرة من أتباعه حاملين السلاح فلما انصرفوا سأل بعضهم
القائد عن الشيخ فقال لما كنت جالسا بين يديه كنت أحس بأذني تنتفخان
من هيبتته وبالجملة فأعطاه الله تعالى من الهيبة وكساه من حلة البهاء والجلالة
ما كان يتصاغر عنده الأكاير والعظماء وتتضاءل أمامه رياسة الشيوخ والعلماء
كما هو شأن كبار العارفين، حلة ربانية وورثة نبوية .

فقد قال على عليه السلام في شأن النبي صلى الله عليه وسلم من رآه بداهة
هابه رواه الترمذي وأبو الشيخ في الأخلاق والبيهقي في الدلائل وغيرهم .
وفي وصف على عليه السلام يقول ضرار الصدائي : ونحن والله مع تقريبه
إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية وكذا
قال أبو حنيفة في جعفر الصادق عليه السلام دخلني له من الهيبة ما لم يدخلني
للمنصور .

وهكذا حال جميع الكمال من العارفين كما مر في وصف الشيخ الكامل
من كلام العارف ابن بنت الملبق رضى الله عنه .
ومنها الحرية وعدم الخوف من المخلوق فكان يصدع بالحق ولا يخاف في الله

لومة لا تم وينفذ رأيه وما يريد معارضاً بذلك للحكام وأعظم الدول كأنه أكبر ملوك الأرض وأكثرهم جنوداً وأمنهم قوة وما ذلك إلا اعتماداً على الله تعالى وتعزواً بجانبه واحتواءً بنصرتة ورلايته وإن كان الجهال والمغرورون كانوا يظنون أنه يفعل ذلك اعتماداً عليهم واستناداً إلى قوتهم حتى امتحنهم الله تعالى فافتضحوا وتحققوا أن جميعهم كان في حمايته وتحت كنفه ورعايته مناً من الله تعالى عليه وعلى اللاتئين بجانبه

وقد جاء إليه يوماً بعض الولاة ممن كان يظهر له محبة كذباً ونفاقاً وهو في الحقيقة لا يحب إلا اليهود وبعدهم النصارى فقال له على سبيل النصيحة والتخويف من معاندة الحكومة والوقوف في وجهها اعلم أنك صرت الآن عدواً لليهود والنصارى والمسلمين يعني من أهل طنجة ولم يبق معك إلا الله تعالى فضحك الشيخ رضي الله عنه من مقالته وقال له إذن بقي معنا كل شيء وحزنا النصرة على كل أحد .

وحدثني الشريف العارف بالله تعالى سيدي محمد بن الغالي قال كنت بيني وزر ال واجتمعت بحاكمها الفرنسي فقال لي كم تجمع تجكان من القبائل فقلت له هي قرية صغيرة فيها نحو ثلاثين داراً فدهش نظري وتعجب منه لظنه أن تجكان التي هي قرية الشيخ اسم لناحية كبيرة تجمع عدة قبائل لما يعلمه من معارضة الشيخ للدولة وعدم رضوخه لأوامرها فكان يرى ذلك لكثرة رجاله والقبائل التابعة له لا سيما وهو يرى أن جميع شيوخ المغرب قد خضعوا لفرنسا وأحبوها وخدموها وسعوا في مصالحها مع كثرة أتباعهم وانفرد الشيخ من بينهم بالتمسك بدينه وحرينه كما ذكره الفرنسيون أنفسهم فقد كتب حاكم فاس الفرنسي بول أودينو مقالا نشره في جريدة لا مجيس مروكان بتاريخ سابع عشر ابريل من سنة سبع وعشرين وتسعمائة والى عنوانه مولاي التي ذكر فيه أن جميع شيوخ المغرب خدموا فرنسا إلا الشيخ الدرقاوي بطنجة

وقد نقلت نص مقالته في الأصل مع عدة قضايا ووقائع في هذا الباب وبالجملة
فما رأينا ولا سمعنا من يعامل الحكام ويواجههم بما يكرهون إلا الشيخ
رضي الله عنه فإنه كان منفر د زمانه في الصدع بالحق وعدم الخوف من المخلوق كما
كان يشهد له بذلك الموافق والمخالف .

ومنها كمال العناية وتمام الحفظ والرعاية فإنه على كثرة أعدائه وحساده ولا
سيما بطنجة وكثرة ما كانوا يبلغونه عنه من العظام في السياسة إلى كل من
الدولتين وأنه دائم السعي في إثارة الفتنة التي يقصدون بها الجهاد مع ما كان
يأتيه هو من مخالفتيها والدعاية ضدّها لم يسلط الله عليه أحداً ولم يصرف فيه
مخلوقاً ولم يمس بسوء أصلاً وقد جاء إليه يوماً أحد أصحابه فرغاً مرعوباً فأخبره
بما حصل من الاحتكاك بين الفقراء والبوليس وأن الأمر قد كاد يصل إلى تكليم
البارود فسال له الشيخ لا يحصل شيء من ذلك فانا بحمد الله محفوظون
لا تصيينا اذاية مخلوق وكذلك كان فعاش كما أراد من غير أن يتصرف فيه
مخلوق أصلاً وحتى إن ضريبة المباني التي يدفعها كل أحد من الناس ولو الوزراء
والأمراء أبي أن يدفعها طول حياته وورد أمر من السلطان أخيراً باعفائه خاصة
من دفعها .

ومنها حفظه من الذنوب من صغره وكونه شب ونشأ في طاعة الله تعالى
لم تحصل منه صبوة في شبابه ولم تجر منه مخالفة في صباه إلى بلوغ كماله كما
كان يذكر ذلك عن نفسه تحمداً بنعمة الله تعالى عليه وكما كان يذكره أقاربه
من أقرانه ومن كان أكبر سنّاً منه ممن نشأوا معه من صغره .

ومنها كون نعمه مكفورة غير مشكورة ولا مذكورة ادخاراً ثمواها
عند الله تعالى دلالة على كمال إيمانه وكونه من أهل ولاية الله تعالى ورحمته فإن
أكثر من ناله فضل الشيخ وإحسانه لم يشكر ذلك ولا كان يعترف به لاسيما
وقد أسكنه الله بالمدينة التي هي معدن هذا المعنى وأساسه .

وقد روى الحاكم في المستدرک بسند صحيح من حديث سعد بن ابى وقاص

رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المؤمن مكفر يعنى يصنع
المعروف فلا يشكر

وروى ابن ابي الدنيا من مرسل عروة قال حض رسول الله صلى الله عليه
وسلم رجلا على رجل يأتى اليه معروفا فقال انى اصنعه به ولكنه يكفره
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رحمة الله على المكفرين هكذا
وبسط يده

وروى أيضاً عن ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال رحمة الله على المكفرين أنا رفيقهم يوم القيامة وقال
المؤمن مكفر

ومنها حال أصحابه معه من كمال الأدب و مزيد الاجلال والتعظيم والهيبة
والاحترام لا يتقدمون بين يديه فى شىء ولا يتأخرون عن امتثال أمره فى
شىء واذا كانوا فى مجلسه فكأنما على رؤوسهم الطير لا يرفعون بصرفهم اليه
هيبة وإجلالا فضلا عن أن يكلمه أحد منهم وهو ينظر اليه وهذا فضل من
الله تعالى ومنته منه عليه فان ذلك غريب جداً بين أهل تلك القرية .

ومنها كشفه الصريح وكثرة الكرامات التى جرت على يديه كما سيأتى
ذكر بعضه فى الباب الذى بعده

ومنها حفظه وسعة اطلاعه وتبحره فى العلوم الظاهرة والباطنة واستحضاره
الذى لم يعهد له نظير من أغلب أهل عصره

ومنها علو مقامه فى المعرفة بالله تعالى وبلوغه رتبة القطبية كما أشار اليه
كثير من أولياء وقته وصلحاءه بل كان هو نفسه يشير إلى ذلك فى
أواخر عمره

حدثنى بعضهم أنه كان جالسا مع الشيخ رضى الله عنه فقال له ان واحداً
من الناس مكث فى القطبية خمسا وثلاثين سنة وجمع الى القطبية الفردية والغوثية
قال فقلت له هذا مقام كبير لا يكاد يوجد فى هذا العصر فقال بل هو موجود

في الوقت وفهمت أنه يشير الى نفسه

وحدثني غيره قال كنا معه بالدار في مجلس وهو يتكلم في المعرفة ومقام الأولياء الى أن ذكر مقالة الشيخ عبد القادر الجيلاني رضى الله عنه قدمي هذا فوق رقبة كل ولي لله تعالى فقال الشيخ رضى الله عنه وفي وقتنا هذا من الأولياء من يحمل الشيخ عبد القادر ويجعله تحت أنفه

وحدثني من زار بعض أولياء الوقت المشهورين بالكرامات فقال له ان أولياء الله تعالى مع شيخك مثل الهراكس يعنى الفراخ الصغار ويدل لهذا مبايعة شيخه له وهو لا يزال معه في الزاوية فانه جمع ذات يوم الفقراء وقال لهم يايعوا السلطان ومد يده هو أولاً فبايعه ثم تبعه الفقراء وذلك اشارة منه رضى الله عنه الى القطبية التي هي السلطنة الحقيقية العظمى والسلطنة الظاهرية انما هي مجاز عنها .

وحدثني من سمع الشريف العلامة الصالح سيدى تاج الدين ابن عجيبة وقد سئل عن سبب قلة وقوع الضرر بكثرة من الكور الذي يرميه الاسبان على القرى والمدائن بالقبائل الجبلية فانه على كثرة مايرمى بها لا يكاد يهدم بها بيت ولا يموت بها أحد فقال سبب ذلك ان صاحب الوقت وهو سيدى محمد ابن الصديق يضع يده على الكور فلا يقع بها كبير ضرر للمسلمين .

وحدثني من ذهب أخيراً الى بعض الأولياء وكان متخوفاً على من بعض الحوادث الوقتية فقال له ذلك الولى والله مايتوصلون منه ولا الى قلامة ظفر لاظاهراً ولا باطناً فان والده هو الذى يتصرف فى الكون كله .

وحدث من زار قديماً بعض الظاهرين بالكرامات والآخر بالغميبات فى نواحي القبائل الغمارية من تلامذة سيدى الحاج عبد القادر بن عجيبة فقال له ان الأمر الآن كله بطنجة فمن أراد شيئاً فعليه بسيدى محمد بن الصديق ثم بعد هذا تكررت منه هذه المقالة لجماعة ممن قصدوه .

وحدث بعض طلبة العلم قال لما ذهبت لطلب العلم بفاس ذهبت فى صجبة

بعض الطلبة لزيارة الشيخ العارف بالله سيدي محمد بن ابراهيم فطلبنا منه أن يلقننا الورد لتتبرك به فقال كل ما عندنا من السر قد أخذته سيدي محمد بن الصديق فمن أراد شيئاً فليذهب اليه .

ولما كان الشيخ رضى الله عنه بفاس في زاوية شيخه رأى ذات ليلة بها كأن الشيخ مولاي العربي الدرقاوى رضى الله عنه جالساً تحت شجرة وفي عنقه سبحة فذهب وسلم عليه فخلع تلك السبحة من عنقه ووضعها في عنق الشيخ رضى الله عنه ولواها مرتين ثم لقنه الورد فلما استيقظ قص هذه الرؤيا على شيخه سيدي محمد بن ابراهيم رضى الله عنه فقال له لقنى الورد كما لقنك مولاي العربي فامتنع الشيخ من ذلك فأقسم عليه بالله أن يفعل وأن يكون من أتباعه وقال له ما انا إلا عبدك بلغت الأمانة التي أودعها جدك سيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن عند شيوخى وهم أودعوها عندى وأنا قد رددتها إلى محلها فتلقن منه ثم أمر أصحابه وفي مقدمتهم تقيبه الشريف مولاي احمد الكتانى أن يتلقنوا منه فالقن الشيخ جميعهم امتثالاً لأمر شيخه رضى الله عنه .

وكان الشيخ العارف بالله سيدي الطاهر التسولى بفاس يحب الشيخ كثيراً ويبالغ في اجلاله وإكباره ويقول لتلامذته لا تدعوه إلا بسيدي محمد الكامل ومن لم يدعه بذلك فامس هو من أصحابى وكان يقول لهم من أراد أن ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى سيدي محمد الكامل .

ومنها ما ذكره بعض الصالحين من أنه لا يرى وجهه شقى ولا يقف على قبره شقى ولا يأخذ ورده إلا سعيد .

فصل

وأختم هذا الباب بما عثرت عليه من مكاتب شيوخه وشيوخ العصر وأوليائه
في مخاطبته وذكر بعض القصائد التي قيلت فيه .

فكتب اليه من المدينة المنورة الشيخ الامام العارف القدوة المحدث سيدي
محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله تعالى ورضي عنه وهو أستاذه وشيخه في
العلم : أخانا وسيدنا الشريف الامام العلامة الصوفي الهام وحيد الدهر وفريد
العصر العارف بالله الذاب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم السالك
مسلك الصدق والتصديق أبا عبد الله مولانا محمد بن الصديق

وكتب اليه من دمشق شيخ الطريقة الشاذلية بها الولي الصالح سيدي محمد
ابن يلس رحمه الله : كعبة الحقائق القدسية ومعدن الرقائق الانسية بحر العلوم
اللدنية وكنز الأمرار الربانية شمس المعارف ومجمع اللطائف العارف بالله تعالى
سيدي محمد بن الصديق

وكتب اليه شيخ الطريقة الشاذلية العلامة المحقق البارع سيدي مفضل
أزيات : حيا الله بتحيات قدس كماله وزكيات أنس جماله مطلع الشمسين وبرزخ
البحرين العارف الواصل ذا المدد المتواصل الجامع لأشتات الفضائل العلامة
الناصرح الولي العارف الكبير أبا عبد الله سيدي محمد بن الصديق
المؤمنى الحسنى

وكتب اليه من فاس الشيخ المرابي العارف سيدي محمدا الحلوالقاسمي : شمس
وقتنا وعروة طريقنا وريحانة الله في أرضنا مرابي المريرين وقدوة السالكين
وقطب دائرة المحققين الشريف العالم الولي الكامل العارف بالله والدادل عليه
بأقواله وأفعاله وأحواله الجامع بين التشريع والتحقيق سيدي محمد
ابن الصديق

وكتب اليه العلامة القاضي احمد بن شعيب الازموري : الحضرة الربانية
والبهجة العرفانية الشيخ الامام العارف بالله العالم الخاشع الخاضع الشريف الرباني
أبا عبد الله سيدي محمد بن الصديق فذكر كلاما يظهر معناه من الآيات الآتية
ثم قال وأقول لكم :

ياسيدي الشيخ نجل الصالحين ومن في صالح القول والأفعال قد نشأ
يا ذروة المجد أستاذ الطريقة يا من في السناء رؤى وللسنا قد رأى
ذا العبد آلمه حزن أضربه وإن يحز نظرة منكم فقد برأ

وكتب اليه العالم الأديب الفقيه الكاتب بالنيابة السلطانية السيد محمد
الغلاوي : إلى من لا يطعم أبرع كاتب في تعداد بعض كمالاته ومن تقصر السن
الفصحاء عن التعبير بما خص به من بديع صفاته من لانسيمه إجلالا وتكرمة
وقدره المعتلى عن ذلك يكفي بعد إهداء اطيب تحية وسلام وتقبيل اليد
الكريمة التي تسيل من بحارها أودية الانعام فذكر كلاما ثم قال :

سل اصدق الناس عن حبي القديم تجد مصونه لم يزل في القلب محروسا
فكيف أنسى وثيق العهد حاشا وقد حبست طوعا عليك القلب تحببسا
لو لم يدم شخصكم في الفكر مرتما لكان طابع نجمي صار منحوسا
وإن يحل مانع عن وصلكم فعسى يكون خيرا لنا وللعدا بوسا
وليس من عجب قرب الديار ولم أصل وغيري اليك يمتطي العيسا
ففي المقادير أسرار تجلت عن الادرأك قد حجبت في الغيب تقديسا
لعل من قد قضى بالبعد يمنحني حظاً أحوز به قربا وتأنيسا
ويبدلن دائي المضنى بعافية تؤسس الصدق في الأعمال تأسيسا
بجاه جدك من شق الأمين فؤوا ده وأخرج منه حظ ابلبسا
عليه والآل أفضل التحية ما أضحي ودادكم في القلب مغروسا

وقال الأديب الفاضل السيد عبد الله بن محمد الهاشمي الوزاني موريا بلفظة

القطب في وصف مجلس الشيخ لقراءة صحيح البخاري وبالتقرب منه بجلاء .
تأمل إمام العلم آية حفظه كبدر على الكرسي يضيء على الصاحب
وقد أجلس ابنه العزيزين قربه كما هو شأن الفرقدين مع القطب
وقال أيضا في وصف درسه أن انقطع عنه مدة :

محدث عصر عاد والعود أحمد لدرس حديث المصطفى خير من يهدي
عجيب يشم الند من جمع درسه وما نظرت عين لدرسه من ند
وقال أيضا وقد اجتمع به بدار بعض الأحبة :

بلقاء أهل الله يظفر بالشفاء من كان قلبه بالذنوب على شفا
وينال في الدارين غاية قصده والله يمنحه المسرة والصفاء
وبمدحهم ينفي الشقا عن نفسه لاسيا بمدح نجل المصطفى
ابن الولي الصديق سيدنا ومو لانا محمد من بنوره يشتفى
شيخ المعارف والطريقة من به وبفضله هذا الزمان تشرفا
أحبي قلوب العالمين بعلمه وعن النهي ظلمات جهل قد نفى
فتبارك المولى الذي أعطى له علما بسؤل عنه لن يتوقفا
منه استمد التفتح والعرفان من وافى إلى أبوابه مستعظنا
وخطابه يشفى النفوس كما تما من لفظه الدر النفيس تألفا
تزداد إيمانا برؤية وجهه فكان ناظره يطالع مصحفا
فريده من وجهه في جنة وكفى له شرفا بنظرته كفى
كم من كرامات بدت ومناقب ومفاخر ظهرت وليس بها خفا
جمع المكارم كلها فتكاملت أوصافه العليا وحاز الاصطفاء
أمداحه لا تنتهى وبذكرها تبدو المنافع للأحبة والشفاء
لم يشق ناظره وملتمس الرضى منه ونظرته بها زال الجفا
ولقد سالت من الكرم جليسة معه فأنعم لي بها وتعظفا
فشهدت في نفسى من الافراح ما يعقوب شاهد حين أبصر يوسفما

قمر أضاء على اليقين ونجمله
 يهنأ جليسهأ ويعظم أجره
 فالله أسأل أن يديم له البقا
 ونجمله ولمن بنورهما اكتفى
 وقال الفاضل الأديب السيد محمد بن الشيخ القاضي :

الأواسكبا من فرط عشق الخرائد
 خرائد لا تنظر مدى الدهر مثاها
 تهادى وتمشى كاهوينا طبيعة
 رمانا به يحيى القلوب وصاها
 ألا ليت شعري هل لدى الدهر عودة
 وصال لسلمى حين جاءت تزورنى
 فقلت سليمى لا أريد خرائدا
 الى الشيخ للصدى يعرف نسبة
 بنيت لعالم الحق بنيان واصل
 وقمت بعلم الفقه حفظاً محرراً
 وعلم الحديث والفنون جميعها
 أتيت لعالم الشرع والحق ناصرأ
 كريم جواد عالم متواضع
 بليغ فلا سبحانه يوم لقائه
 سخى فلا معن يباهى وحاتم
 فكف السخا لا تستطيع لقاءه
 وبحر الندأ أمواجه متأدياً
 عليك بباب الشيخ تفنقر بالنا
 فانت إمام سابق فى فضيلة

دموع العيون الواكفات الشرائد
 تيمس كغصن البان وقت العوائد
 وتستر رمان الشدى النواهد
 ترائبها مصتولة كالقلائد
 وهل من خليل للوصال مساعد
 ولم تأت إلا من فيانى الأبعاد
 وقصدى إلى شيخ الشيوخ وقائدى
 ويسمو بصدق فى كريم العوائد
 مداو لداء القلب نانى الشدائد
 وعلم اصول مع دليل العقائد
 ونحو اللسان والخروف الزوائد
 فانت بهذا العصر قطب الأماجد
 لكل جليس من قريب ووافد
 خطيب ولا قس له بمعاند
 لكف نداه فى مجال المحامد
 مخافتها من جوده المتوارد
 تفيض عظيم بالمعارف سائد
 وكل جميل من طريف وتالد
 وأنت لطررد الجهل بدر الطوارد

وأنت لهذا العصر نور يضيئه ويقصر عن عليك مدح القصائد
فحمداً لمن أعطاك منه مواهبها تفوق على الإحصاء رغم الأحاسد
وقال الأديب محمد بودقة المكناسي :

عزمت فلم تحف إخفاق سعي ففرت بما هويت من المعالي
لمست بأصبع قمم التسامي ونلت من المزايا كل عالي
وطئت بأخص أوج المعالي فأرغمت الأنوف ولم تبال
وشاوك في فنون العلم شاو لعمرى دونه لمس الهلال
كأنك آية من آي ربي تظاطيء نحوها هام الرجال
وكم وافت لك الأسرار تسعى على ساق بجد وامتثال
فأنت إمام كل الناس دنيا ونجل عميدهم يوم المآل
فخذها كالتهاني من صحيح يقدمها كعقد من لثالي
هنيئاً يا ابن فاطمة بعبيد عظيم المهرجان والاحتفال
بقيتم طبق مالك من أمان ونلت كل مرتخص وغالي
وقال بعضهم ولم أقف على اسمه :

القلب من لهب الأشواق مكلوم إذ حب مثلك في الأحشاء مكتوم
يا من سما بعظيم البر منزلة وفضله لجميع الخلق معلوم
أنت الامام الذي سارت مناقبه وبالناية من مولاه مرحوم
لولاك في أرض طنجة وساحتها تذب عنها لامسى رأسها الروم
هبوا لخدمته يا أهل بلدته قوموا لدعوته يا قومه قوموا

الباب السابع

في ذكر بعض ما جرى على يديه من الكرامات وأخبر به رضى الله عنه من المكاشفات وهو باب واسع لا تكاد تحصر أخباره ولا تدخل تحت العدد وقائمه إذ قل أن يوجد أحدهم أصحابه المتفرقين في الاقطار الشاسعة من حواضر وبادى الا وعنده في هذا الباب أخبار ووقائع مما شاهده بنفسه أو سمعه من شاهده خصوصاً وقد مات منهم العدد الكثير وانقطعت سبل المواصلة بهم وإنما نذكر هنا بعض ما شاهدناه وسمعناه ممن أمكن الاجتماع به في الوقت الحاضر .

فمن ذلك أنى لما قدمت من القاهرة بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه أتى إلى بعض أصحابه فقال لى إن زوجى حامل وقد نزل بها داء كان أصابها في بداية الحمل وكنت أخبرت به الشيخ فأمرنى باطعامها اللوز المدقوق بالسحتر وقال لى إنها ستلد ولداً ذكراً فقلت له أطعمها الآن أيضاً ما أمرك به وبعد عشرين يوماً ولدت ذكراً كما قال .

ومنها أن امرأة من قرابته جاءت لزيارته وكان لها ولد فمات ولم تحمل بعده نحو عشر سنين فقال لها إنك ستحملين قريباً بولد ذكر فسميه حمزة وسيعيش إن شاء الله فكان كما قال ثم لم تحمل بعده .

ومنها انه لما ولد آخر أنجابه قال لزوجاته ان والدى مات وترك ولده فلاناً ابن شهرين وأنا كذلك سأترك ولدى هذا ابن شهرين فمات بعد شهرين لان ولده المذكور ولد سابع عشر رجب وتوفى هو سادس شوال بعد شهرين وسبعة أيام أو ثمانية ولم يكن في ذلك الوقت مريضاً بل بعد ذلك بنحو نصف شهر تزوج امرأة أخرى كما سبق .

وتكررت الحكايات وتنوعت أساليبها عنه في هذا المعنى وهو إخباره
بموت جمعة كثيرة من الناس تارة بالتصريح وأخرى بالتلويح .

ومنها أنه في السنة التي توفي فيها قام ذات ليلة في منتصف الليل على
عادته في كل ليلة لكن لم يذهب إلى موضع مصلاه بل بقي بداخل الغرفة
وكانت الزوجة نائمة فانتبهت على سماع حركة وجلبة وأخذ وعراك شديد
وبعدها سقط الشيخ سقطاً منكراً فقامت فرعة فاذا هو جالس يلهث هثماً
عظيماً وإذا حاجبه مشجوج ووجهه وصدره مكسوان دما فسألته عن الواقع
فأجابها بأنه سقط على الحصير فقالت كيف محصل مثل هذا الجرح العظيم
من السقوط على الحصير مع اني كنت أسمع حركة وجلبة على أثرها استيقظت
فأصر على ذلك وهو يضحك ويمسح الدم عن وجهه ولما شاع خبر ذلك سأله
بعض من له به مزيد اختصاص فأخبره بأن ولياً لله تعالى من أهل اليمن
كان يتعرض لبعض مصالح المسامين فحصل بيني وبينه نزاع أدى إلى المضاربة
والمقاتلة فقتلته بعد أن شجني ثم بعد هذا الحادث بنحو السنة توفي هو
رضي الله عنه كما وقع لجده سيدي أحمد بن عبد المؤمن فانه بعد قتله
للغريزوري من طريق الغيب سنة كانت وفاته أيضاً كما ذكرته في الأصل
وفي كتاب المؤذن مع بعض من وقع له ذلك من الأولياء .

ومنها ان بعض الفقهاء لم يكن له في بدايته أولاد فاوصى للشيخ بثلاث
ماله بعد الوفاة وكتب بذلك كتاباً وأشهد عليه ثم أتاه به فبقي عنده أزيد من
عشر سنين وفي يوم أرسل به إليه وقال له انا كنا قبلنا منك في وقت لم يكن
لك أولاد واذ رزقك الله أولادا فانت أولى به فلما ذهب الرسول به إلى الرجل
المذكور صار يبدي عجبه ويقول هذه كرامة عظيمة فان والدي وصله الخبر
بأنى أوصيت بالثلاث للشيخ فارس إلى قريباً يقول لا بد أن ترجع فيما أعطيت
شيخك وإلا فانا ساخط عليك فبقيت متحيراً خائفاً من سخط الوالد ومستحياً
من الشيخ وبيننا أنا أفكر في ذلك ولم أخبر به أحداً إذا بك جئتي بالكتاب
من غير طلب ولا سؤال .

ومنها أنى كنت وأنا بالقاهرة أفعل شيئا أو أعزم على شيء فيأتيني منه كتاب بعد العزم بيومين أو ثلاثة يحذرنى فيه من ذلك الشيء ويذكرنى عاقبته أو يأمرنى به ويؤكد على فيه تارة تصریحا وتارة تلويحا مع أن الكتاب لا يمكن أن يصل من المغرب إلى القاهرة فى أقل من اسبوع فكان رضى الله عنه يكتب إلى فى ذلك العزم قبل أن يجرى بخاطرى .

ومنها ما ذكره صاحب النسمات قال حلف رجل بالطلاق لا يدخل دار فلان لرجل من أصهاره ثم بعد مدة مات المحلوف عليه فسألنى الرجل هل يجوز له دخول داره بعد موته فأرسلت إلى الشيخ مع بعض أنجاله فاجابه بأنه لا يدخل فاستشكلت الجواب وظننت أن الرسول لم يبلغ السؤال على وجهه فكتبته فى ورقة وكتبت معه بعض النصوص الفقهية وأرسلت إليه فلما نظر فيه قال قل له الجواب ما ذكرته أولا فبقيت حائرا متعجبا فلما قابات السائل سألته عن سبب الحلف فاذا هو حلف من أجل زوج الرجل الميت وكانت أخت زوجته هو لا من أجل الميت نفسه وإنما سماه عند الحلف لكونه صاحب الدار والمرأة المذكورة لا تزال بالدار والحلف انما وقع من أجلها فعلمت أن ذلك من كشفه رضى الله عنه .

ومنها انه لما ركب القطار متوجها من بورسعيد إلى القاهرة وقف بالبور بابى صير وكان وقت العصر فنزل الشيخ للصلاة ونزلنا معه فصار الركاب يقولون لا تفعلوا فان الببور لا يقف هنا الا قليلا بحيث لا تتمكنكم الصلاة فلم يلتفت اليهم وصار أهل المحطة أيضا يصيحون ويقولون لم يبق لقيام الببور إلا دقيقة واحدة أو اثنان فنزل وصلى العصر بالاتمام أربع ركعات ثم سلم وركب وقام الببور وصار الناس متعجبين لتأخر الببور عن موعد قيامه .

ومنها أنه كان له أتباع كثيرون من الجن كان يراهم أهل البيت ووقعت لهم معهم وقائع متعددة فكانوا يذكرون ذلك للشيخ فيقول لا تخافوا فانهم فقراء ياتون للزيارة .

ومنها انه خرج ذات يوم إلى الجزيرة بضواحي القاهرة وجلس بمكان متسع هناك معد للاجواس في الصيف لمن يشرب الشرابات والمبردات فجلس وجلسنا معه فرأيت في منتهى ذلك الموضع شاشة بيضاء لعرض السينما على القاعدين بعد الغروب فقات في نفسي إذا جاس إلى وقت عرضها فسينظر إليها اليوم وكان يسمع عنها ويشدد النكير فيها جدا فصلى المغرب ثم جلس وأطال الصمت لا يتكلم مع أحد وصرنا ننتظر ظهور ذلك واذا بالنور الكهربائي انقطع تياره ووقف سير العربات الكهربائية نحو نصف ساعة وهو في كلها صامت لا يتكلم ونحن سكوت ثم التفت إلى وقال نمشي قلت عن اذنتكم فقام وجاء التيار الكهربائي عند قيامه فركبنا ونزلنا مع أني أقممت تسع سنين بالقاهرة ما رأيت التيار الكهربائي انقطع لها ولا دقيقة واحدة .

ومنها أنه كان يقول لبعض أصحابه يافلان اصبر فسيمر عليك أمر عظيم قال ذلك له مرارا وبعد وفاته بنحو العامين وقع له ما كان يخبره به ورأى من الشدائد والأحوال ماتشيب له الولدان وحضر في حرب أسبانيا ثم في أوائل حرب ألمانيا مع الحلفاء ولا يزال منفيًا عن وطنه الى اليوم .
ومنها ما حدثني به بعضهم قال ألقى القبض على بعض قرابتي في مسألة ثورية سياسية فحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة فذهبت إلى الشيخ مستشفعًا به وحصل لي تشويش عظيم فقال لي كل هذا لا أصل له واعتقد أن ابن عمك معنا الآن في موضعنا هذا فلم يمر العام حتى اجتمعنا بذلك الموضع عنده ونسخ حكم الثلاثين سنة .

ومنها أن بعض أطباء الجبل شددت عليه الحكومة الاسبانية في التداوى وأرادت منعه منه فجاء إلى الشيخ فقال له لا تخف فانهم سيأتون أنفسهم للتداوى عندك فكان ذلك بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه بنحو العام لما وقع الحرب باسبانيا وكثر الجرحى المنكسر عظامهم فكانوا يرسلونهم للتداوى عنده .

ومنها أنه أرسل يوماً لرجل خياط وأمره أن يخيط له جلابة ويحضرها في اليوم الثاني فاعتذراً بأنه لا يخيط بالليل لضرر يعتريه عند الخياطة بالليل وإنما يخيط بالنهار منذ زمان طويل لأجل الداء المذكور فلما رجع إليه الرسول بذلك أعطاه شمعة وقال قل له يوقدها ويخيط على ضوءها ولا يخاف من شيء ففعل فأذهب الله عنه ذلك الداء ورجع إلى حالته الأولى ولا يزال كذلك إلى اليوم .

ومنها ما حدثني به بعض العلماء الأشراف قال قصدت الشيخ للزيارة وأخذت أخاً صغيراً لم يخرج من بلده قط فلما سافرنا وكان فصل الشتاء أصابنا شدائد ومتاعب من أجل الرياح والأمطار والبرد والتأج الذي أخرنا بالطريق ثمانية أيام فقال أخى في ضجر ليتنا لم نخرج من محلنا فقلت له هذا دليل قبول زيارتنا إذ قابلتنا هذه المشاق التي يكون عظم الأجر على قدر عظمها فقال في حالة غضب أنا ما خرجت للزيارة إنما خرجت للفسحة ورؤية مدينة طنجة فلما قدمنا على الشيخ وكان ذلك قبل عيد الأضحى جلسنا في ضيافته أياماً فلما قرب العيد قال لي يوماً يا فلان أما أنت وفلان لآخٍ آخر كان معنا فسافرا للبلد لتحضرا العيد مع الأهل وأما فلان للآخ الصغير فأتركاه معنا حتى نفسحه في طنجة قال فتذكرت مقالته التي قالها بالطريق وعرفت أن الشيخ يشير إليها ولكن أردت أن أتحقق فقلت له يا سيدي هو ما جاء إلا بقصد زيارتكم فقال لا هو جاء للفسحة فأعدتها عليه مرة أخرى لتثبتت وقلت يا سيدي ما جاء إلا للزيارة فأعاد قوله أيضاً وقال بل ما جاء إلا للفسحة ثم أعدت مقالتي ثالث مرة فقال حسن وإذا كان الأمر كما تقول فليجمع بين الفسحة والزيارة .

ومنها أن بعض الصادقين حدث أنه لما كان وقت الجهاد بالقبيلة الانجرية وكانت وقعة صدينة وكانت حاضراً بها رأيت الشيخ وقت الممعة في جهة فقصدته للسلام عليه فلم أر له أثراً وكان وقته بطنجة لم يخرج منها .

ومنها ما حدث به بعض الأشراف الصالحين من أهل فاس قال جاء له الشيخ
من طريق الطي ومكث في ضيافتي ثلاثة أيام ما خرج من الدار ولا رآه أحد
عندي وهو مقيم بطنجة لم يخرج منها .

ومنها ما حدثني به بعض الفقراء بالقبيلة الانجرية قال لما كان الشيخ
عندنا راجعا من غمارة وكانت أيام فتنة الريسوني دخلت عليه متخوفا من
وإذابة الريسوني فقال لي من هنا إلى شهر انا ضامن ان لا يقع لكم شيء وبعد
رجوعنا الى طنجة لا بد ان نجتمع ونذكر الله جميعا بها قال ثم توجه الشيخ
إلى طنجة وفي اليوم الحادي والثلاثين من مقالته احرق اصحاب الريسوني داري
وسلم الله عمري منهم فتمعجبت من تحقيقه لمدة الضمان وكونه لم يزد على ذلك
يوما واحدا ومن سلامة نفسى منهم حتى اجتمعنا به وذكرنا الله معه بطنجة
كما قال .

ومنها ما حدثني بعض الأشراف قال مرض والدي مرضاً طويلاً حتى سئم
أهله وكلوا من مقابلته فلما اشتد بنا الحال ذهبت إلى الشيخ وذكرت
له ذلك فقال لي يوم الأربعاء ينتهي الأمر إن شاء الله تعالى قال فخرجت
جازماً بما قال وذهبت في الحال وأحضرت الكفن وما يلزم للجنائز وفي يوم
الأربعاء توفي والدي قال وكنت أتيت قبل ذلك للزيارة فخرج إلى ولم
يدخلني فسلمت عليه وانصرفت فلما وليت ناداني فقال أخبروني انك أنت
المباشر لوالدك والقائم بشئونه فقلت نعم قال اذهب فسيعطيك الله الدنيا
والآخرة قال وكنت وقتئذ لا أملك الامانة وأربعمين ريالاً فلم تمض على
مقالته أربعة أعوام حتى فتح الله فتحاً عظيماً لم يخطر لي بالبال وامتلكت دورا
ومزارع ولا زلت أرى فضل الله تعالى علي في الزيادة .

ومنها ما حدث به بعض أفاضل أهل فاس قال : قدمت لطنجة لصنع
بعض الشبابيك بدار السلطان عبد الحفيظ ، وفي يوم الجمعة ذهبت إلى الزاوية

لحضور العمارة مع الشيخ وسماع مذاكرته فلما دخلت وجدته يتكلم على رسائل مولاي العربي بكلام بسيط فقلت في نفسي ما هكذا ببلغنا عن الشيخ ولا عن معارفه وعلومه قال فبمجرد ما وقع هذا في نفسي رفع رأسه ونظر الى وشرع يتكلم بكلام عجيب ويخوض في معارف واذواق فدهشت حتى صرت لا أفهم ما يقول وخجبت منه غاية الخجل وصار العرق ينحدر مني حياء مما خطر بيالى .

ومنها ما حدثني به بعض الأشراف الصالحين قال كنت أنا وأخي نمشي بأطراف البلد فتذاكرنا أمر الجدول والتصرف به فمزمناعلى الذهاب الى الشيخ وطلب الاذن منه في التصرف به فلما دخلنا عليه فاتمنا ابتداء من غير سؤال بذكر الكلام على علم الجدول وامرار الحرف وانه صعب المنال خطر غير محمود العاقبة وصار يذكر لنا شروطه وأحكامه وما يلزم للتصرف به مما هو في غاية البعد بن طاقتنا فعلمنا بكشفه الصريح واجابنا عما جئنا له من غير سؤال ومنها ان امرأة كان ياتها كل ليلة عند ارادة النوم جنى في صورة كلب فأتى والدها الى الشيخ وذكر له ذلك فقال له مرها ان تقول له انا اشكيك الى صاحب اللحية الحمراء يعني نفسه لانه كان يخضب بالحناء ففعلت فلم يرجع اليها بعد ذلك .

ومنها ما ذكره في نبذة التحقيق قال ذهبت لزيارته يوما فوجدت عنده جماعة من الناس فأخذني وادخلني الى محل آخر وقال لي هؤلاء القوم بقاليون جاءوا يشتكون اذاية الريسونى ونفيه عنهم النسب بسبب ما أقام اليه بعض فقهاء الوقت ويطلبون الكتابة في إثبات نسبهم فدهشت بذلك كانه عمل بيد لاني ما قصدت زيارته الا لآخيره بما حصلت عليه من نسخة من شجرة البقاليين ثم ذكر القصة وان الشيخ امره بالتأليف في ذلك .

قال ومثل هذا اتفق لي معه كثيرا كنت اعقد النية واذهب اليه بقصد الكلام معه في مسألة عامية تشكل على أو غرض دنيوى فيكون غالباً هو

المفتاح لى بما جئت له ومن ذلك مسألة كون الحرام لا يتعلق بدمتين فانى كنت بتطوان وجرت بها مذاكرة فى المسألة مع الفقيه اللواجرى وظهر منه تشديد فيها ولم يحضرنى وقته من النصوص ما يكفى فلما رجعت عزمى على الذهاب الى الشيخ للاستفادة منه فى المسألة فقبل أن أذهب اليه بعث الى مع بعض أصحابه شرح ابن رجب على الأربعين النووية وقال اشتر هذا الكتاب فانه ينفعك فنظرت فيه وقابت أوراقه وإذا فى موضع منه علامة من عند الشيخ فنظرت فى الورقة المعلم عليها فوقع بصرى على المسألة نفسها فى شرح الحديث السادس فسلمت الثمن للرسول وأخذت الكتاب فوجدت فيه ما نفعنى كما قال الشيخ .

قال ومثل هذا جوابه لى يوما عن سؤال عزمى على الذهاب اليه ليبسط لى المقال فيه فبينما أنا كذلك إذ به يوجه الى لطائف المتن الكبرى للعارف الشعرانى معلما فيه أيضاً على موضع الكلام فى المسألة عينها وهى كون أهل المراتب يتسلط عليهم من يؤذيتهم فى بدايتهم خصوصاً الفقراء المنتسبين .

قال وبالجملة فالذى وقع لى مع هذا السيد الجليل من هذا القبيل كثير جداً بل إنى تعودت منه ذلك حتى صار عندى من قبيل الضروريات ثم أطال فى ذلك بما ينظر فيه .

ومنها ما ذكره صاحب النسمات قال كنت معه بفاس سنة سبع وعشرين وكنا بمنزل بعض الاخوان فجاء الفقير المتجرد الداكر السيد العباس براده فلما دخل قال له الشيخ رضى الله عنه لم ابطأت يافلان قال كنت اطوف فى فاس بالذكر لأن مولانا ادريس رضى الله عنه قال لى حصن لى بلدتى بذكر الله جهراً حتى لا يدخلها الفرنسيس فتبسم الشيخ وقال له ما فى يدك تحقيق ولا يحصل لك شىء من هذا والفرنسيس لا بد داخل فكانه استنكر ذلك واستعظمه فقال انا ما قلت الا ما قال لى فقال له الشيخ ارجع اليه واسأله عن هذا الأمر فانه رجع عما وعدك به فسكت ولم يرد جواباً فكان الأمر

كما قال فانه بعد سنتين نفذ حكم الله وقضاؤه المبرم ودخل الفرنسيين سنة
تسع وعشرين .

ومنها ما حدثني به بعض الصالحين من أصحابه قال ذهبت إلى الشيخ يوماً
وأذن لي بالدخول فلما أقبلت على المحل الذي هو به رأيت ذاته عظيمة جداً
قد حازت ركناً كبيراً من الغرفة فدهشت لذلك فلما وقع بصره على تبسم
وقال مرحباً فزال غي ما أصابني من الدهش ثم رجع جسمه إلى حالته الاعتيادية .
وحدثني بمثل هذا أيضاً غيره من الفقراء الصادقين

ومنها ما حدثني به فقيه من بني سعيد وهو رجل صالح مشهور ببلده
قال ذهبت إلى تيجان لحضور الموسم فرأيت الشيخ قرب ضريح جده فذهبت
أسعى للسلام عليه فلم أجده أثراً فرجعت وسألت بعض الأشراف من أهلها
وقلت أين نزل الشيخ هنا فصار يضحك وقال الشيخ بطنجة لم يقدم إلى
هذه البلدة .

ومنها ما حدثني به بعض أهل العلم قال كنت أواخر أيام الشيخ رضى الله
عنه أكثر التردد لزيارته فكان يقول لى كثيراً هل سمعت شيئاً عن حرب
أسبانيا فأعجب لذلك من جهة انه لم يكن بها حرب ومن جهة أنى لست من
أهل السياسة وقراءة الجرائد إلى أن فاجأتنا حرب أسبانيا بعد وفاة الشيخ
رضى الله عنه بنحو سبعة أشهر .

ومنها ما حدثني به بعض الخطباء من الفقراء الصالحين قال رأيت ذات ليلة
كانى ذاهب إلى الحج فلما استيقظت تصدت الشيخ للزيارة ولاقص عليه
الرؤيا لعلى أسمع منه بشارة ووعداً بذلك فلما جلست معه عدلت عن ذكرها
واشتغل خاطرى بامر آخر فقال لى يا فلان ستكون سفرة جمالية إن
شاء الله تعالى .

وكراماته رضى الله عنه كثيرة جداً وقد ذكرت فى الأصل أضعاف هذا
مع كونه لا نسبة بينه وبين الواقع والحمد لله رب العالمين .

الباب الثامن

في ترجمة شيخه في الطريق وهو الشيخ الامام العالم العلامة الهمام العارف الكبير المحقق الفرد الشهير ببقية السلف وحجة الله على الخلف سيدي محمد بن المفضل بن ابراهيم وبهذا عرفت عائلته اولاد ابن ابراهيم ولذلك يكتب بالالف ولد رضى الله عنه بفاس وحفظ القرآن العظيم على كبر لانه لم يتوجه لحفظه الا بعد البلوغ ثم شرع في طلب العلم واعتنى بحفظ المتون فحفظ مختصر خليل وتحفة ابن عاصم والفيحة ابن مالك والاجرومية وأخذ العلم عن جماعة علماء فاس في وقته ثم بعد الانتهاء من الطالب اشتمل بالتدريس في جامع القرويين نحو أربعة أعوام ثم انتسب ودخل في طريق أهل الله فسلكها على قدم التجريد والمجاهدة التي انقطع نظيرها منذ قرون وكان السبب في أخذه الطريق رفيقه في الطالب الفقيه الامام العلامة الشريف أبو العباس سيدي احمد ابن الخياط فانه أخذ عن الشيخ العارف بالله سيدي عبد الواحد بناني ثم دعاه إلى الأخذ عنه ففعل وتلقى منه ورد الطريقة الشاذلية الدرقاوية فطلب منهما الشيخ الحضور مع الفقراء فجعلوا يترددان اليه وعليهما حلة العلماء المعروفة بفاس والمغرب فصار الشيخ يجردهما من ذلك بالتدرج الى أن خرجا عن جميع العوائد والمالوفات ثم لبسا الخشن من الثياب بل لبسا الخيش وشدوا في وسطهما الحبل وانقطعوا للمجاهدة وخرقوا العوائد والذكر جهرا بشوارع فاس التي كانوا يجران فيها بهيأة العلماء مع ارتكاب كل ما يشق على النفس وترك الشهوات وتعمير الوقت بأنواع الطاعات ومكثا على هذا الحال ست سنين مات في اتهما شيخهما سيدي عبد الواحد بناني رضى الله عنه فجدها الأخذ عن أخيه في الشيخ سيدي الحاج أحمد ربيع بوصاية من شيخهما واستمر معه على حالهما الى أن دخلا معه السجن في جماعة من الفقراء على يد قاضي فاس عمر الرنده وذلك بوصاية الفقيه الجامد محمد بن المدنى كنون فانه هو الذي طلب من القاضي

ان يأمرهما بالرجوع الى التدريس والاشتغال بالعلم وترك ما هم فيه من التجريد
 والمجاهدة للنفس وكان الباعث له على ذلك حقه على أبي العباس ابن الخياط
 اذ كان من أنجب تلامذته وأزهم لدروسه وخدمته فلما دخل في الطريق
 انقطع عن درسه فعاتبه يوما وقال له كنت أظن أنك لا تقدم على شيء كيفما
 كان الا بعد مشورتى فاذا بك قدمت على هذا الأمر بغير علمى فلما لم ينجح
 فيه عقابه وشى به الى القاضى فأمرهما بترك ذلك والرجوع الى تدريس العلم فامتثعا
 فأدخلهما وشيخهما وجماعته الى السجن فمكثوا فيه ثلاثة أشهر هدى الله فيها
 على يدهم من كان بالسجن من العصاة وتاركى الصلاة وحصل لهم خير جسيم
 ولما مرت المدة المذكورة أخرجهم القاضى وألزم المذكورين بالرجوع الى
 التدريس أيضا فلما ابن الخياط فرجع اليه بأمر شيخه وأما المترجم فاستمر على
 تجريده وعبادته وانقطاعه فذهب الى بيت كان له بالمدرسة البوعنانية وأقبل
 على العبادة وتفريغها فكان ورده عشرة أحزاب من القرآن العظيم خصه بها
 شيخه مع ورد الطريقة ومكث خمس سنين صائما يقطر على تمره واحدة ويتسحر
 بزبيبة واحدة وكان الباعث له على ذلك انه كان ينسخ شرح الشمائل فمر
 به حديث كل عمل ابن آدم له الا الصيام فهو لى وأنا أجزي به يترك طعامه
 وشرابه من أجل فقال كيف يقول الحق هذا وأنا أفطر فشرع في الصيام على
 الصفة المذكورة وكان مع ذلك يذهب كل ليلة الى مراحيض المساجد
 والمدارس فيغسلها وينظفها خدمة للمسلمين وهضا لنفسه فأثر ذلك في جسده
 فرض مدة طويلة ذهبت فيها احدى عينيه وكان جنى ضربه فيها أيام غسله
 لتلك المراحيض فلما شفاه الله تعالى باع ذلك البيت وجميع ما فيه من الكتب
 وغيرها وقد وهب ثمن ذلك لشيخه ثم لم باب الزاوية فكان ينام خارج
 الباب مدة طويلة الى أن اذنت له زوجة الشيخ سيدي محمد ايوب صاحب
 الزاوية المدفون بها وهو شيخ شيخه فدخلها وعمرها بذكر الله تعالى وتربية
 الفقراء والمريدين الى ان مات بها .

ولما مات شيخه الثاني سيدى أحمد ربيع شرع الناس فى الأخذ عنه والانتساب إليه فاشتهر أمره بفاس وأقبل الناس عليه بالأخذ والتلقى مع المحبة والتعظيم والاعتقاد والاحترام وامتلات عليه الزاوية بالفقراء المتجردين من أهل فاس والغرباء فكان يربهم على طريقته فى الجد والاجتهاد والصيام والقيام ومحاربة الهوى ومخالفة النفس فى جميع ما تهوى حتى كان لا يتركهم يتناولون الطعام إلا بعد تغير طعمه وذهاب لذته بان يتركه نحو اليومين والثلاثة وربما خلط لونين مختلفى الطعم والمذاق فى أنية واحدة وأحياناً يغمز الطعام بالماء حتى لا تبقى فيه لذة يتمتع بها وتدعو الى الاكثار منه وملء البطن الذى ما ملأ ابن أدم وعاء شراً منه وغضب مرة من فقير له أتاه بطعام جيد فرده عليه وانتهره وقال له نحن عندكم بمنزلة المرحاض كل من عنده فضلة يصبها فيه .

وكانت كتبه التى يقرأها مع الفقراء كتاب تاج العروس والتنوير فى إسقاط التدبير للتاج ابن عطاء الله رضى الله عنه وكذلك حكمه بشرح ابن عجيبة وكان يقرأ خاصة تفسير الجلالين كلما ختمه افتتحه مرة أخرى بقراءة تلميذه الشريف نور الدين .

وكان له اعتناء عظيم بذكر اسمه تعالى اللطيف مع الفقراء بالزاوية مساء بين العشاءين وبضريح مولانا إدريس رضى الله عنه صباحاً وكان يقصد بذلك حصول اللطف بالامة لما كان يتوقع من نزول البلاء وحلول النقم باحتلال الكفار الذى هو أعظم نقمة وشر بلية ورزية فكان ذلك حاصلًا مدة حياته ولم يقع الاحتلال إلا بعد وفاته .

وكان يلبس ثلاثة أثواب لا يزيد عليها صيفا وشتاء وهى قميص وقشابة صوف ومربعة كان لبسها باذن شيخه وأخبره شيخه أنه أمر بها باذن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت لباسه الى أن لزم الفراش وانتقل بعده الى جوار ربه .

وكان في بداية مشيخته يلف على يده اليمنى خرقة من الخيش لئلا يصيب يده شفتا من يقبلها من المردان .

وكان في آخر أيامه لا يتناول من الطعام الا شربة لبن في الصباح وأخرى في المساء وكان لا ينام الليل أصلاً بل يستغرقه بالصلاة وذكور اسم الله اللطيف ولم يتزوج قط ولا مالت نفسه اليه ولا إلى غيره من الشهوات وقد عرض عليه مرة بعض الوجهاء والأعيان أن يزوجه أو يشتري له جاريتين ويسكنه داراً وينفق عليه الى أن يموت فامتنع وقال انى بعت نفسى لله تعالى فلم يبق لى فيها رجوع .

وكان عظيم الهيبة شديد الشكيمة لا يستطيع أحد مواجهته بخلاف ما هو فيه من الجود والاجتهاد والاقبال على الله تعالى والاعراض عن الدنيا وما يؤول اليها حتى إن من عرض عليه مسألة الزواج وهو من أكابر العلماء الأشراف أعيان أهل المغرب لم يستطيع مواجهته بذلك وانما راسله به مع تلميذه الشريف نور الدين وكان يخدمه ويدخل عليه ويذكر عنده بأمره ويقراً عليه الكتب التي يريد سماعها .

وقد حدثنى أنه خدمه ثمان سنين فما رآه ضحك فيها وانبسط إلا مرتين إحداهما أنه كان بيت بعض الاخوان فسأله هل عندك كتاب قال نعم عندى المستطرف فأتاه به فدفعه إلى مولانا الشيخ الوالد وقال افتحه فما وقع بصرك عليه فاقرأه ففعل فوافق الكتابة فى الفالودج فصار يقرأ وهو يضحك وحصل له سرور وانبساط وقال ما نحن إلا بشر ومرة أخرى فى بيت بعض الفقراء أيضاً قال وما عداهما لم أره ضاحكاً قط فى خلال هذه المدة .

وكان يجب الخمول والتواضع والسكون تحت مجارى الأقدار فلا يتظاهر بكرامة ولا يفوه بدعوى إلا إذا غلبه الحال وغاب عن حسه وأظهر الله على يديه مالا اختيار له فيه كما حدثنى الشريف المذكور وغيره قالوا كان الشيخ

أواخر عمره في غرفته بالزاوية وحده فنأدى بأعلى صوته يا نور الدين فلما دخل عليه وجدته في حال عظيمة فقال له إقاب الأعلى أسفل والأسفل أعلى ولم يزد على ذلك ثم رجع إلى حسه وبعد هذه الواقعة صار يظهر انعكاس الأحوال في الدنيا وانقلبت وتبدلت إلى أن صار الأعلى أسفل والأسفل أعلى ووصل إلى ما هو عليه الآن نسأل الله اللطيف والعافية بمنه وفضله وجوده ورحمته الواسعة وشفاعة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان في آخر عمره أقعد فكان إذا اضطجع لا يستطيع الجلوس بنفسه بل يجلسه بعض الفقراء الملازمين لخدمته ولا يجلسه إلا بتمب لأنه كان بادنا عظيم الجثة ومع ذلك فكان إذا أخذ الحال يجلس وحده ويأخذ نخدة عظيمة لا يستطيع حملها إلا الصحيح القوى فيصير يشير بها بيديه مراراً كأنه يريد أن يضرب بها ثم يردها إليه مراراً وأخيراً يرمى بها أمامه إلى آخر الغرفة ثم يزحف إليها ويرجع إلى محله يفعل كذلك مراراً إلى أن يذهب عنه الحال أو يدخل عليه الخادم فيصحو ويرجع إلى حاله وفي يوم دخل عليه بعض الفقراء وهو كذلك فقال له مالك يا سيدي فقال لا شيء غير أني كنت مع ابن الصديق بطنجة تقضى بعض المثارب .

وكان معتقداً محبوباً من الخاصة والعامة يبالغ الكل في تعظيمه والثناء عليه قد اجتمعت اللسن على ذلك من غير منازع مع نفوره من الناس واعراضه عنهم وقراره من مخالطتهم وكان الكبراء من أهل فاس أعينها وعلمائها وشيوخها يقصدونه الزيارة والتبرك فكان يقابلهم تارة ويردهم أخرى فيجلسون بالزاوية أمام غرفته وهم يسمعون كلامه فلا يجترىء أحد منهم على الدخول عليه ثم لا يحصل لهم تأثير ولا نفور من ذلك بل يقابلونه بالرضى والتسليم ويعودون لزيارته وقد يتردد الواحد منهم مراراً متكررة فلا يقابله في شيء منها وهو يعيد الكرة إلى أن يسغفه بمرغوبه وكثيراً ما كان يفعل هذا مع أهل الظهور والجاه من العلماء والأعيان

يريد ان يصرفهم بذلك عنه فلا ينصرفون .
 وابنتي ءاخر عمره بالمرض المزمن فأقعد وأضر وذهبت عينه الاخرى
 واستمر ملقى على قفاه مدة طويلة حتى سكنت الفيران تحت فراشه وهو في
 كل ذلك صابر محتسب راض بحكم مولاه بل غائب عن حسه بجلاوة مشاهدته
 إلى أن انتقل الى جواره ومحل رضوانه يوم الخميس فاتح رجب سنة ست
 وعشرين وثلثمائة وألف ودفن بالزاوية المذكورة رحمه الله تعالى ورضى عنه
 وعنا به ونفعنا بحبته وبركاته آمين .

فصل

أما الشيخان اللذان أخذ عنهما فالأول هو الشيخ العارف المحقق المرشد
 أبو محمد سيدي عبد الواحد بن بدوي بناني ولد بفاس وكان في بدايته مشتغلا
 بالتجارة فحفته العناية الالهية وجذبه إلى طريق أهل الله فدخل فيها على يد
 شيخه العارف سيدي محمد بن العالي أيوب ورافقه في ذلك شقيقه فحصل لهما
 بعد الأخذ نفور شديد من الدنيا وإقبال عظيم على الله تعالى وفتيا في محبة
 شيخهما وخطر ببالهما ذات ليلة أن يخرجوا له عن جميع ما بيدهما من الدنيا
 ثم عزموا عليه رخافا من تغيير ذلك الوارد فأسرعا بالليل إلى شيخهما وخرجا
 له عما يمتلكان فنالا مرادهما من الله تعالى وحصل له ترجم الفتح الالهى
 والفناء في الذات العلية وصار من جلة أصحاب شيخه بل كان هو الوارث
 لمقامه وحاله فاما توفى شيخه ظهر هو بمظهره وانتصب في محله وانجمع عليه
 الفقراء فصار يذكروهم ويذاكرهم .

وكان له دكان بسوق العطارين يبيع فيه الجوهر والمرجان والطيب
 ونحوه في حال مشيخته وتربيته للريدين قياما بالشرعية وستراً للحال وتعففا
 عن الخلق فكان بعض الجهلة يطعن في مشيخته من أجل ذلك حسداً وجهلاً
 كما هي سنة الله تعالى في خلقه ولا سيما مع أوليائه وأصفيائه .

وحدث تلميذه المترجم قبله سيدي محمد بن ابراهيم رضى الله عنه قال سمعته يقول رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لى من رآك فقد رآنى ومن قبل يدك فقد قبل يدى وكان تلامذته والعارفون به يشنون عليه كثيراً ويصفونه بعلو المقام فى المعرفة ورسوخ القدم فى الولاية ويدل لذلك قصيدته التائية التى أنشأها رهو أمى لم يحضر مجلساً من العلم وفيها يصف نفسه بالمعرفة ويذكر ما حصل له من الفناء وهى قوله :

ولما فنى عنى فنائى فلم ازل	أشاهد معنى الحق فى كل وجهة
وزال وجودى عن وجودى وهل لمن	فنى عن فنا أهل الفنا من بقية
ومذ نظرت عينى الوجود توهمها	شهدت بعين الفكر سر حقيقتى
وكنت رهينا فى سجون عوالمى	فصرت خبيراً بالعلوم الغريبة
وأخبرنى عنى غرامى بأننى	غريق بحار الوصل فى عين وحدتى
وسرى روى عنى وكنت حديثه	وبالحق حققت معالم جملتى
وأنشق من روحى نسيم حقائقى	ومتعت طرقي فى محاسن بهجتى
وخمرى بدا منى وكنت ختامه	وأرشف من نغر الكؤوس مدامتى
وعربدت من سكرى هيأما لأننى	شهدت بهائى فى صفاء أنيتى
وخمرنى خمرى وراح براحتى	وصرفى ومزجى مع تهتك نشوتى
وسكرى وصحوى والفناء مع البقا	وشربى وربى واحتقالي برؤيتى
ومنها بدا كلى وبمضى وجملتى	وحسى ومعنائى وجمعى وفرقتى
وراحى وريحانى وروحى وراحتى	ونفسى وأنفاسى وأبى ومهجتى
شربت صفها من أهيل مودتى	قدما فصار الشرب دنى وملتى
وغيبنى عنى شسهودى لحسنها	وشدة أفرأحى بوصل الأحبة
ولاح لسرى من معانى جاهها	فعاينتها عينى وبمضى وجملتى
وهام لها قلبى وسرى بها اهتدى	إليها وقرت بالمحاسن مقلتى
وصرت محل السر منها بسرها	وصرت بها سرا بغير أنية

وبحرى در ليس يدرك وصفه
 وخيمت في برى وطاب لى المنا
 وفرقت جمعى واستبانت معالى
 فها أنا ما بين البحور وديعة
 ولى فى الهوى علم توضع نشره
 أبيض لى التعبير فى مذهب الهوى
 فلا وصل الامن تعطف وصلها
 وان قصدت جادت ببعض جماها
 فان شئت أن تحظى بطامة حسنها
 وكن ذليلاً واصبر على ألم الهوى
 وجرّد سيوف العزم فى طلب اللقا
 وحى حمى الحمار وانزل بحيه
 ولاحظ رضاه فى المهمات كلها
 لكى تسقى من خمر الوصال صفاءه
 وتفى فناء فى فناء عن الفنا
 وتحيى حياة لا ترى الموت بعدها
 هنئنا لمن أضحى يراها بطرفها
 وعابها عينا وغيراً ولا سوى
 وصار بها يدعو العباد لهم
 مدام تسلى الهم وهى بدنبا
 مدام لها معنى لطيف لمن درى
 مدام بها هام الوجود بأسره
 مدام لها نور بهى لدى الورى
 تنوعت الأشياء منها فما أرى
 وبرى زهر نشره طيب نفحتى
 وخاضت بحار العشق منى مطيتى
 وحددت طرفى لم أجد غير وحدتى
 أو فى حقوقاً حقها بالسوية
 وراق شرابى من كؤوس الأجابة
 ومن ذا من العشاق يبلغ رتبتي
 ولا قرب الا إن حبتك بنظرة
 وان أظهرت بعداً لفقد الأذلة
 فخيم ولا تسأم بباب الأجابة
 وواصل شراب الحب فى كل لحظة
 ومزق ثياب الوهم عنك بسرعة
 وعفر خدودا فى نراه بذلة
 وكن كثيراً ترجو الشفاء لعله
 وتجنى ثمار القرب من كل ذرة
 وتبقى بها معنى بغير هوية
 منعم فكر فى سرور ورفعة
 وهام بها فيها بغير معية
 ولائم غير فى ظهور الحقيقة
 ويسقى مدام الحب من غير راحة
 وتشفى سقيم القلب من كل علة
 قديم به قامت عوالم حكمة
 وهامت بها الأرواح لما تجلت
 يلوح سناها للقلوب السليمة
 سوى نورها الواضح فى كل وجهة

تشعشع منها الكل وهى حياته
 فريدة حسن لاح نور جمالها
 وغنت وقالت فى لذيذ خطابها
 أنا الحسن والاحسان وصفى وشيمتى
 تبدى جمالى فى المظاهر كلها
 وأبدعت كل الكائنات بقدرتى
 وصنت جمالى بالجلال وإنما
 جلالى جمالى والتستر حكمتى
 وأظهرت حتى لا يرى ظاهر معى
 وأبطننت حقاً فى مرادق عزتى
 توفى رضى الله عنه سنة خمس وثمانين ومائتين وألف .

وأما الثانى فهو الشيخ العارف القدوة المسلك المربى سيدى أحمد بن محمد
 ربيع القاسمى من عائلة معروفة بفاس أخذ عن العارف سيدى محمد بن الغالى
 أيوب ثم بعده أتم على أخيه فى الشيخ سيدى عبد الواحد بنانى ثم بعد وفاته
 ورث حاله وقام فى التربية والتسليك مقامه وكان ذلك بإشارة من شيخه فاجتمع
 عليه الفقراء من أصحاب شيخه وغيرهم وانتفعوا به النفع العظيم وتخرجوا على
 يديه فى طريق الجد والاجتهاد والاقبال على الله تعالى وكان مقلام الدنيا
 زاهداً فيها راغباً فيما عند الله يحترف حرفة اللجم فيصنعها ويبيعها ويأكل
 من كديده وكان مع فقره وقلة ذات يده كثير البر والصدقة والاكرام
 للفقراء يطعمهم وينفق عليهم ولا يأخذ من أحد منهم وكان ذا تواضع وسمت
 وأخلاق حسنة وهدى جميل وأوصاف حميدة محبباً للعلماء وآل البيت شديد
 التعظيم لهم والادب معهم له يد فى التصوف ولسان فى المذاكرة كثير الذكر
 لا يكاد يفتر لسانه عنه حتى عند النزاع وخروج الروح يعيل إلى الخمول ولا
 يظهر مظهر الفخر والدعوى وربما حدث بعض الخواص ببعض ما كوشف
 به كما أخبر تلميذه أبا العباس سيدى أحمد ابن الخياط أنه أتاه من الغيب اربعة
 رجال على شكل واحد وصورة واحدة لهم أنوار خارقة فملأوا بيته نوراً
 وقالوا جئنا إليك لنزورك ونطلب منك صالح الدعاء وكان اسم أحدهم الطيب
 ابن الطيب :

وأخبر مرة شيخنا الامام أبا عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتاني
 انه خرج مرة لجنائزة بعض الفقراء فلما سووا عليه التراب كشف لى عنه
 فصرت أراه فجعلت أغمض عيني كى يحتجب عنى فلم يحتجب ترجمه شيخنا
 المذكور فى سلوة الانفاس وذكر أنه كان يعودہ أيام مرض موته فيجده فى
 غاية الثبات واليقين وأنفاسه متصاعدة بالذكر قال ودخلت عليه مرة بعد
 ما سقط لسانه فصار يشير بسبابته كأنه يقول لا إله إلا الله قال وتوفى
 صبيحة يوم الاحد تاسع محرم سنة ثلاث وثلاثمائة وألف .

الباب التاسع

في سلسلة طريقه وبعض الابحاث المتعلقة بها وقد كتب هورضى الله عنه اجازة لبعضهم ذكر فيها سلسلته فقال .

الحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد مهبط الوحي ومنبج الرحمت وعلى آله وأصحابه الائمة الهداة أما بعد فلا يخفى على ذوى البصائر والعقول ان الفنون كلها لا بد فيها من واسطة ومن لا واسطة له في فنه لا بركة له فيه ولو حصل فيه على الغاية القصوى فبركة الفن وسره وروحه وجود الواسطة فيه فمن رزقها رزق الفن وبركته ومن حرمها حرم الفن وبركته وهو أمر لا يحتاج الى برهان إذ ليس الخبر كالعيان .

ولما كان التصوف أولها بذلك وأحقها بما هنالك وكان من لا شيخ له فيه لا يعاب به ولا يلتفت اليه بل هو عندم لقيط لأب له وسقيط لا طعم فيه بل حتى لو فرض ان شيئاً من المعارف والأذواق حصل لأحد على سبيل خرق العادة بلا واسطة فالمتعين عليه أن يستند الى الواسطة ادبا مع الشريعة المطهرة إذ جاءت باعتبارها وامرت بشكرها وايضا فان الاستناد اليها فيه كمال ورفعة قدر وجلال لأن فيه خروجاً من رعونات النفس والانانية إلى رفعة التواضع والعبودية وناهيك بها عزا وشرفاً ورفعة وفخراً إذ هي سبب للحرية بل هي في الحقيقة عينها ولو صح لأحد شيء بلا واسطة لما كان لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل واسطة مع أنه عليه الصلاة والسلام أجل منه وأفضل وأعلى وأعز وأكمل ففي تقديم المفضول على الفاضل رفعة

لمقام الفاضل وتنويه بعبودية الكامل فافهم وانظر الى أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم مع أنهم لا يعصون الله ما أمرهم تنفتح لك الباب وتفتح سر الخطاب فما عظمت الحرية في أحد إلا كانت العبودية فيه أعظم اذ ما تشرف من تشرف الا بها وما طرد من طرد الا بالدعوى والركون الى الحرية والانانية وما أفاح من أفاح الا بصحبة من أفاح .

وقد قال الجنيد رضى الله عنه سبق في علم الله القديم ألا يدخل أحد لحضرتة الا على يد عبد من عباده .

وقال القطب المرسي رضى الله عنه ما صارت الابدال ابدالاً الا بمجالسة امثالنا لذلك وجب علينا أن نذكر سندننا ونبين نسبتنا في هذه الطريقة الدراوية التي هي لب الطرق الانصالية الجامعة بين الجيلانية والشاذلية المؤسسة على الكتاب والسنة والمخصوصة بالنفحات الربانية اذ في اتصال سببنا بسببهم ونسبتنا بنسبتهم استمطار لارحمات الالهية واستنزال للنفحات القدسية وتحريك للسلسلة النبوية مع أن الاسناد من الدين في كل وقت وحين طال الزمان أو قصر وقل عدد الوسائط أو كثر فنقول .

أخذنا هذه الطريقة النبوية عن شيخنا وقدوتنا نور الملة والدين ورحمة الله للقاصدين الواقف بباب الله الذي لم يزل في وقت من الأوقات لسواه سلطان العارفين وقطب الواصلين سيدى ومولاي محمد ابن ابراهيم الفاسى أطل الله بقاءه وبلغه في الدارين مقصوده ومطالبه وهذا الشيخ شأنه عند الله عظيم وأمره جسيم ما رأينا ولا سمعنا في وقتنا هذا مثله وشرح حاله يستدعي مجلدات ولسنا بصدد ذلك الآن وهو أخذها عن شيخه العارف الربانى سيدى عبد الواحد بنانى الفاسى وهو عن شيخه الهائم فى الله العارف المحبوب سيدى محمد أيوب دفين زاويته بفاس وهو أخذها عن جدنا الشريف أعجوبة الزمان العالم بالعلمين الظاهر والباطن القطب الجامع السالم مدده الجارى

سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن الغمارى وهو عن إمام الأولياء
 ومدد الاقطاب والاصفياء بحر المعارف الالهية ومعدن الاسرار الربانية برزخ
 البحرين وشيخ الثقلين الذى كان لغير الله لا يأوى سيدنا ومولانا العربى
 الدرقاوى وهو عن بحر البحور ومنيع الخور أبى الحسن سيدى على الجمل
 دفين زاويته بفاس وهو عن القطب سيدى العربى بن عبد الله عن شيخه
 ووالده قطب الزمان سيدى احمد بن عبد الله وهو عن القطب سيدى احمد
 اليمنى والقطب سيدى قاسم الخصاصى ، أخذ عن الاول الجيلانية وعن الثانى
 الشاذلية وهو عمدته وسيدى قاسم أخذ عن سيدى مبارك عباو وعن
 القطب أبى عبد الله سيدى محمد بن عبد الله معن وهو عمدته وعنه ورث
 القطبية بقى فى صحبته عشر سنين وهو عن العارف أبى زيد سيدى
 عبد الرحمن الفاسى محشى تفسير الجلالين والسنوسية وهو عن أخيه القطب
 أبى المحاسن سيدى يوسف الفاسى وهو عن القطب سيدى عبد الرحمن
 المجدوب عن أبى الحسن سيدى على الشهير بالدوار عن أبى اسحق سيدى
 ابراهيم أفحام الزرهونى عن القطب الجامع سيدى احمد زروق عن
 القطب احمد بن عقبة الحضرمى عن أبى زكريا يحيى القادري عن القطب سيدى
 على وفا عن والده سيدى محمد بحر الصفا عن القطب داود الباخلى عن تاج الدين
 ابن عطاء الله صاحب الحكم عن القطب أبى العباس المرمى عن قطب الاقطاب
 سيدى أبى الحسن الشاذلى الغمارى عن القطب مولانا عبد السلام بن مشيش عن القطب
 سيدى عبد الرحمن المدنى الشهير بالزيات عن القطب تقى الدين الفقير بالتصغير
 فيهما عن القطب فخر الدين عن القطب نور الدين عن القطب تاج الدين
 هن القطب شمس الدين بأرض الترك عن القطب زين الدين القزوينى عن
 القطب أبى إسحاق البصرى عن القطب أبى القاسم أحمد المروانى عن القطب
 أبى محمد سعيد عن القطب سعد عن القطب أبى محمد فتح السعود عن القطب
 سعيد الغزوانى عن القطب أبى محمد جابر عن أول الاقطاب وأجل الاصحاب

سيدنا الحسن ابن مولانا فاطمه ازهراء وعلى بن أبي طالب عن والده باب مدينة العلم عن سيد المرسلين وحبیب رب العالمین هذه سلسلتنا الروحانية ونسبتنا النورانية وقد قال القطب أبو العباس المرسي رضي الله عنه طريقتنا هذه متصلة بالاقطاب الى قطب الرحمن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قلت وليكف الانسان شرفا وفخرا وعزاً ورفعاً أن يعرف رجال هذه السلسلة النورانية المحمدية فانها سلسلة الذهب الابريز التي من تمسك بحمجة رجالها نال رضي الملك العزيز وأما من دخل فيها وكان حلقة من خلاصتها فلا يصف الواصف فضله ولا يلحق أحد شأنه وقدره .

فقد قال القطب الشعرائي رضي الله عنه من فوائد النسبة العامة أن المنتسب يكون كالحلقة في السلسلة لا يتحرك في أمر إلا تحركت السلسلة كلها معه إلى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف غير المنتسب فإنه يتحرك وحده ويسكن وحده إلى آخر الاجازة المذكورة في الأصل .

فصل

وهنا مباحث تتعلق بهذه السلسلة .

المبحث الأول

في أول من ذكر هذا السند من القطب ابن مشيش الى النبي صلى الله عليه وسلم وهوتقى الدين أبو عبد الله محمد الاسكندري سبط الشيخ أبي الحسن الشاذلي في كتابه النبذة المفيدة وهو ممن أدرك أصحاب أبي العباس المرسي وتبرك بهم كما ذكره في كتابه المذكور فقال بعد ذكر قول أبي العباس المرسي رضي الله عنه في هذه الطريق أنها متصلة بأخذ واحد عن واحد إلى الحسن ابن علي عليهما السلام مانصه فلما اطلعت على هذا الكلام أمعنت الفحص عن معرفة بقية هذا الطريق فلم أجده سوى أن الشيخ أبامحمد عبد الرحمن المديني أخذ

عن عارف وقته الشيخ القطب تقي الدين الفقير فذكره ثم قال واعلم اني ظفرت بهذه السلسلة واتصالها بعد الفحص الكبير وجدتها منقولة عن الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله صاحب الشيخ ابي العباس المرسي ومطابقة لقول المرسي أن طريقة المدني متصلة بالأقطاب ففى هذا اشعار بصحة هذه الطريق واتصال سلسلتها وإن كنت لم أجزم فيها إلا بالشيخ الشاذلى وشيخه ابن مشيش وشيخه المدني ثم بالحسن بن على بن أبى طالب فمجموعها على قسمين منها ماهو قطعى ومنها ما هو ظنى وأما قولهم فلان الدين ولم نذكر له شهرة فحيث وجدت ذلك هنا فاعلم أنى نقلته كذلك فحكيتة على ما وجدته وكذلك ذكره أيضاً فى كتابه شفاء الغليل ودواء العليل ثم تبعه كل من جاء بعده ممن ألف فى الخرق وأسانيد الطرق .

قال أبو عيسى الفاسى فى تحفة أهل الصديقية ولعل هؤلاء الرجال المنقولين عن ابن عطاء الله رضى الله عنه من كشفه أو من كشف شيخه أبى العباس المرسي رضى الله عنه القائل والله الذى لا إله إلا هو ما من ولى الله كان أو هو كائن إلا وقد اطلعنى الله عليه وعلى اسمه ونسبه وبكم حفظه من الله تعالى قال وإذا كان كذلك فلا يذكر لكل واحد إلا الذى ولده فى سماء الروحانية ومن هو منبع مدده وصل حقيقته الذى بثها فيه ولقنه إياها عن مخالطة أو دونها لا الذى رباه بعد ذلك أو أفاده أمراً والله أعلم اه .

المبحث الثانى

ما ذكره الشيخ رضى الله عنه من كونها تنتهى إلى على عليه السلام هو ما ذكره كثير ممن أورد هذه السلسلة كالشيخ زروق وابن حجر الهيتمى فى فهرسته وابن عطية فى سلسلة الأنوار والشيخ عبد السلام الأسمر فى نصيحة المرادين وأبى الاقبال ابن وفا فى شجرة الارشاد وأبى العباس أحمد

ابن يوسف القاسى فى المنح الصافية وابن عجيبة فى فهرسته وشرحه
للحكم وآخرين .

واقترع جماعة يطول عددهم على رفعها إلى الحسن بن على عن النبى صلى الله
عليه وسلم دون واسطة أبيه على عليه السلام .

وصرح بعضهم بأنها تروى من الطريقين فيكون الحسن رضى الله عنه
لبس واستقى من جده صلى الله عليه وسلم وصحب واقترع بوالده
عليه السلام .

وذكر بعضهم أن الحسن ورث القطبية من والدته سيدة نساء أهل الجنة
صلى الله عليها وسلم وأنها هى أول الأقطاب على الإطلاق وكل هذا صحيح
لا شك فيه فانهم أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وبحر المعارف ومنبع
الأسرار والكساء شمل جميعهم فحازوا به من الله الخير العميم والفضل
الجسيم والشرف الرفيع والولاية الكبرى إذ السر فى الكساء عند المحققين
من أهل الله هو إمداد أهله بالمدد الربانى الفاضل فى الذات الشريفة النبوية
السارى بواسطة الكساء إلى تلك البضعة الطاهرة الهاشمية ولولاه لما كان
لذلك التجليل مع الدماء معنى كما أوضحته فى الأصل وفى البرهان الواضح
الجللى فى تحقيق انتساب الصوفية إلى على .

المبحث الثالث

ما تقدم من كون الراوى عن الحسن هو أبو محمد جابر غير منسوب
ولا مذكور والده هو كذلك عند الأكثرين وذكر أبو على بن ربحال فى
الروض اليانع الفائح أنه جابر بن زيد وهو بعيد لأنى لم أر من ذكر روايته
عن الحسن عليه السلام فضلا عن أخذ هذا السر العظيم عنه لا سيما وهو بصرى
ومذهب أهل البصرة معلوم بل ناصبى إباضى وإن نقل عنه التبرى
من ذلك .

وذكر التادلي في المعزى أنه جابر بن عبد الله الأنصاري وهذا يمكن بل هو الواقع إن شاء الله كما بينته في البرهان الواضح .

المبحث الرابع

قد تقدم أن هؤلاء الرجال المذكورون من طريق الكشف فلا يمكن أن يعرفهم الأهل الكشف وقد حلام العارف محمد بن مسعود الفاسي في الفتوحات الربانية بما يصح أن يحلى به كل عارف فلا يحصل به تعريف تام ولعله فعل ذلك من طريق الكشف أيضا فقد قال في كلامه على الديوان وقد أعطانا الكشف والعلم الإلهي ان أولياء الأمم الماضية كانت ولايتهم تنقطع بموتهم وموت أنبيائهم وأما أولياء هذه الأمة المحمدية فلا تنقطع ولايتهم الى يوم القيامة لوجود بقاء شريعتهم فكما انه لا انقطاع لشريعتهم كذلك لا انقطاع لولايتهم اه فلا يبعد أن يكون حلام بذلك عن كشف وعيان .

المبحث الخامس

ما تقدم من أخذ أبي العباس احمد بن عقبة الحضرمي عن أبي زكريا القادري عن سيدي علي وفا هو ما ذكره الاكثرون وذكر بعضهم ان ابن عقبة أخذ عن سيدي علي وفا بلا واسطة وهو باطل فان سيدي عليامات سنة سبع وثمانمائة وكانت ولادة احمد بن عقبة سنة اربع وعشرين فلابد من واسطة أبي زكريا المذكور ومع ذلك ففيه اشكال من وجوه .

منها ان بعضهم روى عن ابن عقبة عنه عن والده ابي مسعود احمد عن والده أبي صالح نصر عن والده أبي محمد عبدالرزاق عن والده القطب الكبير مولانا عبدالقادر الجيلاني رضى الله عنه وهذا غلط بين لأن أبا زكريا القادري المذكور مات بمدينة حماه سنة اربع وثلاثين وسبعمائة وذلك قبل ولادة

الحضرمي بتسعين سنة لأنها كانت سنة أربع وعشرين وثمانمائة .

ومنها ان القادري هذا غير معروف وقد قال أبو عيسى القاسي لا يبعد أن يكون المراد به أبا زكريا يحيى بن أحمد الوفايي المعروف بأبي السیادات وتبعه على هذا جماعة جازمين به وفيه بعد لأن يحيى بن أحمد الوفايي كنيته أبو السیادات لأبوزكريا ولا تعرف نسبه بالقادري ولا سبب لها لأنه غير قادري لا نسبا ولا طريقة .

ومنها ان الشيخ ابا العباس احمد بن عقبه رحل من بلده إلى مكة سنة ست وأربعين وثمانمائة وأقام بها عشرين سنة فيكون انتقاله إلى القاهرة بعد سنة ست وستين وفي ذلك الوقت كان يحيى بن أحمد الوفايي قد مضى لوفاته نحو تسع سنين لأنه مات سنة سبع وخمسين .

ومنها ان أبا السیادات يحيى بن أحمد الوفايي لم يصحب عمه ولا تأدب به لأن عمه مات وهو ابن تسع سنين لم يبلغ سن الصحبة والاقتداء فقد ولد سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ومات عمه سنة سبع وثمانمائة ثم ان الطريقة الوفايية تروى من طريق يحيى بن أحمد الوفايي هذا عن والده احمد عن أبيه محمد لا عن عمه علي فالحق انه شيخ قادري النسب شاذلي الطريقة من أصحاب سيدي علي وفا أخذ عنه أبو العباس الحضرمي وكان خاملا لا يعرف فلم يترجم له أحد .

المبحث السادس

ان سيدي محمدا وفا لما مات كان لولده سيدي علي ست سنين على الراجح لكنه أوصى بمنطقته أن تخلع على ولده عند كبره فلما خلعت وقع له التمتع فلذلك نسب إلى والده وهذا قد وقع لكثير من الأولياء كما بينته في البرهان الواضح وفي مناهج التحقيق فلا يظن من وقف على تاريخهما ان بالسند انقطاعا في هذا الموضع .

وهنا مباحث أخرى ذكرتها في السكتين المذكورين .

فصل — ل

وأما رجال السلسلة من مولانا الشيخ الوالد قدس سره إلى القطب ابن
مشيش فقد استوفيت ترجمتهم في مناهج التحقيق في الكلام على سلسلة
الطريق وغالبهم أفرد بالتأليف كالشاذلي والمرسي وبنى وفا والحضرمي وزروق
وأبي المحاسن القاسمي وسيدى احمد بن عبد الله وسيدى قاسم الخصاصي ومولاي
العربي الدراقاوي وجدنا سيدى الحاج احمد بن عبد المؤمن فاني أفردته
بتأليف سميته المؤذن بأخبار سيدى احمد بن عبد المؤمن .

الباب المباشر

في ذكر وفاة الشيخ وبعض ما قيل في رثائه كان الشيخ رضي الله عنه مريضا بضعف القلب والخفقان مصحوبا معه من مدة طويلة إلا أنه لم يكن ظاهرا فيه الا في بعض الأحيان ثم في أواخر شهر رمضان قوى فيه الا انه لم يلزمه الفراش فكان يخرج لمحل مقابلة الزوار والضيوف ولما كان يوم عيد شوال قابل كثيرا من الناس على عادة وصرح لبعضهم بأن هذا آخر اجتماع بيننا ثم في ذلك اليوم وما بعده اشتد به الحال فجمع أهله ومن كان حاضرا من اولاده واوليائه فحثهم على التقوى والتمسك بالدين والعمل بالسنة واجتناب البدعة وملازمة ذكر الله تعالى وذاكره ومحبة الاولياء والصالحين واهل النسبة من الفقراء والذاكرين واکرام الضيوف وخدمتهم بالنفس والمال ومواساة الضعفاء واعانتهم ورحمة الصغير وتوقير الكبير وصلة الرحم والتخلق بالحياء والمحبة والألفة والعمل بالعلم واحياء السنة ونشرها وكف الأذى وتحمله مع الصبر والاحتمال ومعرفة الوقت واهله ونحو هذا مما كان يحث عليه دائما وقال لبعض اولاده كنا نرجو من الله تعالى الفسحة في الأجل حتى ينصر بنا هذا الدين الشريف ونعلمكم العلم ونحج بكم ولكن راينا الأيام المقبلة أيام شرور وفتن ومصائب ومحن واشتداد ضعف في الدين ووهن فسألت الله تعالى ان يقبضني اليه كما في الحديث الشريف وإذا اردت بعبادك فتنة فاقبضني اليك غير مفتون فاستجاب الله دعائي وصدق رضي الله عنه فقد اشتد الخطب وعظمت الرزية وظهر الانقلاب العظيم بسرعة وهو في الزيادة نسأل الله مغفرته ومعافاته ولما كان يوم الأربعاء سادس شوال اشتد به الحال وظهرت عليه علامة الانتقال وارسل إلى بعض الفقراء فحضروا اليه فامرهم بذكر الله جهرا فلما وصل وقت العصر قدم احدهم فصلى به وبهم وصلى هو جالسا بالتيمم ثم امرهم بذكر الله ايضا إلى قرب الغروب فامر بخروجهم

فدخل عليه اهله وانجاله ولم تمض إلاهنيهة حتى فاضت روحه وانتقلت إلى الرفيق الأعلى وذلك سنة أربع وخمسين وثلاثمائة والف وكانت له جنازة لم تر طنجة مثلها منذ خلقها الله تعالى وحضر الناس من سائر مدن المغرب كفاس والجديدة والدار البيضاء وسلا وما بين ذلك والعرائش والقصر واصيلا وتطوان وغمارة وما بينها وذهب بجنازته إلى الجامع الكبير للصلاة عليه بها لكثرة الناس وازدحام الخلق ورؤى اليهود يبكون في بيوتهم من مهابة ذلك المحفل وما جعل الله فيه من النور والبهاء وتبرك الناس بنعشه ووزعت سجادة كانت تحته خيوطا للتبرك ثم رد إلى الزاوية ولم يدفن انتظارا لما يرد من عندنا من القاهرة وكنا سعيينا في الحضور بالطيارة فلم يتيسر لنا ذلك ثم أمرناهم بالدفن بتلغراف أرسلناه فوقع الدفن ليلة الجمعة وحضر جنازته الأديب السيد محمد بن الطاهر الفاسي فرتاه بقصيدة نشرها في جريدة السعادة فقال: بالأمس قدمنا لقراء جريدتنا السعادة ترجمة العلامة البدر اوى واليوم تقدم إليهم ترجمة علم من أعلام المغرب وكبير من كبرائه فقيده العلم والدين الشريف سيدى محمد بن الصديق الغمارى ففي ذلك اليوم نفسه سادس شوال بينا نحن نتمتع الطرف في مناظر طنجة الفيحاء حيث مالت الشمس إلى الغروب اذ رأينا ذلك الشبح المخوف شبح الموت الذى لا يهاب عظيما ولا يخشى شريفاً ولا مشروفاً يمد يده بدون شفقة ولا حنان فيقضى قضاءه المبرم على تلك الروح الطاهرة ويطنىء ذلك المصباح الوضاء الذى طالما اهتدينا بنوره في تلك الظلمات القائمة والليالى الحالكة هناك كنت لا ترى إلا عيوننا باكية ووجوها متغيرة وزفرات تتردد في الفضاء ونحيباً يرن في الاجواء وألسنة لاهجة بالمدح والثناء ثم ذكر ترجمة وجيزة ثم قال اما جنازته فكان لها مشهد عظيم حضرها كل أهلى طنجة من مختلف الطبقات ومن ذلك اليوم والوفود ترد من جل مدن الايالة قال ولما بيننا وبين الفقيده رحمه الله من العلاقات الودية والرابطة العامية رثيته بالقصيدة التالية التى ألقيتها بنفسى على قبره يوم ثالث صباح القبر .

خبروني هل غاب نجم السعود
 كان عهدى به يبيد الثريا
 اندبوه وابكوه على برئى
 ليث شعري ايصبح الناس فوضى
 قد اخذنا بالأمس منه عهدا
 ستم الناس بعدك العيش حتى
 كنت فينا تبيد كل ظلام
 كنت فينا تدعو بكل صلاح
 لم تكن تبتغى سوى نصره الذي
 في سبيل الاله ما قد نلقى
 ان في القلب لوعه واحترافا
 لا تقولوا قد مات انى أراه
 لا تقولوا قد غاب ان سناه
 ان يغب في بنيه خير عزاء
 ام تسمى الى مقام الخلود
 كيف امسى رهين هذى المهود
 لبككم فيرعى عن صدور
 في ظلام في شقوة في رتود
 اتراه ينى بتلك العهد
 شغلوا بالبكا ولطم الخلود
 وضلال وبدعة وجود
 باذلا في الصلاح كل الجهود
 ن جارا وملة التوحيد
 من شقاء ومحنة وهجود
 ومعانى الامى والحزن الشديد
 يمتع الطرف في جنان الخلود
 في ازدياد ونوره في صعود
 سيما احمد كريم الجودود

ولنقتصر على هذه القصيدة اختصاراً ، والحمد لله وكفى وصلى الله على سيدنا
 محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله تعالى وعونه

فهرس الكتاب

صفحة

- ١ خطبة الكتاب
- ٢ ذكر الأبواب والتراجم
- ٤ الباب الأول في نسب الشيخ ومقر أسلافه
- ٦ الباب الثاني في تراجم أجداده للأب والام
- ٦ ترجمة جده سيدى عبد المؤمن الكبير الشهير بأبى قبرين
- ٧ ترجمة سيدى عبد المؤمن الصغير دفين غمارة
- ٨ ترجمة جده الأذنى سيدى الحاج احمد بن عبد المؤمن
- ١٣ » سيدى الحاج الصديق والد الشيخ
- ١٥ » والدة الشيخ
- ١٦ » والدها سيدى احمد بن عجيبة الصغير دفين طنجة
- ١٨ » والده سيدى احمد بن عجيبة الكبير صاحب التفسير
- ٢٢ الباب الثالث في نشأة الشيخ وطلبه العلم ومجمل تاريخ حياته
- ٢٩ بعض وقائع الشيخ ضد فرنسا ومحاربه لها
- ٣١ توجه الشيخ للحج وما وقع له من مناظرات علمية وغيرها
- ٣٦ امتناع الشيخ من مقابلة السلطان عبد الحميد مع إتحاده وبذله
المسال الكثير
- ٣٨ ما حصل للشيخ مع فرنسا أيام الحرب العالمية الأولى
- ٤١ سب الشيخ لفرنسا وحثه على الجهاد ضدها في دروسه علنا
- ٤٣ حضور الشيخ لمؤتمر الخلافة بالقاهرة بدعوة من الحكومة المصرية

(ب)

- ٤٥ الباب الرابع في وصف حالته العلمية ومواهبه الفتحية
- ٤١ مهارة الشيخ في الطب
- ٥٦ براعة الشيخ في الأنساب وعلم الفلك وغيرهما
- ٥٩ حرص الشيخ على العمل بالسنة ولو خالفت المذهب
- ٦٣ حب الشيخ لسائر المذاهب وتبجيره فيها
- ٦٥ رغبة الشيخ في اقتناء الكتب العلمية بأي ثمن كانت
- ٦٦ بعض مؤلفات الشيخ وفتاواه
- ٨٢ بعض الأحاديث الواردة في المخترعات العصرية كالطيارة والراديو
- ٨٨ بعض رسائل الشيخ إلى الفقراء في مختلف جهات المغرب
- ٩٨ الباب الخامس في مرد جملة من أخلاقه السنية وأحواله الزكية
- ٩٨ تعظيمه لمشايخه الذين أخذ عنهم العلم ولو مسألة واحدة
- ١٠٠ تعظيمه لحجة القرآن خصوصاً حفاظ القرآآت السبعة
- ١٠٢ احترامه البالغ لاهل البيت كيفما كانوا
- ١٠٤ تنشئة أولاده على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة
- ١٠٥ ومن أغرب أحوال الشيخ مع أولاده أنه ما قدمهم على أحد ولا انتصف لهم منه
- ١٠٩ كان الشيخ وصالاً لرحمة الجسماني والروحاني
- ١١٠ كان لا يخرج إلى السوق ولا يمر في الشوارع العامرة
- ١١٢ كان مفرد زمانه في قضاء حوائج المسلمين وإغاثة الملهوفين
- ١١٤ كان ينزل الناس حسب منازلهم التي أنزلهم الله بها
- ١١٦ حالة الشيخ جامعة بين الشريعة والحقيقة
- ١١٧ كان لا يذهب إلى أحد من أهل الدنيا
- ١١٩ كان شديد الكراهية لما فيه تشبه بالكفار ولو في الشيء اليسير
- ١٢٠ كان يكره الوظائف الحكومية خصوصاً القضاء والعدالة

(ج)

- ١٢١ شئ من ورعه واحتياطه الشديدين
١٢٣ ما أكل طعام الكفار ولا حلواهم طول حياته
١٢٥ شئ من زهده الذي انقرد به في الدنيا
١٢٦ رفض الشيخ ما عرضت عليه فرنسا وأسبانيا من الاموال
الكثيرة ليساعدها
١٢٧ حقارة الدنيا في نظره بشكل لم يسمع به منذ عصر الصحابة
١٣٢ توكل الشيخ هو توكل كبار العارفين
١٣٦ كان منقطع النظير في السخاء والجود
١٤٠ كان يتعجب من حال أهل العلم وميلهم إلى الدنيا
١٤١ كان يعطى المحتاج من غير سؤال
١٤٢ كان مفرد زمانه في الحلم والعفو والصفح
١٥٠ كان في التواضع بالمنزلة العليا
١٥٣ من تواضعه سكناه بطنجة التي لا يعرف أهلها علما ولا فضلا
١٥٤ عداوة أهل طنجة للشيخ مع إحسانه اليهم وبغضهم لأهل
الفضل عامة
١٥٦ كان شديد الحياء
١٥٧ كان سليم الصدر والنية
١٥٩ كان يحب موافقة السنة في كل شئ
١٦٠ كان ينخدع لمن خدعه تفاضياً منه وتكرماً
١٦١ كان يضع السبحة في عنقه
١٦٧ الباب السادس فيما أكرمه الله به من الفضائل والمزايا وفيه جملة
من المسكارم والاخلاق لم يجتمع لغيره من العلماء والاولياء
١٧٤ فصل في بعض مكاتب شيوخ العصر وأوليائه إلى الشيخ وبعض
ما قيل في مدحه من القصائد

(د)

- ١٧٩ الباب السابع في بعض ما جرى على يديه من الكرامات
١٨٨ الباب الثامن في ترجمة شيخه في الطريق
١٩٣ ترجمة سيدي عبدالواحد بناني ورفيقه سيدي الحاج أحمد ربيع
١٩٨ الباب التاسع في سلسلة الطريقة الصديقية
٢٠١ مباحث تتعلق بسلسلة الطريقة وهي ستة
٢٠٧ الباب العاشر في ذكر وفاة الشيخ وبعض ما قيل في رثائه

تم الفهرس

تصويب

(ص ٤٨ س ١٦ — إلا الرجوع — ص ١٠٢ س ١٠ — وما أنا)
وربما بقيت أغلاط ضئيلة نبا عنها البصر لا تخفى على فطنة القراء

صحح وفهرس بمعرفتي
الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق
احد علماء الأزهر الشريف

١
(٥)

اعلان هام

شرعنا بعمونه تعالى في طبع كتاب

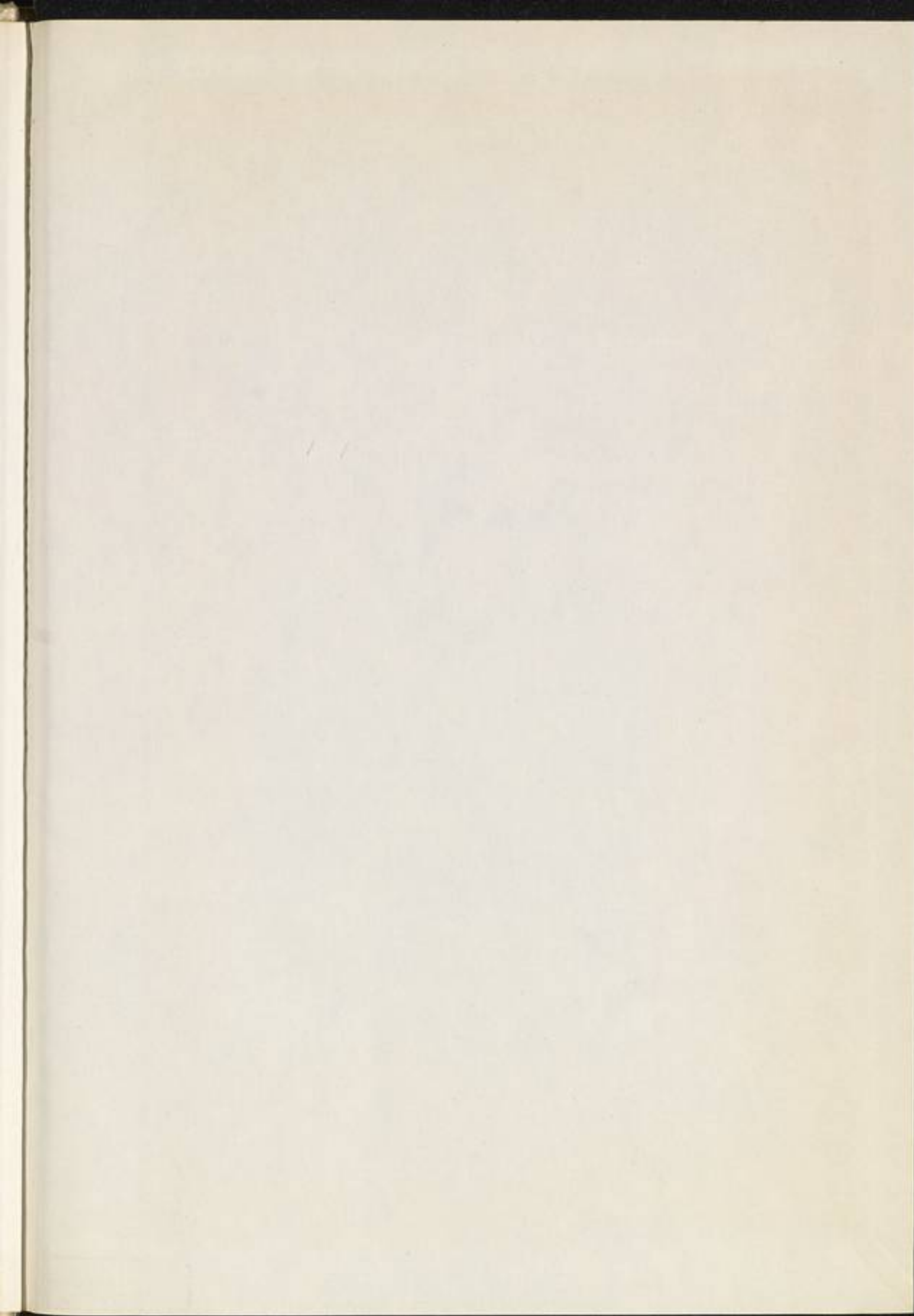
« تشنيف الآذان »

بأدلة استحباب السيادة عند ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم
في الصلاة والاقامة والاذان ، وهو كتاب فريد في بابه
يشتمل على أربعين دليلا من الكتاب والسنة وصحيح
النظر على استحباب السيادة في الاحوال المذكورة
وغيرها ويرد على الوهابيين الجامدين والسبكيين المتنطعين
وغيرهم من أعداء البيت النبوي الشريف .

فبادروا إلى اقتنائه فان النسخ محدودة .

PB-36245
5-11T
CC





Date Due

Demco 38-297

NYU - BOBST



31142 02821 4875

BP80.I23 I3

al-Ta'aww